الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 394
تشرين الثاني: 2017

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشتراك السنة 2000 :ريال يمني
(100) مائة دولار امريكي (50) خمسون دولار امريكي
.للاشتراك والاعلان

:للاشتراك والاعلان

:للتواصل

Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:البريد الالكتروني
thakafajadida@hotmail.com
:البريد الالكتروني
thakafajadida4u@gmail.com

:الموقع الالكتروني
http://www.althakafaaljadeda.com
.مجلة الثقافة الجديدة - مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
.تصدر عن مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
:رقم الايداع
:الترقيم الدولي

* تنشر المجلة الدراسات والبحوث والمقالات والقصص والشعر والترجمات والتقارير والحوارات والمراجعات الكتب والمتابعات الثقافية ... الخ
* تخضع المواد المنشورة للتحكيم من قبل هيئة التحرير
* يحق للمجلة نشر المواد المرسلة في أعدادها الورقية والالكترونية
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
* المواد المرسلة لا ترد سواء نشرت أو لم تنشر
* المجلة غير ملزمة بنشر المواد في الأعداد التي تلي تاريخ استلامها
* المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة إليها

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- الدولة المدنية الديمقراطية بديل الدولة الفاشلة ..... هاشم نعمة
19- اقتصاد السوق الاجتماعي وطابعه الانتقالي ..... إبراهيم المشهداني
29- هل تحتاج البصرة سداً ..... فائق يونس المنصوري
36- ضحايا الاغتيالات في قطاع التأمين العراقي والتأمين على الحياة ..... مصباح كمال

طاولة حوارية

48- طاولة (الثقافة الجديدة) الحوارية: أزمة الكهرباء.. مرة أخرى
(الجذور، الواقع، الحلول، ورهانات الخصخصة.. مقاربات تخصصية)

نصوص قديمة

78- حق الأمم في تقرير مصيرها ..... فلاديمير لينين

نصوص مترجمة

96- فرانك ديب :ثورة اكتوبر وعصر الثورة العالمية المضادة ..... ترجمة : رشيد غويلب

حوارات

118- حوار مع الدكتور رياض البلداوي أخصائي الطب النفسي وقضايا الهجرة.....اجرى الحوار: طالب عبد الأمير

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

126- المثقف هو من يحسن التصرف ..... حسين الجاف

في الحدث الادبي والفني

128- كلمة الامين العام لاتحاد أدباء العراق الشاعر ابراهيم الخياط التي ألقاها في افتتاح مهرجان (قصيدة النثر)

دراسات نقدية

130- الدلالات الآيديولوجية والسياسية في(النخلة والجيران) و(روايات جهاد مجيد) .. صبيح الجابر
141- تشكلات البنى الاجتماعية في رواية "الذباب والزمرد" ..... سلمان كاصد

شعر

156- يسمون هذا صرخة لـ(توماس براش) ..... ترجمة قاسم طلاع

قصص

158- الرجل صاحب الكلب ..... يوسف أبو الفوز

163- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة : جودت جالي

لوحتا غلافي العدد : للفنان هاشم تايه

كلمة العدد

ثورة اكتوبر... مائة عام وما زالت الراية ترفرف!

تمر على البشرية في هذا العام، 2017، الذكرى المئوية الاولى، لقيام ثورة أكتوبر العظمى في روسيا القيصرية، تلك الثورة التي غيّرت مجرى التأريخ العالمي.

وبغض النظر عن الاختلافات في تقييم المآل الذي آل إليه النظام المنبثق من ثورة أكتوبر، قلّ من لا يتفق في أن هذه الثورة كانت احد اهم احداث القرن العشرين. فقد طبعت بصماتها على الاتجاهات الأساسية لتطور عالمنا خلال القرن العشرين الذي انقضى معظمه في ظل القطبية الثنائية للاشتراكية والرأسمالية. فالمؤرخ الماركسي الراحل أريك هوبسباوم Eric Hobsbawm ختم آخر أعماله بعنوان مثير: "عصر التطرفات"، راسماً صورة القرن العشرين بأنه قرن أكتوبر، القرن القصير الذي ابتدأ، برأيه، متأخراً في 1917، وانتهى مبكراً في 1991، سنة صعود يلتسن، مثلما ان القرن التاسع عشر كان قرن الثورة الفرنسية.

ورغم تفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار المعسكر الاشتراكي في بداية التسعينات من القرن العشرين إلا أن ما طرحته ثورة أكتوبر من أهداف نبيلة وما تركته من إرث عظيم ما زال يمثل تراثا حيا في وجدان كل المناضلين من اجل الاشتراكية والسلام والعدالة الاجتماعية والديمقراطية ينبغي عليهم دراسته بشكل نقدي، مادي – جدلي – وتاريخي والتخلي عن إصدار الأحكام الجاهزة حول الثورة والوقوع في أسر جلد الذات أو إسباغ القداسة على بعض قاداتها أو التعامل معها خارج سياقها التاريخي الملموس وتحميلها بكل الممارسات والخطايا والجرائم التي ارتكبت في ما بعد، والتي جاءت متناقضة مع مبادئ وأهداف الثورة حين اندلاعها.

جاءت ثورة أكتوبر تعبيراً عن تفجّر تناقضات الرأسمالية في إحدى اضعف حلقاتها. وهي لهذا كانت ثورة حقيقية انطلقت من أعماق المجتمع الروسي بمشاركة واسعة من جماهير الفلاحين المسحوقة في الريف والطبقة العاملة النشيطة في المدن وأقسام واسعة من الفئات الوسطى الحضرية والمثقفين.

ان انتصار ثورة أكتوبر، بيّن جملة حقائق من بينها، بل ربما أهمها، أن الرأسمالية ليست الأفق النهائي للبشرية. كما ان سقوط مشروع بناء الاشتراكية في بلد او مجموعة بلدان لا يعني موت الفكرة ذاتها. فقد دللت ثورة أكتوبر على قدرة البشر، الطامحين الى التحرر والعيش في مجتمع مغاير للمجتمع القائم على علاقات الاستغلال، على اجتراح الخطوة الصعبة الأولى في هذا الاتجاه. وإن الاشتراكية كمشروع للتحرر الإنساني، لن تتبلور إلا كتتويج واستكمال لما سبقها من نضالات وخبرات وتجارب متراكمة، على طريق التحرر الإنساني، هذا الطريق الذي افتتحته الثورة الفرنسية في عصرنا الحديث وأغنته، نوعيا، ثورة أكتوبر العظمى.

ومن جهة اخرى فان الانهيار الذي حصل بحد ذاته هو حدث مأساوي ولكن له ميزة إيجابية، ان صح القول، هي أنه اسهم في دك أسوار الجمود العقائدي، وحرر العقول من قيود "الايديولوجية" (بمعناها السلبي) ما اعطى دفعا قويا للنقاش والحوار، وفتح الأبواب أمام انطلاقة كبرى للفكر للتجوال في رحاب البحث والتقصي والاستكشاف؛ حيث يلاحظ المرء هذا الكم الهائل من الدراسات والأبحاث والمناقشات الساخنة والاجتهادات غير المألوفة والاستنتاجات "المفاجئة".

وعلى الرغم مما بذل من جهود من طرف جهات متنوعة في محاولات للإجابة على الاسئلة التي طرحها الإنهيار، إلا ان النقاش مع ذلك يظل مفتوحا، بل تتزايد الحاجة اليوم في ظل معركة فكرية صاخبة، محلية وإقليمية وكونية الطابع، لإعمال العقل الجمعي للتفكير في هذه القضايا التي تتخذ ابعادا واستحقاقات تخص جميع قوى اليسار والديمقراطية والاشتراكية والسلام والعدالة الاجتماعية بل وكل المناضلين من اجل **بديل يتجاوز الرأسمالية** ولا ينحصر في افقها أو يخضع لآليات ومنطق ادماجها وهيمنتها.

إن هذا الخيار وإنضاج شروط تحقيقه يظل عملية نضالية معقدة مفتوحة الآفاق، سيرورة قد تطول آمادها، وسيكون محصلة لنضال فكري وسياسي عميقين، ونتاجا لنضالات قوى سياسية واجتماعية وتحالفات واسعة متغيرة.

كما أن **اختيار** هذا الشكل للنضال أو ذاك لتحقيق بناء هذا البديل، أهم مسألة للتكتيك والإستراتيجية. ولا يمكن حل هذه المسألة مسبقا، في هدوء المكاتب، ولا يعطى الجواب عنها إلا:

- **تطور** الحركة نفسها؛
- **ومراعاة الخبرة** التي كدستها الجماهير؛
- **وأخيرا، الظروف الوطنية الملموسة.**

وإذ تؤكد الماركسية على هذه **المبادئ المنهجية** المتعلقة بأشكال النضال وتكتيكاته الملموسة، فإنها تؤكد في الوقت ذاته على **بحث قضية أشكال النضال الملموسة في إطارها التاريخي الملموس.** وبهذا الصدد أكد قائد ثورة اكتوبر، (**لينين**)، على أن طرح "هذه المسألة خارج الظروف التاريخية الحسية، يعني جهل ألف باء المادية الديالكتيكية .... إن محاولة الرد بنعم أو لا، حين تطرح مسألة تقييم وسيلة معينة للنضال، دون أن تبحث بالتفصيل الظروف الحسية للحركة في درجة التطور التي بلغتها، يعني التخلي تماما عن الصعيد الماركسي".

وبعد هذا كله لا بد من طرح السؤال الاستراتيجي: **هل يمكن وهل يجب ان يظل المرء ماركسيا بعد هذا الزلزال العظيم؟**

يبدو لنا ان هذا **السؤال** هو في حد ذاته **تعبير** عن منطق مقلوب. فالسؤال الذي ينبغي ان يسأل هو: **هل يمكن ان لا نكون ماركسيين بالنظر الى الاوضاع الراهنة والانهيار الذي حصل؟**

ان **جوهر الخطأ** المتضمن في السؤال السابق يكمن في **ربط** الماركسية بالاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي: قيامه ومصيره. غير ان **المنطق** المعمق، يقضي بأن **تربط الماركسية بتناقضات الرأسمالية.** فالماركسية كفكر وكحركة تاريخية نبعت تاريخيا وتنبع منطقيا من **قلب هذه التناقضات الرأسمالية**، وما دامت هذه التناقضات موجودة تكون الماركسية اداة ومنهجا لكشفها بالنسبة للماركسيين عموما وبالتالي بلورة بديل يمثل قطيعة جذرية مع "النموذج" الرأسمالي.

ونختتم حديثنا بالتأكيد على أنه ورغم اللحظات المشوبة بمشاعر مختلطة بين **حلم مؤجل وأمل آت** إلا أن مجرد **استذكار** هذا الحدث بعد مئة عام من وقوعه، والذي غيّر العالم لأكثر من سبعين عاما إنما يعني أن هذه الثورة ومبادئها الكبرى في: **السلم والخبز والأرض** لم تتسربل بالنسيان، فما زال **بيرق** النضال ضد الاستغلال والظلم والعسف يرفرف، رغم كل الضجيج بـ"نهاية التاريخ" و"نهاية الآيديولوجيا".

إن التجربة الملموسة أكدت ان **التخلي عن الخيار الذي دافعت عنه ثورة أكتوبر ضار ومدّمر معاً؛ لأنه لا يبقي لنا سوى البربرية والحروب، والفقر والجوع والاستغلال والاستقطاب الاجتماعي، والتفكك والتشظي المجتمعي وهيمنة القوى البيروقراطية – الطفيلية – الكومبرادورية – الطفيلية والريعية.** وهنا يقبع خطر الردح الذي تعالى بعد الانهيار، والقائم أساساً على شطب هذا الخيار لأنه يشكل قطيعة بنيوية مع النظام الرأسمالي.

المجد لثورة أكتوبر العظمى في مئويتها الاولى!

مقـــــالات

الدولة المدنية الديمقراطية بديل الدولة الفاشلة

د. هاشم نعمة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب - جامعة البصرة، عام 1974. نال شهادة الدكتوراه. التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

يحتدم الصراع على أشده سلما وعنفا في العراق بين الأحزاب والقوى والكتل المتنفذة منذ سقوط النظام عام 2003 على شكل بناء الدولة، وتخلط المفاهيم والمسميات عن هذا الشكل عن قصد أو بدونه، وقد ساهمت في ذلك طريقة تغيير النظام بواسطة الاحتلال، حيث افتقد هذا التغيير للمشروع الوطني الديمقراطي، وكذلك ضبابية بعض مواد الدستور الذي أقر عام 2005، والثغرات التي تضمنها، لذلك تحاول كل جهة تفسير مواقفها تجاه هذه القضية الأساسية بناءً على مرجعياتها الفكرية والسياسية ومنحدراتها الطبقية والاجتماعية. هذه المقالة مساهمة لتسليط الضوء على بعض المفاهيم النظرية المتعلقة بالدولة وعلاقتها بالمجتمع في البلدان النامية، ومعاينة الدولة الفاشلة من حيث المفهوم والمقررات، وتفحص بعض مقومات الدولة المدنية الديمقراطية لإنتاج نوع من المقارنة بين الدولتين، لتأكيد أن خيار الدولة المدنية هو الممكن والوحيد لإنقاذ الدولة العراقية من الانحدار أكثر في صنف الدولة الفاشلة التي تنطبق الكثير من مميزاتها عليها حاليا.

مفاهيم نظرية

انطلق جويل مغدال عند مقاربة الدولة والمجتمع في كتاباته من تساؤل عن عجز الدول النامية عن تحقيق تطلعات شعوبها بعد الاستقلال، فتوصل إلى أن قدرة الدولة على الضبط الاجتماعي، وفرض السياسات

على القيادات المجتمعية التقليدية تدعم قوتها في مواجهة المجتمع، مقابل ما يفرضه واقع ضعف الدولة من اعتماد سياسات هدفها البقاء والحفاظ على الوضع الراهن. وأكد في مراجعته للنظرية أن الدولة ليست ذلك الكيان الهيراركي الموحد، وإنما تتضمن عناصر للقوة تتكامل بهدف التحكم في القوى الاجتماعية التقليدية التي تتحدى سلطتها. وبالتالي، تتبع الدولة سياسات إدماجية أو إقصائية بهدف مواجهة هذه التكوينات الاجتماعية، وضبط حركتها. ويرتبط عدم الاستقرار لدى مغدال باختلال علاقات القوة بين الدولة والتكوينات الأولية في المجتمع، في إطار الدولة الضعيفة والمجتمع القوي، حيث تخفق الدولة في تحقيق الضبط الاجتماعي، وتقع في علاقات صراعية مع المجتمع الذي يبدأ في تشكيل مؤسسات موازية للدولة، لملء مساحات الفراغ الناجمة عن ضعف الدولة، فتحاول هذه تعويض ضعفها بممارسات تعسفية.

هناك نموذج الدولة الفاشلة في الدول النامية، وتعزى التسمية إلى خصائص هذه الدول، ومنها: المالك/ العامل، ويقصد بها الانقسامات الطبقية التي تم التعبير سياسيا عنها بتأسيس الأحزاب العمالية والاشتراكية. إلا أن هذه الانقسامات اكتسبت زخما متصاعدا عقب نهاية الحرب الباردة بانتشار الفقر عالميا. ويترتب على ذلك أن المجتمعات في الدول النامية تتسم بانقسامات اجتماعية متقاطعة ومتداخلة، لأنها تتصف بالتعددية المعقدة ذات الأبعاد الإثنية، والطائفية، والدينية، واللغوية، الأمر الذي أدى إلى إخفاق سياسات الصهر التي اتبعتها النظم الحاكمة، بعد الاستقلال لتحييد آثار التعددية، وإلى إخفاق وظيفة الاندماج الاجتماعي (1). ويتجلى هذا بوضوح في بعض البلدان العربية التي تشهد نزاعات إثنية ودينية وطائفية مدمرة.

تستهدف القوى الساعية إلى التفكيك نقل الصراع في داخل النظام الواحد؛ فإحياء الهويات العرقية يعجل في زوال الدولة الوطنية لتغليب الكيانات الإثنية المتعددة، ولا يدور الصراع غالبا بين القوى الإثنية في شأن خلافات حضارية أو رؤى حداثية، بقدر ما يكون للاستئثار بسلطة الدولة. وربما يبدو نقل الصراع إلى داخل الدول بعد تفكيكها أمرا ممكنا، وأداته إذكاء العوامل الكامنة لإحداث التناقضات المجتمعية المحلية، باعتبار أن نشوء بعض هذه البلدان ومجتمعاتها لم يكن قائما على الأسس التقليدية الراسخة في بناء الدول ومجتمعاتها، الأمر الذي أضعف ترابط نسيجها الاجتماعي وتوازناتها المجتمعية، ونقع في بعض هذه البلدان على تباينات قومية أو عرقية أو دينية أو طائفية. وعند سيادة حكم الأغلبية الإثنية، الذي ربما يرافقه إقصاء الآخر، لا تُعد هذه السياسات حلا لنظام الحكم، بقدر ما تزيد المشكلة تعقيدا بفعل تنامي سيطرة أحد هذه التكوينات على نظام الحكم والمجتمع المدني، وغالبا ما تقود هذه السيطرة إلى إحدى حالات الاستبداد (2) والتي سادت في الكثير من البلدان النامية ومنها البلدان العربية.

تعكس البنية الاجتماعية، أكثر أو أقل، الملامح المميزة للبنية الاقتصادية. ولأن الاقتصاد في الدول النامية يتميز بالطابع الثنائي، أي التعايش الغريب أو الشاذ بين أسلوب الإنتاج ما قبل الرأسمالي وأسلوب الإنتاج الرأسمالي، تكون بنية المجتمع غير متجانسة بشدة. فالقطاعان الاقتصاديان المتناقضان مع مميزاتهما المختلفة بدرجة

كبيرة هما، القطاع ما قبل الرأسمالي والقطاع الرأسمالي، يمثلان قطبين متعارضين مع ممارستهما قوة الجذب والطرد في ما بينهما، فيؤدي هذا إلى وجود أصناف لا تحصى من التكوينات الاجتماعية.

يتناقض ذلك كله على ما يبدو، لكن في الواقع يتوافق مع قلة الوضوح في الحدود الطبقية، وبالتالي تخلف الوعي الطبقي أيضا. في الواقع، سيكون من الخطأ الاستنتاج أن بقاء عدد كبير من مكونات المجتمع ما قبل الرأسمالي، أو حتى من حصتها الكبيرة نسبيا في المجتمع ككل، يجعلنا أمام صنف من المجتمعات غير المتمايزة، وبأنها أكثر تجانسا من المجتمعات المتقدمة. فتعايش القطاعين يشير إلى درجة لا تضاهى من عدم التجانس مقارنة بتاريخ المجتمعات الأوروبية، بمعنى أن القطاع ما قبل الرأسمالي الذي تجسد في قرون من التخلف تمكن من البقاء في قطاعات كبيرة من المجتمع، بينما في المجتمعات الغربية المتقدمة ظهرت المكونات الحديثة أو بالأحرى الجديدة والأكثر تقدما إلى حيز الوجود، بشكل معتاد من داخل المجتمع، من خلال التحول التدريجي للمجتمع، حيث اصطدمت أولا بالمكونات القديمة كلها التي ما زالت مسيطرة (ليس متفوقة في العدد فحسب بل في السلطة كذلك) قبل أن تتمكن من الوصول إلى السلطة. هذه السلطة تأكد ثباتها بعدما نمت القوى الجديدة، نتيجة تعمق المزيد من التحولات في بنية المجتمع. فكان نشوء "القطاع الاجتماعي الحديث" ووصوله إلى السلطة مرتبطين ارتباطا وثيقا بتحول القطاع "التقليدي"، ومن ثم أصبح القطاع "الحديث" مهيمنا وله اليد الطولى (3)، أي أن هذه العملية نجمت عن تراكمات موضوعية على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

إذن، ظهرت في الدول النامية عناصر المجتمع الحديث إلى حيز الوجود، كقاعدة عامة، لا من التطور الذاتي الداخلي للمجتمع بواسطة الانفصال التدريجي عن المجتمع القديم، بل من الأشكال الرأسمالية الجديدة للاقتصاد، فرضت من الخارج، من دون أن تكون لها أي علاقة عضوية سابقة، نشأت في مفاصل بنية المجتمع القديم، بعيدا عن تدخل البيئة الخارجية. إن اختراق الرأسمالية الأجنبية، الذي أخذ طريقه عموما من خلال أوضاع العدوان الاستعماري، عوق التطور الطبيعي والتحول للمجتمعات الأصلية، جاعلا من المتعذر قطعا أن تأخذ هذه العملية مجراها وتتطور بوتيرة تقررها القوانين الداخلية وتطورها (4)، وهذا ينطبق بدرجة غير قليلة على موضوع بحثنا.

هناك فرضية مضمونها أن في الاقتصاد الريعي لن يكون في الإمكان بناء أي تجربة ديمقراطية بالمعنى المتعارف عليه عالميا، فالتناقضات بين الديمقراطية والاقتصاد الريعي تناقضات بنيوية وليست عابرة لأنها تتعلق ببنية الدولة الريعية وطبيعتها التي لا تولد المقومات لبناء الديمقراطية. فقد بينت التجربة التاريخية أن الاقتصاد الريعي يؤدي إلى تراجع تدريجي للاقتصاد الإنتاجي الزراعي والصناعي، وإلى تدني أهمية العمال الزراعيين والصناعيين الأمر الذي يفضي موضوعيا إلى ضعف القوى الاجتماعية المساندة لاستراتيجية التنمية والتقدم الاجتماعي (5)، ومن ثم ضعف القوى المساندة لبناء دولة مدنية ديمقراطية.

بعد المنعطفات السياسية التي ينجم عنها تغير النظام السياسي فإن ارتفاع مستوى التغير الاجتماعي يفضي إلى توليد مطالب ومهام جديدة، غالبا ما لا تتناسب مع

إمكانيات النظم الجديدة، مما يتسبب في إحداث مشاكل الاندماج التي تكون شديدة الحدة قد تصل إلى درجة المواجهات المسلحة. يبقى مثل هذا الوضع المجتمعات مجرد رعايا لا تشارك بشكل حقيقي في العملية السياسية، لا سيما في ظل ضعف مؤسسات الدولة، الأمر الذي يشكل تربة خصبة للعودة إلى الانتماءات الأضيق، وتكريس العزلة، وتبلور الاستقطاب، وتلاشي الطابع التعددي لصالح الأحادية، ومن ثم تحفيز العنف (6)، لذلك قد تواجه تلك المجتمعات خرائط إثنية، ودينية، وقبلية جديدة. وهذا ينطبق بدرجة غير قليلة على الوضع في العراق نتيجة غياب المشروع الوطني الديمقراطي لبناء الدولة بعد تغيير النظام الاستبدادي.

مفهوم الدولة الفاشلة

بدأ استخدام مصطلح الدولة الفاشلة أكاديميا في التسعينيات من القرن الماضي، بالتعريف الذي قدمه (هيلمان) و(رانتر) عام 1993 للتعبير عن فشل الدولة، وذلك بعجزها عن القيام بوظائفها على مستويات مختلفة. ووفقا لهذا التعريف، صنف الباحثان الدولة الفاشلة إلى ثلاث مجموعات؛ تضم الأولى دولا انهارت فيها المؤسسات الحكومية بالفعل (مثل الصومال). ومجموعة ثانية تشهد حالة من الصراع الداخلي الحاد (مثل إثيوبيا). ومجموعة ثالثة تفتقر إلى القدرة على الإدارة الكفوءة للدولة، وتحديدا الجمهوريات الناتجة عن تفكك الإتحاد السوفيتي ويوغسلافيا. وقد أثار هذا التعريف حالة من الجدل الأكاديمي حول المفهوم، وهل الفروق بين تلك المجموعات الثلاث تتيح وضعها جميعا في إطار تصنيف واحد، أم أنه يمكن تصنيفها بأنها دول ضعيفة أو هشة، أو فاشلة أو غير ذلك من الاجتهادات التي جعلت المفهوم أكثر غموضا عند أول ظهور له؟

هناك العديد من التعريفات للدولة الفاشلة لا يتسع لمجال لذكرها جميعا هنا، يمكن من خلالها استخلاص الخصائص الأساسية للدولة التي يمكن أن توصف بالفشل وهي: وجود تحديات داخلية حادة تهدد بقاء الدولة ذاتها، أو بقاء نظامها السياسي؛ وجود حالة من العنف السياسي الشامل، أو صراع مسلح لا تتمكن الحكومة من احتوائه؛ وجود عجز في مؤسسات الدولة للقيام بوظائف الحكم، أو عجزها عن تأمين الحد الأدنى من الخدمات الأساسية للمواطنين، مثل النظام، والأمن، والسلام، والاستقرار... إلخ؛ وجود تشكيك في قدرة النظام الحاكم على تمثيل الدولة في علاقاتها الخارجية. ولكن هذا لا يعني خلو هذا المفهوم من الإشكاليات (7). مع ملاحظة أن معظم هذه الخصائص إن لم تكن جميعها على الرغم من الإشكاليات المثارة بصددها تنطبق على حالة الدولة العراقية حاليا.

مقررات فشل الدولة

إن تعدد وتقاطع الهويات الفرعية في المجتمع، وإخفاق الدولة في أداء وظائف بإدارة التعددية، لا سيما مع فشل نماذج الصهر الاجتماعي، يؤديان لفقدان ثقة المواطن في الدولة، وارتكانه لهوية جماعته الفرعية العرقية، أو المذهبية، أو الدينية، بما يؤدي لشيوع التعارض في المصالح المولدة للعنف. وتتصاعد حدة هذه المعضلة مع تلاشي الولاء للدولة والمواطنة، وتصاعد الولاءات القومية، والدينية، والمذهبية،

والقبلية كتعويض عن الولاء للوطن، وكإطار للحفاظ على وجود المواطن وأمنه، بما يؤدي لتفكيك المجتمع لوحدات متناحرة تتقاتل على تقسيم مناطق النفوذ، والسلطة والثروة.

ويتمثل البعد الأكثر خطورة في معادلة العنف الهوياتي في ضعف الدولة، وتصاعد أوجه الخلل الهيكلي في أدائها لوظائفها، أو انحيازها لصالح أحد الفرقاء المتصارعين، بحيث تتورط في دوامة العنف الهوياتي كأحد أطرافه، بما يفقدها رأسمالها السياسي القائم على الحياد المفترض في إدارة الصراعات المجتمعية.

ويرى (أمارتيا صن) أن الهوية الجماعية تقود إلى العنف فقط عندما تقترن برؤية منفردة بامتلاك الحقيقة المطلقة، والرؤية المتعالية للذات مقابل الآخر، بينما تتوارى الانتماءات الإنسانية المتعددة على اتساعها في خضم تلك الرؤية الأحادية. كما أن اختزال الهوية في البعد العقائدي القائم على الانغلاق على الذات يؤدي لتهيئة المجال لتأجيج العنف على أساس الهوية(8)، كأن تكون قومية أو دينية أو طائفية أو مناطقية، وهذا ما نلاحظه في العراق خصوصا بعد سقوط النظام السابق.

إن تفكيك الدولة سيواجه بحالة هلامية الدولة، حيث يصعب معه بناء نظام سياسي، ولا سيما في حالة غياب البنى المؤسسية، وتزداد هذه الحالة تعقيدا عندما يكون بناء ذلك النظام من خارج الدولة وليس من داخلها. بمعنى آخر، أن دخول متغيرات خارجية (الرأسمالية الجديدة) بالمساهمة في تفكيك الدولة في إحدى مراحل تاريخ بنائها كما في العراق، ليس بالضرورة أن يكون بمقدور تلك القوى إعادتها وفقا لغايات رأسمالية حداثية، كما تشير خطاباتها المعلنة؛ إذ تعطي هذه الخطابات أحيانا دلالات خاطئة (مضللة) حول مسألة الحرية والديمقراطية وسيادة مفاهيم الدولة الحديثة، إنما الأكثر احتمالا في حالة غياب مفهوم الدولة ومؤسساتها هو سيادة حالة عدم التوازن في المتضمنات الرئيسة لمكون الدولة في المدى المنظور في أقل تقدير (9). وهذا ما تمر به الدولة العراقية نتيجة افتقاد الكتل السياسية المتنفذة رؤية حداثية لبناء دولة المؤسسات دولة المواطنة الحقة بكل متضمناتها الدستورية والقانونية.

أدت محاولات فرض الديمقراطية عن طريق الاحتلال في العراق إلى تعقيدات لا نهاية لها. فعملية التحول الديمقراطي لها معطياتها وشروطها الداخلية التي يتعين توفيرها وإنضاجها، وهو ما يستغرق فترة زمنية طويلة نسبيا، خاصة في دولة مثل العراق تتسم بتنوع بنيتها العرقية والدينية والطائفية من ناحية، وطول فترة التسلط والاستبداد فيها من ناحية أخرى. كما أن مجرد الإطاحة بنظام متسلط في المنطقة لا يعني النجاح التلقائي في إحداث التحول الديمقراطي، حيث إن أحد العوامل الحاسمة في هذا السياق هو مدى نجاح قوة التدخل في إعادة بناء وهيكلة مؤسسات الدولة ووضع البنية الأساسية للتحول الديمقراطي، وهو أمر تحكمه اعتبارات عديدة، في مقدمتها الأوضاع الداخلية في العراق (10) وأهداف وغايات المحتل الأساسية وهنا ينطبق الأمر خصوصا على الولايات المتحدة الأمريكية.

على الرغم من كثرة الحديث عن إعادة الإعمار في العراق، إلا أن ما تحقق على أرض الواقع محدود ومتواضع بكل المقاييس. وإذا كان هذا الأمر يمكن تفسيره في ضوء الأوضاع الأمنية، إلا أنه لا ينفي

حقيقة أن هناك مشكلات ارتبطت بعملية إعادة الإعمار ذاتها، وبخاصة ما يتعلق بخطط إعادة الإعمار، وعمليات تمويلها وإدارتها، ناهيك عن حجم الفساد المرتبط بهذه العملية. وهذه الأوضاع خلفت مشكلات وتحديات جديدة تعقد بكل تأكيد عملية بناء مؤسسات ديمقراطية (11) فاعلة ومعبرة شرعيا أصدق تعبير عن توجهات وطموحات وأماني المجتمع العراقي الذي عانى لعقود من تسلط الأنظمة المستبدة.

في ما يخص حنين قوى الإسلام السياسي للخلافة بحسب برهان غليون، فقد ساهم ارتباط الدولة العربية بالتبعية والخوف وعدم الاستقرار، فما كان لهذه الدولة، كما تجسدت بالفعل، أي كدولة القهر والحزب الواحد والإحباط، أي دولة نفي الحرية وتجديد مفاهيم التمييز والاستعباد، أن تقضي على ذكرى الإمبراطورية العربية الإسلامية القديمة. ولكنها عملت بالعكس على إحيائها وإضفاء طابع أكثر مثالية عليها بقدر ما كانت الدولة الوطنية تظهر العجز المزدوج عن شروط الاندماج الحقيقي في الحضارة الإنسانية والحداثة سياسيا واجتماعيا وثقافيا وحل مشاكل الأمن الداخلي والخارجي والرد على العدوان بأشكاله المختلفة (12).

ومن نافلة القول إن بناء شرعية السلطة على الدين، يضع المجال السياسي خارج أي نوع من أنواع التعاقد الذي يقوم عليه قوام الدولة الحديثة، ويقضي – حكما – بإخضاعه إلى فئة تستأثر به دون غيرها بحجة إنفرادها بهذا الحق الديني. وإذا كان الأمر يتعلق هنا بنظم سياسية معدودة فهو يتعلق أيضا بفريق كبير من المعارضة السياسية يكاد برنامجه يُختصر في شعار بناء الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة.

وهكذا، إذا كانت السلطة الثيوقراطية تصنع عوائق في وجه أي انتقال ديمقراطي باسم الدين، فإن بعضا من المعارضة يساعدها في تغذية تلك العوائق وإعادة إنتاجها لسبب نفسه! وفي الحالتين، فإن الخاسر الأكبر هو إمكانية تحقيق انتقال ديمقراطي سلمي يكون محط توافق (13) على المستوى السياسي والاقتصادي الاجتماعي من قبل جميع القوى والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني.

تثير إشكالية القطيعة والتواصل بين الدولة الحديثة في العراق والبنية العشائرية جدلا فكريا قبل أن يكون بحثا اجتماعيا. فقد استمرت روح العشيرة في العراق في التحكم نسبيا في العلاقات الاجتماعية بما هو خارج حدود المدن الرئيسة، وصمدت باعتبارها رابطة تضامنية، وتعززت في الظروف السياسية التي شهدها العراق بعد عام 1980 باندلاع الحرب العراقية – الإيرانية، وبشكل خاص حرب عام 1991 التي نتجت عن غزو الكويت، حيث تداعى الأمن وتقلصت سيطرة الدولة لتنكفئ في بغداد وبعض مراكز المدن، فعادت الدولة لترعى شيوخ العشائر ووجوهها البارزة ولتبعث تضامن القبيلة باعتبارها رابطة لها وظيفة اجتماعية وقيمية في الدفاع عن المخاطر الخارجية والداخلية. وبعد عام 1991، أعيد تشكيل ثقافة الانتساب القبلي والبحث عن الأصول والأنساب، وإعطاء أدوار محددة لرؤساء القبائل، داخل البنية العشائرية في قضايا تتعلق بفض المنازعات والخلافات المحلية، وتشجيع قيادات شابة جديدة في أن تأخذ دورها داخل النسق الاجتماعي (14). وهذا ينطبق على ما أطلق عليه الباحث العراقي كريم حمزة بـ "تخادم الدولة والمشيخة" (15). وقد تعزز هذا

الاتجاه أكثر بعد تغيير النظام عام 2003 وما أعقبه من انهيار مؤسسات الدولة أو تراجع دورها وضعف الأمن والاستقرار ما أدى إلى الاحتماء بالعشيرة للمحافظة على الوجود. وقد عززت الكتل السياسية المتنفذة هذا التوجه من خلال استثمار العلاقات العشائرية وتوظيفها سياسيا للفوز في الانتخابات المحلية والبرلمانية من خلال شراء الأصوات بشكل يكاد يكون علنيا.

قد تحجم فئات مجتمعية عن المشاركة في الحياة العامة مثل الشباب، أو تواجه عقبات تحد من مشاركتها مثل المرأة. وفي كلتا الحالتين يصبح من الصعوبة إفراز كوادر قيادية، فمشاركة الشباب والمرأة هي جزء لا يتجزأ من تأهيلهم لتحمل مسؤولية قيادة مجتمعاتهم. ومن الملاحظ في البلدان العربية ضعف دور الشباب وعزوفه عن المشاركة، حيث أدى الميراث السياسي إلى غياب الاندفاع للمشاركة، وهي مشكلة لا تقتصر على تولي المناصب الرسمية أو المشاركة في الحياة السياسية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى البعد عن ممارسة العمل التطوعي، إيمانا منهم بأن معايير الولاء تسمو على معايير الكفاءة والأداء، وهو الأمر الذي أدى في النهاية إلى غياب النخب الشابة عن المؤسسات السياسية والمجتمعية، أو تسطيح فكر هذه النخب في حالة انضمامها إلى أي إطار مؤسسي. وينطبق المنطق ذاته على المرأة التي لا تزال تناضل من أجل الحصول على حقوقها، حيث لا تزال الثقافة العربية تحتوي في أجزاء منها على مثبطات للإبداع (16) مرتكنة إلى مرجعيات دينية وتقليدية ومناطقية والتي تقلص في النهاية من مساحة مشاركة المرأة بشكل فاعل اجتماعيا وسياسيا حتى لو اعتلت مناصبَ عليا تشريعية وتنفيذية في مؤسسات الدولة، ومثال العراق واضح في هذا المجال؛ حيث يتعامل معظم الكتل السياسية المتنفذة وخصوصا الإسلامية منها مع دور المرأة لملء المناصب المتولدة عن نظام الكوتا.

في مقومات الدولة المدنية

لعل التوجهات الأساسية للفكر الغربي ابتداء من القرن السابع عشر (لوك، هوبز، كانت، سبينوزا، روسو، فيخته، ... إلخ) كانت تصب في التفكير في كيفية نزع الطابع المطلق عن السياسة وفصل اللاهوتي عن السياسي حتى لا يتدثر ويتعلل به، ثم في كيفية ربط السياسة وقضايا المجتمع بمبدأ التعاقد (لا بمبدأ الاستلهام العلوي) وإدراج القضايا السياسية في نطاق التشريع والقانون أو الانتقال من المنظور اللاهوتي السياسي إلى المنظور التشريعي القانوني، وبالتالي تحويل المشروعية الثقافية من الأعلى إلى الأسفل ومن السماء إلى الأرض، أي إلى التاريخ الحي وربطها بالشرعية التمثيلية والقانونية والمواطنة وسيادة الشعب (17). وقد ساهم ماركس مساهمة كبرى في هذا الميدان، لكن منهجه في التحليل استند إلى المادية التاريخية وليس إلى التصورات المثالية. ولم تمر هذه الأفكار من دون مقاومة شديدة من قبل الكنيسة والشرائح المحافظة، ولكن في النهاية انتصرت هذه الأفكار بعد أن جرت غربلة التراث الديني ونقده بمنهج تاريخي، أي نزع الطابع المقدس عنه ومن ثم تحييد الدين عن السياسة. وقد مثل هذا نقلة نوعية كبرى ساهمت في إرساء أسس الدولة المدنية والتي احتاجت إلى وقت طويل كي تترسخ في البنية السياسية والاجتماعية والثقافية.

والدليل على ذلك فقد استغرق ترسيخ مبادئ الديمقراطية والحرية في بريطانيا والولايات المتحدة فترة طويلة قبل إنشاء المؤسسات الديمقراطية. وتوضح دراسة التاريخ الأمريكي أن مائة وخمسين عاما من البناء البطيء لمؤسسات ديمقراطية محلية في المستعمرات الثلاث عشرة قد سبقت صياغة دستور شبه ديمقراطي. ومر قرن وربع قرن أخرى قبل أن يتم تحقيق ما يمكن أن يطلق عليه "ديمقراطية كاملة". وطوال هذه الفترة كانت الديمقراطية للأقلية من البيض الذكور الذين كانوا يتمتعون بحق المواطنة (18)، أي كان هناك تمييز مؤسساتي جنسي على مستوى البيض وعنصري ضد المواطنين السود والملونين.

إن ما نشاهده من مرجعية ليبرالية عقائدية، ومنها الحريات الفردية، الاجتماعية منها والاقتصادية في ممارسة الغرب وامتداداته الحضارية للديمقراطية أحيانا، هي مسألة تاريخية تعود إلى أن الديمقراطية تطورت في العصر الحديث في مجتمعات ذات مرجعية ليبرالية، الأمر الذي جعل الممارسة الديمقراطية في هذه الدول تتأثر باختيارات وعقائد المجتمعات التي نشأت فيها، ولذلك فإنه من الطبيعي أيضا أن تتأثر مرجعية الممارسة الديمقراطية باختيارات وعقائد المجتمعات الأخرى التي تنتقل اليوم إلى نظم حكم ديمقراطي.

وإذا كانت للمجتمعات تفضيلاتها، فإن نظام الحكم الديمقراطي له بالضرورة مقوماته أيضا، ولذلك فإنه لا بد لكل شعب يريد تفكيك الاستبداد أن يقوم مفكروه وقادته السياسيون بإجراء مقاربات جوهرية تزيل التعارض بين ما يسمى ثوابت مجتمعهم ومقومات نظام الحكم الديمقراطي، وذلك بالتركيز على جوهر كل منهما بعد إزالة ما علق بكل منهما من شوائب الممارسة التاريخية (19) المتراكمة نتيجة قرون من هيمنة الثقافة الدينية التراثية النصية المحافظة دون أن تخضع للنقد المنهجي التاريخي لترك ما بات في عداد التراث الميت الذي لا يواكب تطور الحياة ومستجداتها.

من المقومات الرئيسة لبناء الدولة المدنية الديمقراطية وجود المجتمع المدني الذي يعد بمؤسساته أحد أعمدة النظام السياسي والمجتمعي. ولا توجد ديمقراطية حقيقية بدون دور فعال لهذه المؤسسات، وهذا الدور لا يقتصر على خدمة المجتمع فحسب، بل يتعدى ذلك إلى إفراز الكوادر القيادية وتدريبها على القيادة، ليصبح المجتمع المدني المخزن الذي لا ينضب للقيادات الجديدة، والمصدر المتجدد لإمداد المجتمع بهم. إلا أن هذا الدور، بالرغم من أهميته، لم يتم الاهتمام به بالقدر الكافي، في ظل المناخ السياسي السلبي الذي كان سائدا قبل مرحلة الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية. وقد ساعد على ذلك القيود القانونية التي عرقلت حركة هذه المؤسسات، ما جعل بعضها يدخل في معركة مع النظم الحاكمة لإثبات شرعيته، واتجه البعض الآخر إلى الخنوع. وقد أدى هذا في نهاية الأمر إلى تركز مهام مؤسسات المجتمع المدني في الجانب الخيري والحقوقي، وهو الأمر الذي أضفى عليها نوعا من الهشاشة انعكست بصورة أو أخرى على المهام المنوط بها تنفيذها (20)، علما أن هذه المؤسسات استُغلت على نطاق واسع من قبل الحركات الإسلامية في النشاطات المشار إليها لتوسيع قاعدتها الاجتماعية خصوصا وسط الفئات الفقيرة.

تبنى كثير من المفكرين الحديث عن العدالة الاجتماعية ومؤشراتها، بحسبانها هدفا

أسمى، يتوخى النظام الديمقراطي تحقيقه داخل المجتمع. وثمة عدد من المؤشرات المهمة الدالة على مدى تحقق العدالة الاجتماعية منها: المساواة في توزيع الدخل، بناء على تصنيفات كالوضع الاجتماعي والاقتصادي، والمهنة، والنوع. والمساواة في توزيع فرص العمل؛ ففي الدول المتقدمة والنامية، على حد سواء، صار توزيع فرص العمل هو المحدد الأساسي لتوزيع الدخل، وهو المؤشر الرئيس للعدالة الاجتماعية. والمساواة في حق وإمكانية الحصول على المعرفة، وهي ما يتعلق بمعدلات دخول المدارس والجامعات، وما يتعلق بجودة التعليم في المؤسسات والمناطق المختلفة، بحسبان التعليم مصدر الحصول على العمل ومؤشر على الحراك الاجتماعي. والمساواة في توزيع الخدمات الصحية، والأمن الاجتماعي، وتوفير البيئة الآمنة، وجودة هذه الخدمات. والمساواة في فرص المشاركة المدنية والسياسية، فطريقة تنظيم السلطة وتوزيعها بين مؤسسات المجتمع المختلفة تؤثر في كيفية رؤية المواطنين، وإيجاد مكانهم في السلم الاجتماعي، ومؤشر على العدالة الاجتماعية وجودا وعدما.

غير أنه من المهم الإشارة إلى أن العدالة الاجتماعية لا تعني المساواة المطلقة، أي أنها لا تعني المساواة الحسابية في حصص أفراد المجتمع من الدخل أو الثروة. فمن الوارد أن تكون هناك فروق في هذه الحصص، بالتوافق مع الفروق والقدرات الفردية بين الناس. بيد أنه من المهم أن تكون اللا مساواة بين الناس في الدخل أو الثروة مقبولة اجتماعيا، بمعنى أنها تتحدد وفق معايير بعيدة عن الاستغلال والظلم، ومتوافق عليها اجتماعيا (21)، على الأقل في مرحلة معينة. وهذا ما لا نلاحظه مثلا في العراق، حيث اتسعت الفجوة بين الثراء والفقر لذلك انعكست في اتساع نطاق الاستياء الشعبي، وترسخ الفساد المالي والإداري في جميع مفاصل الدولة، وفي هذه الحالة لا يمكن الحديث عن العدالة الاجتماعية مع ارتفاع معدل الفقر وتفشي وباء الفساد بمختلف تلاوينه.

في ما يتعلق بالجدل الدائر في الأوساط السياسية والأكاديمية حول طبيعة التغيير الديمقراطي في العالم العربي، وحدود دور كل من العوامل الداخلية والخارجية في هذه العملية. وبالرغم من أن هذه الإشكالية ليست جديدة، إلا أنها اكتسبت زخما كبيرا عقب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر 2001، فبرز تيار عريض في الأوساط السياسية والأكاديمية الأمريكية راح يؤكد أن سياسات وممارسات النظم التسلطية الاستبدادية في الشرق الأوسط هي المسؤولة عن خلق بيئات ملائمة لتفريخ المتطرفين والإرهابيين الإسلاميين الذين يناصبون الولايات المتحدة، والغرب عموما، العداء، ومن ثم فإن تحقيق الديمقراطية في هذه المنطقة يمثل مدخلا أساسيا لمحاصرة جماعات التطرف والعنف والإرهاب وتجفيف منابعها (22). طبعا هذا الطرح لا يمثل الحقيقة كاملة، فكما هو معروف فقد رعت ودعمت الدول الغربية خصوصا الولايات المتحدة الأنظمة المستبدة، واستثمرت التطرف الديني لتوظفه ضمن سياستها المسماة بـ "احتواء الشيوعية" خصوصا في فترة الحرب الباردة وما دعم التطرف الديني في أفغانستان وغض النظر عنه في عدد من الدول إلا أحد أبرز الأمثلة على هذه السياسة.

دليل آخر في هذا الاتجاه، هو أن القوميين

المتشددين في عهد الرئيس (جورج دبليو بوش) رأوا أن انشغال الولايات المتحدة في العراق ليس لإقامة جنة عدن للديمقراطية ولكن لهزيمة المتمردين الإرهابيين. ونموذجهم في ذلك أفغانستان. لكن ازدراء بوش الطويل لفكرة بناء بلد والفشل الأولي لدفع مرؤوسيه لوضع خطة لإعادة بناء العراق، كل ذلك جعله يقع في خانة القوميين المتشددين [23]، أي لم يعد بناء نظام ديمقراطي في العراق من أولوياته.

استنتاجات

– قادت التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت تغيير النظام عام 2003، وصراع الكتل المتنفذة على السلطة والثروة والتي افتقدت المشروع الوطني الديمقراطي لبناء الدولة العرقية، إلى إنتاج ما يُطلق عليه بالأدبيات السياسية بالدولة الفاشلة.

– لا سبيل لوقف انحدار الدولة العراقية أكثر في هذا الصنف من الدولة دون رؤية واضحة لبناء أسس دولة مدنية ديمقراطية اتحادية تعتمد المواطنة، تكون بدايتها القطيعة التامة مع نظام المحاصصة الطائفية – الإثنية المنتج المستمر للأزمات والفشل.

– لا بد أن يرافق التحول الديمقراطي تحول من الاقتصاد الريعي الأحادي الجانب إلى اقتصاد إنتاجي متنوع زراعي صناعي، لأن ذلك سيعزز هذا التحول اجتماعيا وسياسيا.

– هناك قطاعات واسعة من الجماهير غير المنظمة تتوق لبناء الدولة المدنية، لكن خلط المفاهيم والمسميات بصددها عن قصد والذي تتبناه القوى الإسلامية يخلق نوعا من الضبابية حول مفهومها، لذلك هناك ضرورة موضوعية لا تقبل التأجيل وهي أن ينسق جميع القوى والأحزاب والشخصيات ذات التوجهات المدنية الديمقراطية جهودها في سبيل خلق تحالف واسع لتغيير موازين القوى في الانتخابات القادمة ولو نسبيا.

هوامش الدراسة

1 – راجع محمد عبد الله يونس، "إشكالية الاختزال: الاتجاهات الجديدة لظاهرة عدم الاستقرار داخليا وخارجيا"، ملحق اتجاهات نظرية، السياسة الدولية، العدد 197 (يوليو 2014)، ص 8 – 9.

2 – سالم توفيق النجفي، أزمة الدولة القومية المعاصرة.. التفكيك والاندماج، في الدولة الوطنية المعاصرة.. أزمة الاندماج والتفكيك (بيروت: 2008)، ص 13.

3 – Jozsef Nyilas (ed.),Theory and Practice of Development in The Third World, translated from Hungarian (Budapest: 1977), p. 125.

4– Nyilas, pp. 125–126.

5– صالح ياسر، "الريوع النفطية وبناء الديمقراطية – الثنائية المستحيلة"، الثقافة الجديدة، العدد، 363 (كانون الثاني 2014)، ص 39 – 42.

6– مي مجيب، "الاستبعاد البنيوي: الانتماءات الأولية كمدخل للعنف بين الدولة والمجتمع"، ملحق اتجاهات نظرية، السياسة الدولية، العدد 193 (يوليو 2013)، ص 9.

7– دلال محمود السيد، متلازمة التدهور: بحثا عن مقاربة نظرية لفشل الدولة في الشرق الأوسط، ملحق تحولات إستراتيجية، السياسة الدولية، العدد 208 (أبريل 2017)، ص 7.

8– أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، عالم المعرفة (الكويت، يونيو 2008)، نقلا عن مجيب، ص 12.

9- النجفي، ص 19 – 20.
10- علاء عبد الحفيظ، "التحول الديمقراطي في الدول النامية والسلام الدولي"، السياسة الدولية، العدد 181 (يوليو 2010)، ص 16.
11- حسنين توفيق إبراهيم، "العوامل الخارجية وتأثيرها في التطور الديمقراطي في الوطن العربي"، في الدولة الوطنية المعاصرة: أزمة الاندماج والتفكيك، (بيروت: 2008)، ص 155.
12- راجع برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، ط 5 (الدار البيضاء/ بيروت: 2011)، ص 206.
13- عبد الإله بلقزيز، "الانتقال الديمقراطي في الوطن العربي: العوائق والممكنات"، في المسألة الديمقراطية في الوطن العربي (بيروت: 2000)، ص 143.
14- صباح ياسين، "صحوة العشائر العراقية.. خلفيات المشهد: اغتيال الدولة وتغريب المجتمع"، في العراق تحت الاحتلال تدمير الدولة وتكريس الفوضى، (بيروت: 2008)، ص 198، 202 – 203.
15- للمزيد راجع كريم حمزة، "تاريخ الاستخدام السياسي للهوية المحلية العشائرية في العراق: تخادم الدولة والمشيخة"، عُمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 19 (2017)، ص 89 – 118.
16- داليا رشدي، اختلال الهياكل: متى تنشأ أزمة القيادة في النظام السياسي؟ ملحق اتجاهات نظرية، السياسة الدولية، العدد 196 (أبريل 2014)، ص 11.
17- محمد سبيلا، "في الأسس الفكرية لليبرالية"، قضايا معاصرة، العدد الثاني (ربيع 2017)، ص 15.
18- عبد الحفيظ، ص 16.
19- علي خليفة الكواري، "نحو مفهوم جامع للديمقراطية في البلدان العربية"، في الدولة الوطنية المعاصرة: أزمة الاندماج والتفكيك، (بيروت: 2008)، ص 103 – 104.
20- رشدي، ص 10.
21- حسن سلامة، "السيطرة البديلة: الارتباط بين غياب العدالة الاجتماعية والعنف الانتقالي"، ملحق اتجاهات نظرية، السياسة الدولية، العدد 193 (يوليو 2013)، ص 16.
22- إبراهيم، ص 145.
23- مجموعة من الباحثين، دراسات اجتماعية – اقتصادية معاصرة، ترجمة هاشم نعمة فياض (بغداد: دار الرواد، 2015)، ص 52.

اقتصاد السوق الاجتماعي وطابعه الانتقالي

إبراهيم المشهداني

إبراهيم المشهداني بكالوريوس في الاقتصاد من الجامعة المستنصرية عام 1973/ 1974، وخبير اداري

يخوض العديد من الاقتصاديين في دراسات بحثية نظرية، لإيجاد مقارنات بين ما يطلق عليه اليوم باقتصاد السوق الاجتماعي، وبين اقتصاد السوق، مستندين إلى العديد من التجارب العالمية في توصيف نظري إيديولوجي. وبعض هؤلاء الباحثين يستند إلى التطبيقات الاقتصادية الاجتماعية كما حصل في العديد من دول أوروبا الغربية؛ ألمانيا مثالا، واليابان في أسيا مثالا آخر، والصين مثالا ثالثا، مع ان توصيف الاقتصاد فيها حسب التعبير الصيني هو اقتصاد اشتراكي، وتجارب البلدان النامية التي لا تدخل في ما يوصف اقتصادها باقتصاد السوق الاجتماعي، ولا هو باقتصاد السوق الحر وان كانت هي جزء من تقسيم العمل الدولي الرأسمالي، التي تتصف بالمركزية الاوامرية ومزاعمها بأنها شكل آخر للاشتراكية وفقا لادعاءات القائمين على هذه الأنظمة كتجربة جناحي حزب البعث في سورية والعراق ومصر وغيرها او التجارب المرتبطة بالنظام النازي كما حصل في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية وكان الهدف يومها شق حركة الطبقة العاملة الثورية الصاعدة في ألمانيا عبر خطاب شعبوي حقق فيه الحزب النازي نصرا انتخابيا جرّ في نهاية المطاف إلى حرب عالمية كونية تسببت في موت 55 مليون مواطن من مختلف البلدان وملايين المعوقين وتخريب طاقاتها الإنتاجية المادية.

اقتصاد السوق او الاقتصاد الحر

التعريف البسيط للاقتصاد الحر هو إبعاد الدولة عن التدخل في الحياة الاقتصادية وان تترك الأسواق تضبط نفسها بنفسها وفق آلياتها. ونظام اقتصاد السوق او الاقتصاد الحر يسمى بالنظام الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والمبادرة الفردية من اجل تحقيق أقصى الإرباح.

ان تفاعل العرض والطلب في السوق هو الحجر الأساس في هذا النظام وهو الذي يتحكم بالأسعار، فضلا عن دور المنافسة الحرة في التحكم بهذه الأسعار التي تحررها من أية قيود يمكن للدولة أن تتدخل فيها وتستخدمها. لكن ذلك لا يعني غياب الدولة

في أن تقيم قطاعها الخاص بها، ويسمى عندئذ بالقطاع العام او القطاع الحكومي من دون أن يؤثر ذلك على طبيعة النظام الرأسمالي او اقتصاد السوق ومفاعيل آلياته. والقطاع العام يحصل عندما تلجأ الدولة إلى إجراءات التأميم في حالات إنقاذ بعض القطاعات او الشركات الخاصة والمصارف الخاصة الآيلة للانهيار، كما حصل في العديد من الدول الأوربية بريطانيا وفرنسا مثالا في القرن الماضي، او كما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 2008 إبان رئاسة اوباما؛ حيث تمت إعادة تقييم اقتصاد السوق بعد الأزمة المالية الحادة وتعرض العديد من البنوك للانهيار ومنها بنك ليمان براذرز، اذ قامت حكومة الولايات المتحدة بإنفاق 700 مليار دولار لشراء المصارف التي أعلنت إفلاسها وقيام بعض البنوك لشراء البنوك المفلسة، فمثلا قيام بنك جي بي مورغان بشراء بنك ميو تشوال وبنك الأعمال الأمريكي بيرستيرنز بمساعدة السلطات الفيدرالية او قيام بريطانيا بشراء بنك براد فورد وفي أوروبا تم تعويم فورتيس من قبل سلطات بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج (1).

ويعد حافز الربح الدافع الأساسي والمحرك الرئيسي لأي قرار يتخذه المنتجون من خلال التنافس لتحقيق أقصى الأرباح وصولا إلى تنامي ظاهرة الاحتكار وسوء توزيع الدخل والثروات وظهور فئة قليلة تستحوذ على معظم الثروة واشتداد الاستغلال لقوة عمل الطبقة العاملة وتزايد البطالة وتزايد الأزمات الاجتماعية والاقتصادية الرأسمالية في ظل النظام الرأسمالي. وبحسب ماركس (فعندما يكون هامش الربح مؤكدا 10 بالمائة يمكن استخدام رأس المال في كل مكان وعندما يصبح هامش الربح 20 بالمائة يصبح رأس المال نشيطا، أما عندما يصبح رأس المال 50 بالمائة يصبح مغامرا وعندما يصبح هامش الربح 100 بالمائة فان رأس المال يطأ قوانين الإنسانية بقدميه، وإذا وصل الهامش إلى 300 بالمائة فلا توجد جريمة الا واقترفها رأس المال حتى لو وصل إلى حبل المشنقة).

نتائج قاسية لاقتصاد السوق

من الثابت ان تقليص الوظائف يمثل السمة الأساسية لنظام العولمة الرأسمالية منذ نشوئه وخلال تطورها عبر المراحل المختلفة وصولا للمرحلة الراهنة فان هذه المرحلة تتميز عن المراحل السابقة بالمستوى المبالغ فيه الذي وصل إليه فعل السوق والتنافس على الربح بتسريع التجديد في التكنولوجيا والإنتاج في شروط العمل وخاصة عدد الوظائف المتاحة واستقرارها والأجور المستحقة فيها، ذلك ان تحرير التجارة على الصعيد العالمي بأسره يؤدي إلى اشتداد المنافسة وان احتدامها يدفع بالتنافس على تخفيض تكاليف الإنتاج إجمالا وأجور العمل بوجه خاص، إلى أقصى مدى وبالتالي اشتداد التنافس نحو تجديد تقنيات الإنتاج ورفع فعاليتها الإنتاجية وتقليص العمالة إلى أقصى مدى أيضا وهكذا يشتد الميل إلى تقليص فرص العمل ومقاومة ارتفاع الأجور على نحو لم يسبق له مثيل.

اقتصاد السوق الاجتماعي – منظومة مفاهيمية

نظرا لتعدد البحوث في موضوع اقتصاد السوق الاجتماعي فقد تعددت مفاهيم وتعريفات هذا السوق؛ ففي الموسوعة

الحرة ورد التعريف التالي (اقتصاد السوق الاجتماعي: هو نظام اقتصادي رأسمالي يتبنى اقتصاد السوق لكنه يرفض الشكل الرأسمالي المطلق كما يرفض الاشتراكية الثورية حيث يجمع بين القبول بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والشركات الخاصة مع وجود ضوابط حكومية تحاول تحقيق منافسة عادلة وتقليل التضخم وخفض معدلات البطالة ووضع معايير لظروف العمل وتوفير الخدمات الاجتماعية). وورد على موقع هافال الالكتروني (ان جوهر اقتصاد السوق الاجتماعي هو تدخل الدولة لتوجيه بعض الإنفاق والاستثمار لتلبية الاحتياجات الاجتماعية وتقليل الفوارق الطبقية وضمان الاستقرار الاجتماعي باعتباره الأساس المادي للانطلاقة الاقتصادية وهو يقوم على فكرة التفاعل بين الأسواق وحركتها والدولة وتوجهاتها). بمعنى اخر ان اقتصاد السوق الاجتماعي يعتمد على التخطيط لصالح المجتمع وليس فقط تحقيق أقصى الأرباح كما في اقتصاد السوق من خلال احتكار السلعة او تقليل التكاليف من خلال استغلال قوة العمل أو استخدام العمل الرخيص. غير أن ظهور النظرية الكينزية (نسبة إلى جون مينارد كينز) القائمة على الدخل والاستخدام والذي دعا إلى ضرورة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية عن طريق الإنفاق العام والاستثمار وإعادة التوظيف والعمالة قد احدث ثورة جديدة في المفاهيم قلبت المفاهيم الكلاسيكية القديمة التي أسس لها العالمان الاقتصاديان البريطانيان ادم سميث وريكاردو. وحسب النظرية الكينزية فان تدخل الدولة سيحفز الطلب الكلي الذي يؤدي إلى زيادة الاستهلاك والذي يؤدي بدوره إلى زيادة الإنتاج مما ظهرت أولى بوادر اقتصاد السوق الاجتماعي. وبذلك فان اقتصاد السوق الاجتماعي هو مفهوم فني وليس إيديولوجيا، بمعنى من المعاني هو حلقة وسيطة بين الرأسمالية والاشتراكية. ومن جهة أخرى فاقتصاد السوق الاجتماعي هو مصطلح إشكالي [2] بسبب التناقض في بنيته حيث يجمع بين السوق والاجتماعي. وحسب منظري اقتصاد السوق الاجتماعي فانه يشترط:

1. حماية المنافسة الاقتصادية في السوق وتفعيل آلياتها.
2. تحقيق العدالة الاجتماعية في توزيع الدخل.
3. تطبيق آليات السوق لتكون عنصرا هاما في تحقيق الضمان والتوازن الاجتماعي.
4. العمل على تأمين حقوق الإنسان المثبتة بموجب الشرائع الدولية [3].

وهكذا فان اقتصاد السوق الاجتماعي ينطلق من قاعدتين؛ الأولى، تنبثق من مبادئ السوق وحسب آلياته من حيث حرية المستهلكين والمنتجين وتخصيص الموارد والمنافسة. والثانية تنطلق من تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال تحقيق التوازن وتوفير الضمانات الاجتماعية وعلى وجه الخصوص الطبقات الاجتماعية الكادحة عبر تدخل الدولة في مراقبة الفعاليات الاقتصادية، عندما يفشل السوق في تحقيق المبادئ ضمن القاعدة الثانية. وملخص الفكرة ان اقتصاد السوق الاجتماعي يقوم على قاعدة التفاعل بين حركة الأسواق وبين الدولة وخطابها الاجتماعي. ومن هنا يمكن القول إن النظر إلى اقتصاد السوق الاجتماعي لا ينبغي بأية حال أن يكون معزولا عن علاقته باقتصاد السوق من ناحية جدلية هذه العلاقة وظروفها التاريخية الملموسة وتطورات الرأسمالية المعلومة وتأثيراتها الزمانية والمكانية.

جدول رقم 1

الفروقات بين اقتصاد السوق الاجتماعي واقتصاد السوق الحرة (4)

اقتصاد السوق الاجتماعي	اقتصاد السوق الحرة
التركيز على التوازن بين الأهداف الاقتصادية والاجتماعية	أولوية الأهداف الاقتصادية
التركيز على حقوق الإنسان	التركيز على الحرية الفردية
التوازن بين الإنتاجية والأهداف الاجتماعية	التركيز على الإنتاجية
التدخل المنظم للدولة في الاقتصاد	حياد تدخل الدولة تجاه السوق
توسيع دائرة الضمان الاجتماعي	تضييق دائرة الضمان الاجتماعي على الحقوق الأساسية .

من خلال النظر إلى العلاقة التي يوضحها الجدول ينبغي ألا ينصرف الذهن إلى أن هذه العلاقة تبقى ثابتة في مكوناتها في كل زمان ومكان بل هي محكومة بهما. فهي في فترة الحرب الباردة تختلف عن فترة العولمة الرأسمالية؛ كما أنها في البلدان الصناعية المتطورة غيرها في البلدان النامية ذات الاقتصاديات المتخلفة، وتبقى هذه العلاقة من جهة أخرى محكومة بالتناقض بين طرفيها الاقتصادي الربحي من جهة والاجتماعي من الجهة الأخرى.

نماذج اقتصاد السوق الاجتماعي

أولا النموذج الألماني:

بعد الحرب العالمية الثانية خرجت ألمانيا من الحرب في غاية الانتهاك العمراني والاقتصادي بالإضافة إلى البنية الاجتماعية والحلفاء يتحكمون كليا بالاقتصاد الألماني، ويشهد السوق غيابا شبه كامل للكثير من السلع الأساسية ولذلك فإنها واقعة تحت نظام التموين الحكومي والازدهار الوحيد الظاهر للعيان في تلك الفترة الاستثنائية والذي يتجلى بالسوق السوداء، كما يسمى شعبيا (5).

إن ألمانيا وبسبب دور الحلفاء في إسقاط النظام النازي واحتلال ألمانيا، قد تم تقسيمها إلى أربعة قطاعات:

القطاع الشرقي الذي سمي فيما بعد بـ(ألمانيا الديمقراطية) والتي اعتمدت الاقتصاد المخطط على النمط الاشتراكي المتبع في بقية دول المنظومة الاشتراكية وهذا الاقتصاد لا جدال حوله.

ولكن الجدال المحتدم قد ظهر في القطاعات الثلاثة الأخرى (الأمريكي، الإنكليزي، الفرنسي) في الأوساط السياسية والاقتصادية وبالأخص بين دعاة السوق الحرة غير المنضبطة على الطراز الانكلو سكسوني من جهة والاقتصاد المدار من قبل الدولة من الجهة الأخرى المتمثل بالنزعة المعادية للرأسمالية التي كانت منتشرة بنطاق واسع.

ومن الغريب كما يصف بعض الكتاب أن البرنامج الذي اعتمده الاتحاد الديمقراطي المسيحي وهو حزب محافظ قاد الكثير من الحكومات الألمانية منذ ذلك التاريخ، وأقره في 3 شباط عام 1947 في القطاع البريطاني

وكأنه كان برنامجا لحزب اشتراكي وقد أطلق عليه المؤيدون لهذا البرنامج بـ "الاشتراكية المسيحية" كتسمية غير رسمية. ومما جاء في هذا البرنامج: "إن النظام الرأسمالي كان عاجزا عن تلبية متطلبات الدولة والمصالح الاجتماعية للشعب الألماني، فبعد الانهيار السياسي والاقتصادي والاجتماعي المريع كنتيجة لسياسة القوة الإجرامية – المقصود النازية الألمانية – يتوجب إعادة تنظيم الاقتصاد من الأساس فالمحتوى والهدف من نظام اقتصادي اجتماعي جديد لم يعد الربح الرأسمالي والسعي من اجل السلطة بل فقط رخاء شعبنا". ودعا البرنامج إلى تأميم جزئي للصناعة الثقيلة وحقوق فعالة للعاملين باتخاذ القرارات. ولكن لا يمكن فهم المبادئ الأساسية لهذا البرنامج بمعزل عن سياقه التاريخي بوجود سلطات الاحتلال الغربية الأمريكية والبريطانية والفرنسية المهيمنة التي تعارض بقوة إعادة الصناعة الثقيلة والشركات الألمانية الكبيرة إلى سابق عهدها لارتباطها السابق بالنازية.

وكان (لودفيغ إيرهارد) أول وزير اقتصاد ألماني بعد الحرب العالمية الثانية (أصبح في ما بعد مستشار ألمانيا) اتبع منهجا مؤداه إحاطة وتطويق قوى السوق بإجراءات سياسية واجتماعية فعالة، للوقوف ضد الحركة الحرة للسوق، والحد من النمو الذي يقصي المبادئ الاجتماعية في التعاملات الاقتصادية وذلك عن طريق حالة تشاركية من أرباب العمل والنقابات العمالية والأحزاب السياسية. وتتمثل مسؤولية الحكومة في توجيه وخلق إطار ملائم لتنافس عادل يخدم مصالح الجميع، كما يدعم استعداد الأشخاص وتشجيع قدراتهم لممارسة مبنية على الاعتماد على النفس وتقدير المسئولية.

وفي حديثه عن اقتصاد السوق الاجتماعي، على فضائية العربية بتاريخ الثاني من تشرين الثاني 2011 اشار الباحث محمد سلماوي[6] إلى أن ألمانيا كانت سباقة بين الدول الرأسمالية في الاهتمام بالعدالة الاجتماعية بعد سقوط حكومة جمهورية فايمار التي أوصلت الاقتصاد الألماني إلى أسوأ وضع متوحش تصله الرأسمالية. وكان على ألمانيا أن تذهب إلى إصلاح ذلك الوضع دون اللجوء إلى النظام المطبق في ألمانيا الشرقية، ويعود الفضل في اختيار نظام بديل إلى الاقتصادي الألماني الكبير (ألفريد موللر أرماك) حيث استطاع الجمع بين مزايا الاقتصاد الحر الذي يعتمد على آليات السوق والمبادرة الفردية واحترام الملكية الخاصة، وبين دور الدولة في ممارسة قوانين لم تنص عليها الرأسمالية التقليدية وفقا لوصفة (آدم سميث) تضمن الحقوق الاجتماعية لطبقات الشعب الكادحة، وتؤكد مبدأ تكافؤ الفرص، اسماه باقتصاد السوق الاجتماعي (Social Market Economy)، وقد وصف أرماك هذا النوع من الاقتصاد بأنه يجمع في آن واحد بين حرية السوق والتنمية الاجتماعية المتكافئة. ويرى الاقتصاديون في هذا النموذج بأنه ليس اقتصادا مختلطا وإنما هو مدرسة قائمة بذاتها تجمع بين الرأسمالية والاشتراكية في منظومة فكرية واحدة.

ثانيا – النموذج الياباني [7]

كانت اليابان خلال فترة الحرب العالمية الثانية ذات اقتصاد مغلق، معتمدا على الإنتاج المحلي فقط وخرجت من الحرب منهكة على جميع الأصعدة وتدهور ربع ثروته الوطنية، فضلا عن ذلك كانت اليابان مكتظة بالسكان بالرغم من الخسائر البشرية، نتيجة للعمليات الحربية ما ترتب على ذلك سوء التغذية وندرة المواد الأولية وارتفاع

الأسعار بشكل كبير. وبعد الحرب دشنت اليابان مرحلة جديدة فأنتج المجهود لتطوير البلاد والخروج من نتائج الحرب الكارثية بمحاربة الفساد، وبعيدا عن المصالح الشخصية، والتخلص من سيطرة أمريكا بالتجارة الخارجية لليابان. وأعيد توجيه التجارة الى آسيا وخاصة مع الصين، وعملت الحكومة على دعم الاستثمار الإنتاجي في القطاعات الإستراتيجية كالزراعة وتطوير المعدات الزراعية والاهتمام بالثروة السمكية وضمان عرض مالي مستقر لمجمل الاقتصاد عن طريق القطاع المصرفي الذي حدد نسب الحسم على القروض الصناعية، ونظم نسب الفوائد (نسب ثابتة) على الودائع المصرفية في تنشيط السياسة الادخارية، ساعدها على ذلك توفر الأيدي العاملة زهيدة الأجر آنذاك ما ساهم بقدرتها على إطلاق آلية إنتاجية معتمدة على رؤوس أموال بسيطة. وساعد على التطور السريع ممارسة مصرف اليابان رقابة حقيقية على تطور الكتلة المالية والتحكم بأحجام القروض التي تمنحها المصارف والرقابة على الأسعار وإصدار قوانين صارمة للرقابة المالية ارتكزت على التحكم بمستوى عجز ميزان المدفوعات. وقد ساعد كل ذلك على تطور جهازها الصناعي من خلال التركيز على الصناعات الثقيلة والانفتاح على الأسواق الخارجية، وانتهجت النظام الرأسمالي بإتباع اقتصاد السوق. لكن الدولة لعبت دورا فاعلا في تفعيل مختلف القطاعات الاقتصادية وخاصة القطاع الخاص. ويعد الاقتصاد الياباني ثالث اكبر اقتصاد في العالم، بعد الولايات المتحدة الأمريكية والصين بعد أن كان ثاني اقتصاد قبل أن يصبح الاقتصاد الصيني هو الثاني بعد أمريكا، ويعتبر حسب تقدير صندوق النقد الدولي الثاني بعد أمريكا. واليابان ثالث اكبر مصنع للسيارات وعادة ما يتم تصنيفها ضمن أكثر البلدان الرائدة ابتكارا بمختلف المعايير لتسجيل براءات الاختراع. بالإضافة إلى ذلك تعتبر اليابان اكبر دولة دائنة في العالم ولديها فائض تجاري وفائض استثماري دولي صافي كبير. وفي عام 2010 كانت اليابان تعد ثاني اكبر دولة بالعالم بما تمتلكه من الأصول المالية الخاصة؛ حيث بلغت 13،7 بالمائة بما يقدر بـ 14،6 تريليون دولار. وكان البعد الاجتماعي في سياسات الحكومة اليابانية من خلال الاهتمام بالموارد البشرية، فمن جهة أعطت التعليم اهتماما خاصا فقد قامت اليابان بدمج التعليم بالتكنولوجيا وفتح مجال التعليم أمام جميع الفئات الاجتماعية من خلال بناء المدارس والجامعات في مختلف مناطق اليابان وتأهيل المعلمين وإعطاء المنح الدراسية للطلاب لتوسيع الانخراط بالعالم الخارجي. وبهذه الخطوات لم يعد العلم حكرا على أبناء العائلات الثرية، بل أصبحت الفرص التعليمية متاحة لكل فرد لأن يكون متميزا بحسب تحصيله العلمي، وليس بحسب مكانة عائلته، وبذلك انتقل المجتمع من الطبقية إلى الفضاء الاجتماعي الواسع، بحسب بعض الباحثين.

ولم تقتصر اليابان على الاهتمام بحقل التعليم فقط بل وسعت من تعميق المضامين الاجتماعية في نظامها الاقتصادي فقد اعتمدت أولويات إعادة تنظيم الصناعة اليابانية على تشغيل العاطلين عن العمل، فلجأت الحكومة إلى استخدام نظام العمل مدى الحياة، ومن خلاله ضمنت التزام العمال لشركاتهم حتى سن التقاعد صاحب هذا النظام عوامل محفزة للعمال منها:

1. ربط منظور التقدم النظامي في الرواتب والحياة المهنية بالقدم.
2. الامتيازات الاجتماعية كالتعويض

السكني ومكافأة نهاية الخدمة ونظام مكافآت للأعمال الشاقة والجارية في العمل والساعات الإضافية.
3. تثبيت اليد العاملة بإدخال نمط الإدارة الذي لا يقوم فقط على الرقابة التسلسلية والعمل باستخدام قوانين صارمة اعتمدت على المنهج التايلوري الذي وضعه فردريك تيلور المهندس الأمريكي الميكانيكي.

مشاكل خطرة تواجه الاقتصاد الياباني

على الرغم من قوة الاقتصاد الياباني، فانه يعاني من مشاكل خطرة ومنها مشكلة التضخم بالرغم من ارتفاع معدل دخل الفرد 36 ألف دولار أمريكي سنويا، وهذه المشكلة تهدد سوق العمل الياباني في ظل إصرار الحكومة على منع العمالة الوافدة إلا في بعض التخصصات. هذا بالإضافة إلى توجه بعض الشركات للاستثمار خارج الاقتصاد الياباني في الصين مثلا بسبب انخفاض أجور العامل الصيني مثل (توشيبا) و(سوني) التي لا تتعدى 200 دولار شهريا، مقابل الياباني الذي قد يصل إلى 3 آلاف دولار شهريا. والمشكلة الأخرى شيخوخة الشعب، والتي ينتج عنها عواقب اقتصادية مرتفعة كاحتساب معاشات المتعاقدين والنفقات الصحية والبنية التحتية اللازمة للمتقاعدين، إضافة إلى الانخفاض الشديد في عدد الولادات، مما يؤدي بالنتيجة الى ندرة الأيدي العاملة الشابة التي بدورها ستطرح مشكل إنتاجية في العمل، ما دفع برفع سن التقاعد من 60 الى 65. ومن المشاكل الأساسية ان اليابان تواجه حاليا مشكلات اقتصادية متعددة، فهو يعتمد بشكل كبير على التجارة الخارجية واستيراد مواد الطاقة التي تتأثر من حيث الإنتاج والتصدير بالأزمات الخارجية خاصة الأزمة المالية العالمية 2007 – 2008، فضلا عن الحروب والصراعات الخارجية فقد تراجع الاقتصاد الياباني بشكل كبير.

ثالثا: النموذج الصيني

على الرغم من ان التجربة الصينية تتفرد عن النماذج الاقتصادية في العالم في سماتها العامة بالنسبة للمتابعين والباحثين في النماذج الاقتصادية السائدة في العالم خاصة في نماذج اقتصاد السوق الاجتماعي. والبعض من الباحثين يطلق عليه توصيفا آخر أسموه (اقتصاد السوق الاشتراكي) فان طبيعة نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي الراهن وآفاقه المستقبلية، يشكل اكبر التحديات النظرية والتطبيقية التي تواجه الباحثين على مختلف توجهاتهم الفكرية ومرجعياتهم النظرية. وهذه التجربة تكاد تستعصي على التحليل التخطيطي لما تحمله من تناقضات، كبلد يقوده الحزب الشيوعي، فيه القطاع العام هو السائد، ولكن الاقتصاد في الصين يقوم إلى حد كبير على مبادئ السوق التنافسية، بكل ما يترتب على هذه المبادئ من عدم تكافؤ الفرص واضطراب وتفاوت واستقطاب مجتمعي. ودهشة الباحثين تؤشر زحف التنين الصيني؛ بحيث يكاد اذا استمرت معدلات النمو على ارتفاعها قياسا بالاقتصاديات العالمية فإنها ستكون الدولة الأولى من الناحية الاقتصادية. وستكون هذه الدهشة منطقية اذا ما عرفنا أن عدد سكان الصين حتى عام 2014 قد وصل إلى 1.36 مليار نسمة، وان الطبقة العاملة فيه تبلغ ربع الطبقة العاملة العالمية، وان نمو الصادرات الصينية هو الأكبر في عام 2014 وطاقة تصنيعية تكاد تزيد على

الطاقة التصنيعية في الولايات المتحدة الامريكية. كما أنها تملك اعلى نسبة ادخار في العالم، حيث بلغ 5 تريليون دولار. وبلغ حجم الإنتاج المحلي الإجمالي فيها 10.4 تريليون دولار(8).

وتبين الإحصاءات الواردة في الموسوعة الحرة والوكيبيديا العربية ان معدل دخل الفرد في الصين يبلغ سنويا نحو 6100 دولار، فيما يبلغ حجم القوة العاملة 808 مليون نسمة، ونسبة البطالة 4 بالمائة في عام 2008. وفي هذا العام نفسه بلغ إجمالي إيرادات الصين نحو 869 مليار دولار، بينما بلغ إجمالي النفقات نحو 851 مليار دولار بفائض مقداره 18 مليار دولار، وبلغ حجم الاحتياطيات النقدية 2،3 تريليون دولار، كما وصل معدل الإنتاج الصناعي 11 بالمائة، وبلغ حجم الصادرات 1.5 تريليون دولار في عام 2008، بينما بلغ حجم الواردات 1.156 تريليون دولار، وبلغ معدل نمو الإنتاج المحلي الإجمالي في عام 2003، 9 بالمائة، متجاوزا فرنسا وبريطانيا وألمانيا واليابان وأمريكا، لكنه انخفض في عام 2014 إلى 8 بالمائة (8)، فيما وصل الى 6.7 في عام 2016 حسب تقرير علي أبو مريحيل من بكين منشور على قناة الجزيرة في قطر في 10/21 /2016.

السؤال من كان يقف وراء هذا التقدم السريع في الصين؟

تشير المصادر إلى ان من يقف وراء هذا التقدم هو دينغ سياو بينغ وفي مصادر أخرى (شياو (الموسوعة الحرة)، بينغ المولود في 22 آب 1904 في بلدة جوانغ في مقاطعة سيتشوان جنوب غرب الصين من طبقة الفلاحين، اذا جازت تسميتها بطبقة، ولكن من عائلة ميسورة وهو الذي رسم خارطة الطريق الذي تسير عليه الصين اليوم في نبوءة أطلقها عام 1978 قال فيها ان الصين تحتاج إلى نصف قرن لاستكمال عملية التحديث والسيطرة السياسية والاقتصادية، تقلد في عام 1975 منصب وزير المالية وقبلها تقلد منصب نائب رئيس الوزراء وفي عام 1954 تقلد منصب الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني، ولكن ما كان له وضع الصين على هذه السكة لوحده وخروجه من المسلمات النظرية السائدة في الفكر الاشتراكي آنذاك لولا قبول وقناعة قيادة الحزب الشيوعي الصيني الحاكم.

جوهر الإصلاحات الاقتصادية في الصين

يصف الصينيون تجربتهم في "اقتصاد السوق الاشتراكي" على انه نظام يقوم على أساس اقتصاد السوق ودولة الحزب الشيوعي الصيني، وهذا الاقتصاد يؤسس على نظام مزدوج للملكية بين القطاع الخاص ولكن بقيادة الحزب الشيوعي غير انه يحصن ضد أي تغيير سياسي في الدولة والسلطة رغم وجود ثمانية أحزاب تشارك في إدارة الدولة، لكن القرار السياسي يتخذ بالتشاور. وعلى الرغم من تعدد أشكال الملكية وان القطاع الخاص يشكل 63 بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي، وان القطاع العام لا يشكل سوى 37 بالمائة لكن الصينيين يعتبرون ان هذا الاقتصاد يتخطى حدود الرأسمالية ويضمن العدالة الاجتماعية بالاعتماد على الكفاءة الاقتصادية، كما يعتقدون أن تعدد أشكال الملكية شكل من أشكال الصراع الطبقي او محفز له (9).

ما هي الآثار الاجتماعية للتجربة الصينية؟

يذهب الاقتصاديون المتابعون للتجربة الصينية الملفتة للانتباه من خلال وتائر النمو الاقتصادي المضطرد والمستوى العالمي الذي وصل إليه الاقتصاد الصيني، إلا أنهم في نفس الوقت يصرون على ان الصين استعادت الرأسمالية وان الشغيلة عادوا الى ما كانوا عليه في المجتمع القديم، محددين أربعة مظاهر سلبية ناتجة عن هذا النظام وهي:

• تعاظم دور القطاع الخاص يقابله اضعاف الملكية العامة لوسائل الانتاج.

• تنامي الفوارق الاجتماعية. وطبقا لمعامل جيني (GINI) وهو مؤشر يعكس الهوة بين الفقراء والأغنياء، فقد قفز التفاوت من 0،24 عام 1985 إلى 0،469 عام 2004 وازداد إلى 0،474 عام 2012 أي اعلى من المستوى الذي حددته الامم المتحدة في نفس الوقت الذي يتعاظم فيه الملياردية من القطاع الاستثماري الأجنبي، فضلا عن تعاظم دور الشركات متعدية الجنسية. ومن المؤشرات الأخرى على تعاظم التفاوت ان 20 بالمائة من السكان يسيطرون على 51 بالمائة من الثروة، وان 10 بالمائة من الأغنياء يملكون 35 بالمائة من الموجودات، والقاطنين في المدن يملكون 35 بالمائة من الموجودات، وان هناك 120 مليون مواطن صيني يعيشون تحت خط الفقر.

• ضعف قوة العمال والفلاحين. هناك الكثير من المشاريع لا تسمح للعمال بتشكيل أطرهم النقابية، وبالتالي حرمانهم من حقهم الجماعي في الدفاع عن حقوقهم، فضلا عن ضعف في تشغيل العاطلين في أوج النمو الاقتصادي؛ بحيث لا يتجاوز 1.8 بالمائة سنويا.

• تعاظم حجم المديونية. منذ بدء الأزمة المالية العالمية ازدادت مديونية الصين من 9 آلاف مليار دولار إلى 23 الف مليار دولار. وان نسبة الدين العام والدين الخاص ازداد من 75 بالمائة إلى 200 بالمائة من الناتج المحلي الخام إلى الدرجة التي تعرض النظام المصرفي إلى الانفجار (10).

مما تقدم يتضح ان الاقتصادي الصيني برغم تطوره الصاعد خلال السنوات الثلاثين الأخيرة فانه ظل متعلقا بطبائع الاقتصاد الرأسمالي التي تمر بدورات النمو والانكماش بحكم انفتاحه على الاقتصاد العالمي والإصابة بأمراضه المعدية التي تتمظهر بالأزمة المالية الخانقة ومخرجاتها بالطبعة الصينية المتمثلة بالظواهر الأربعة المشار لها في أعلاه. وإذا ما استمرت معدلات النمو بالتداعي مع ما يصاحبها من انخفاض في النفقات الاجتماعية فهل تستطيع قوة الحزب الشيوعي باستعادة النمو بنفس الآليات القديمة، ام إن عليها المراجعة بأدوات جديدة؟

خلاصة واستنتاجات

من خلال استعراض النماذج المطبقة في العالم يمكن التوصل إلى الاستنتاجات الآتية:

أولا: ان اقتصاد السوق الاجتماعي يطرح لدى تطبيقه إشكاليات معقدة ذات مضامين سياسية واقتصادية واجتماعية وأبعاد مالية وتجارية وتكنولوجية وتعليمية وتدريبية. كما أن هذا الاقتصاد يحمل هوية مزدوجة تقوم على التفاعل والتناسق بين النمو الاقتصادي وفقا لاقتصاد السوق والتنمية الاجتماعية، ولكن بتأثير العولمة الرأسمالية فان من الممكن تحويل التناقض بين عولمة السوق وما تتصف به من الحد من تحسين

الأجور وتقليص شديد للخدمات الاجتماعية ونظام الرعاية الاجتماعية وأولياتهما إلى نظام الليبرالية الجديدة.

ثانيا: ان اقتصاد السوق الاجتماعي يحاول التوفيق بين متناقضين في العملية التنموية، هما آلية السوق المبنية على الربح والتنافس والأهداف الفردية والعدالة الاجتماعية، بصورة متوازنة وان الاختلال بين طرفي المعادلة يؤدي إلى تفوق احدهما على الآخر. ومن الممكن في ظل الرأسمالية المعولمة تتفوق آليات السوق كما يتجلى في النموذج الياباني والعديد من دول أوروبا الغربية وحتى في الصين.

ثالثا: ان المعادلة بين اقتصاد السوق واقتصاد السوق الاجتماعي محكومة بالزمان والمكان؛ ففي البلدان الصناعية المتطورة وغيرها في البلدان النامية تواجه تطبيقها الكثير من الإشكاليات في إطار الرأسمالية المعولمة المهيمنة على النطاق العالمي. ان التطبيق في هذه البلدان يقتضي عدم الانقياد في الإصلاح إلى التحكم الخارجي بمصير هذه البلدان الاقتصادي والاجتماعي وإنما بتعزيز الهامش الوطني والاستقلال السياسي اللذين يستلزمان تعزيز الوحدة الوطنية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والحذر الشديد من الأطروحات النظرية المتعلقة بالخصخصة والتكيف الهيكلي باعتبارهما مسلمات حاسمة بضغط المؤسسات المالية الدولية.

رابعا: ان نجاح تطبيق اقتصاد السوق الاجتماعي في البلدان النامية يتوقف على استمرارية الرعاية الاجتماعية وتعميقها ومصداقية الدولة في استمرارها على المعطيات السياسية وتعميق الديمقراطية وفعالية تعدديتها والتداول السلمي للسلطة، بالإضافة الى احترامها للعمل النقابي والمهني وكفاءة الحوار الاجتماعي ونظامه التعاقدي والتفاوضي وإدارة السلم المتحرك للأجور في ظل هذا النظام.

الهوامش

1 - الموسوعة الحرة – أزمة الرهن العقاري خطة الإنقاذ المالي الأمريكية. متاح على الرابط التالي:
https:// Wikipedia.org/wiki .

2 - د. حيان سليمان – محاضرة في جمعية العلوم الاقتصادية في سورية، بعنوان السوق الاجتماعي بين الفكرة والتطبيق، بتاريخ 28 /11 /2005 – منقول عن كارل ماركس (المجلد الأول – التراكم البدائي - الجزء 13 - صفحة 788،

3 - مترجم الى اللغة العربية).
د.صالح ياسر، الخصخصة – الإصلاحات الاقتصادية بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2016)، ص 4.

4- د. صالح ياسر المصدر السابق.

5- سالم مدالو، اقتصاد السوق الاجتماعي – ألمانيا. مقالة منشورة في موقع ankawwa .com بتاريخ 19 /4 /2015.

6- محمد سلماوي، اقتصاد السوق الاجتماعي – مقابلة تلفزيونية على قناة العربية بتاريخ 2 /11 /2011 منشورة على الانترنيت.

7- النهضة الاقتصادية اليابانية – دراسة منشورة على الانترنيت الرابط https// www babonej.com .

8- د. صالح ياسر، الخصخصة – الإصلاحات الاقتصادية، مصدر سبق ذكره.

9- تقرير علي أبو مريحيل من بكين منشور على قناة الجزيرة في قطر بتاريخ 21 /10 /2016.

10- دراسة قدمها بسام محي، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي، اثر زيارته إلى الصين في شباط عام 2016، ونشرت في جريدة طريق الشعب.

هل تحتاج البصرة سداً؟

د. فائق يونس المنصوري

الدكتور فائق يونس المنصوري، باحث علمي في اختصاص إدارة موارد المياه، يعمل في مركز علوم البحار/ جامعة البصرة. حصل على الماجستير عام 1996 في اختصاص فيزياء التربة والمياه من جامعة البصرة/ كلية الزراعة. وكان موضوع رسالة الماجستير حول (انتقال وتصريف الرواسب في نهر شط العرب جنوب نهر الكارون). كما حصل على الدكتوراه عام 2008 في اختصاص إدارة موارد المياه من جامعة البصرة/ كلية الزراعة. وكان موضوع أطروحة الدكتوراه حول (التخمينات المستقبلية لاستعادة أهوار جنوب العراق).

"ابدأ بالضروري، ثم انتقل الى الممكن، تجد نفسك فجأة تفعل المستحيل"
فرانسيس بيكون

ما هو السد Dam؟

السد هو عبارة عن بناء يُشيَّد عبر النهر لحجز المياه عند وجود فائض منها، لكي يتم استخدامها عند الحاجة اليها لتفي باحتياجات البشر وحاجة حيواناتهم وزروعهم في فترات الجفاف او شحة المياه. وتتفاوت أحجام السدود ما بين ترابية أو حجرية او صخرية صغيرة، الى سدود عملاقة من الخرسانة والحديد بعلو ناطحات السحاب. والسدود انواع منها الخرسانية او الصخرية او الإملائية الترابية مع لب طيني او من الخرسانة المضغوطة بالحدل، كما وتمتلك السدود مسيلا مائياً ـ Spillway ـ لتصريف المياه الفائضة التي تعلو مناسيبها عن المنسوب الاعلى للخزن في بحيرة السد.

وقد اكتشفت أطلال عديدة لسدود أثرية في كل من وادي الرافدين ووادي النيل. كما قد شيد قدماء الرومان بعض السدود في ايطاليا واسبانيا وشمال إفريقيا والتي ما زالت تعمل حتى الان. وعبر كل الحقب التاريخية كان الحصول على مصادر كافية للمياه يُعد من أولى اهتمامات المجاميع البشرية عندما تبدأ أولى خطواتها في بناء المجتمع المستقر. ومع تطور المجتمعات السكانية ورقيها في سلم التطور الاقتصادي والاجتماعي وحاجتها لمزيد من الطاقة لتطوير صناعتها الناهضة تعلم البشر كيف يسخرون مساقط المياه المندفعة من السدود لتوليد الطاقة الكهربائية التي يحتاجونها لإضاءة البيوت وتشغيل المصانع.

خارطة موقعية لمنطقة الدراسة

ما هي السدة Barrage؟

هي من الانشاءات الهندسية المهمة التي تنشأ على مجاري الانهر أو روافدها او فروعها، ومن المهام الرئيسة لها انها تقوم بحجز المياه في مقدمتها وبمناسيب معينة تكفي لتأمين الاحتياجات المائية لعدد من النواظم التي تتفرع من مقدم السدة. وتتكون السدة عادة من فتحات متعددة تفصل بينها منشآت تسمى الدعامات Piers وتتميز بصفات وفوائد اخرى تختلف في كثير من الخصائص عند اعداد تصاميمها عما هو عليه في النواظم الصغيرة ؛ اذ يؤخذ بنظر الاعتبار نوع التربة التي تقام عليها السدة وحسابات انحدار أرضيتها. كما تحتوي بعض السدات على هويس ملاحي Lock خاصة في الانهر الملاحية وممراً للأسماك، ذلك لان انشاء السدة سيمنع مرور الاسماك لهذا يقام منشأ خرساني خاص لتأمين مرور وحركة الأسماك بين جانبي السدة، ومن امثلتها سدات الكوت والهندية والعمارة.

فائدة السدود:

مع التطور العلمي ومعرفة الانسان لقيمة التنوع الحياتي وأهمية الحفاظ عليه لغرض استمرار الانسان بالاستفادة من خيرات الطبيعة عبر خدمتها وعدم التلاعب بقوانينها، برزت أهمية السدود في الحفاظ على التربة الزراعية من الانجراف عبر السيطرة على مياه الفيضانات وحبسها خلف السدود والخزانات المائية. كما تمت المحافظة على مجاري الأنهار من التعرية والانجراف واستمرار تدفق المياه بكميات كافية اثناء مواسم الجفاف للحفاظ على حركة الملاحة النهرية طوال العام في الأنهار والممرات المائية الصالحة للملاحة. ووفرت البحيرات والخزانات المائية التي تتكون خلف السدود مراتع للحيوانات البرية ومرافق ترفيهية لرياضات الماء وهوايات صيد الأسماك.

البصرة.. خزان الصرف الصحي الكبير للعراق

بسبب المعاناة الكبيرة لسكان البصرة نتيجة تردي نوعية المياه الواصلة إليها وانخفاض كمياتها، نتيجة تراجع تصريف نهر شط العرب من 1300 م3/ ثا في سبعينيات القرن الماضي الى حوالي 1000م3/ثا في نهاية التسعينيات من

نفس القرن، الى ان وصلت الان الى ما دون 40 م3/ثا مع نهاية عام 2016. كما ارتفعت نسب تركيز المواد الذائبة الكلية (الملوحة) من 750 – 800 ملغم/ لتر في سبعينيات القرن الماضي الى أكثر من 4000 ملغم/ لتر مع نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. كما أدت الزيادة الكبيرة في اعداد السكان وارتفاع مستوى المعيشة الى ارتفاع تصريف مياه الصرف الصحي ومخلفات مياه النشاط الزراعي والصناعي والتجاري الى شط العرب من مدينة البصرة نفسها او نتيجة ما يأتي الى النهر من مدن العراق الأخرى باعتبار ان شط العرب يمثل نهاية المجرى المائي لنهري دجلة والفرات بحيث أصبح يصح ان نطلق على البصرة اسم (خزان الصرف الصحي الكبير للعراق) Main Septic tank of Iraq.

ثم ازداد الطين بلة عندما توغلت الجبهة المالحة (اللسان او الاسفين الملحي) Salt Wedge الصاعد من أسفل المجرى النهري لشط العرب باتجاه أعالي النهر (نتيجة انخفاض التصريف المائي الذي ذكرنا انه تراجع الى اقل من 40 م3/ثا، بل ووصل في بعض الأحيان حتى الى ما دون 10 م3/ثا) بسبب ضعف طاقة كتلة مياه الجزر التي كانت تبقيه متذبذبا بين الفاو ومنطقة الدورة على بعد حوالي 4 كم من ميناء التحميل النفطي في الفاو إبان تسعينيات القرن الماضي، حتى أصبحت منطقة السيبة التي تبعد حوالي 70 كم عن الفاو هي منطقة المصب لشط العرب الآن، وكانت محطة ابو الفلوس هي المحطة الأخيرة في شط العرب التي تظهر الصفات النهرية مع نهاية عام 2016.

فكرة انشاء سد على مجرى شط العرب:

لقد دعت العوامل المذكورة آنفا، (قلة التصريف المائي وارتفاع تركيز الاملاح وارتفاع نسب تركيز مياه الصرف الصحي واندفاع اللسان الملحي) المعنيين بشؤون البصرة الى التفكير بإيجاد حل للموت البيئي لشط العرب الذي بدا يلوح للعيان. فتم على أثر ذلك طرح مسألة إقامة سدة على شط العرب لإيقاف الاندفاع الملحي الذي تجاوز في سنة 2012 منطقة المعقل ووصل قريبا من كرمة علي، والذي كان يبدو العامل الأشد خطورة آنذاك، مع ملاحظة وضع الحلول والمعالجات لإيقاف طرح مياه الصرف الصحي دون معالجة الى المجرى الرئيس لشط العرب.

ومع بداية سنة 2009 تم طرح عدة آراء لاختيار موقع تشييد السدة المقترحة، كان أهمها ما يأتي:

أ- منطقة رأس البيشة والتي يمثل نهاية المجرى المائي لشط العرب وبداية اتصاله مع الخليج، وتبعد عن مدينة البصرة بحوالي 100 كم، وهو المقترح الذي تقدمت به وزارة الموارد المائية.

ب- منطقة جزيرة المحمدية والتي تقع شمال مدينة البصرة بحدود 10 كم قبل التقاء نهر كرمة علي مع شط العرب، وهو المقترح الذي تقدم به مركز إنعاش الاهوار في محافظة البصرة.

ج- منطقة أبو الفلوس والتي تقع جنوب مدينة البصرة بحدود 15 كم، وتبعد عن منطقة المصب في رأس البيشة بحوالي 90 كم، وهي تمثل تقريبا نهاية المجرى النهري لشط العرب ضمن الحدود العراقية، وهو المقترح الذي تقدم به مركز علوم البحار.

كما يجب ألا ننسى المقترح المقدم من قبل

شركة Poleservice البولندية عام 1976 لإنشاء سدة في منطقة القرنة اعالي التقاء نهر السويب بشط العرب، وهو الامر الذي يدل على مدى سعة أفق الباحثين الهيدرولوجيين البولنديين وقراءتهم الصحيحة لمستقبل الموارد المائية في منطقة الشرق الأوسط قبل أكثر من 25 سنة على بروز المشكلة للعيان وصيرورتها واقعا مرّا يواجه العراقيين عامة والبصريين خاصة. وقد كان لكل من المقترحات المذكورة أعلاه سلبياته وإيجابياته، ولكن تم الاتفاق مبدئياً على الموقع المقترح من مركز علوم البحار لكونه عالج مشكلة الحدود والإدارة المشتركة للسد وارتفاع التكاليف فيما لو تم إنشاؤه في رأس البيشة بسبب عرض المقطع النهري الذي يتجاوز 1500 متر في حالة المد، واختصر مسألة مد شبكات انابيب التغذية بالمياه العذبة والمشاكل الهندسية لتعبيرها تحت الطرق والجسور والسكك الحديد في البصرة وتحول أكثر من نصف مسار نهر شط العرب الى مياه بحرية، فيما لو تم اعتماد المقترح المقدم من مركز إنعاش الاهوار.

التسويف هو فن اللحاق بالأمس

بعد ان تم طرح الأفكار السابقة والاتفاق على رأي مركز علوم البحار مع منتصف عام 2009، دخلت الفكرة بين اخذ ورد من قبل المؤيدين لها او المعترضين عليها، فتغيرت ثلاث حكومات محلية وها نحن نعيش الرابعة، ومع كل حكومة جديدة تتم مطالبة مركز علوم البحار بتقديم نسخة جديدة من الدراسة لأن النسخ السابقة قد ذهبت الى سلة المهملات مع رحيل كل حكومة ورجالها وأوراقها، وكأن البلد ضيعة تؤول ملكيتها للحزب الحاكم وليس دولة مؤسسات مدنية وأكاديمية من المفترض فيها ان يكمل اللاحق ما بدأه السابق، فضاعت سنوات تسع عجاف تغيرت فيها بيئة شط العرب نحو الأسوأ فتردى الوضع بصورة ابشع واقسى وأصبحت مصادر تملح مياه شط العرب ليس من الموجة الملحية الصاعدة من الخليج العربي فحسب، بل اضيف اليها مصدر جديد الا وهو الملوحة القادمة من الأجزاء الشرقية لهور الحمار بعدما قرر المسؤولون في وزارة الموارد المائية تغذية الهور بمياه المصب العام التي يتراوح فيها تركيز المواد الذائبة الكلية (الاملاح) بين 7000 – 8000 ملغم/ لتر.

كما ادى التجاوز الكبير وغير المسؤول من قبل سكان العشوائيات (الحواسم) من خلال طمر شبكات الأنهار الفرعية داخل مدينة البصرة وانشاء مساكن او محلات غير مرخصة عليها، أدى الى توقف هذه الشبكة عن أداء مهامها التي كانت تقوم بها داخل مدينة البصرة عن طريق بزل المياه تحت الأرضية منعا لصعودها، كما كانت تعمل في نفس الوقت بتصريف مياه الصرف الصحي الى مجمعات مياه كان من المفترض ان تنتهي بمجمع معالجة المياه الرئيس جنوب المنطقة الصناعية في (حمدان) قبل طرحها الى شط البصرة ومن ثم الى خور الزبير. فتحولت هذه الشبكة الى برك آسنة (خصوصا بعد توقف عمليات الكري التي كانت تُجرى سنويا) وصارت مصدرا خطيرا لطرح الملوثات العضوية والبكتيرية الممرضة الى مياه شط العرب، فضلا عن تلكؤ الحكومات المحلية في تنفيذ شبكات متكاملة للصرف الصحي وربطها بالمجمع الرئيس المقرر لها في منطقة حمدان، لغرض توفير بيئة سليمة لمياه شط العرب

فيما لو تم تنفيذ انشاء السد في منطقة ابي الفلوس.
ونتيجة للوضع الاقتصادي المربك الأحادي الجانب الذي يعيشه العراق باعتماده على تصدير النفط مصدرا وحيدا للدخل القومي وانخفاض أسعار تصدير البترول، فضلا عن تكاليف الحرب المفروضة على العراق لمواجهة التحالف الإرهابي بين الجماعات التكفيرية والحزب الفاشي المقبور والتي تكلف ميزانية الدولة حوالي 60 مليون دولار يوميا، فقد توقفت المشاريع الاستراتيجية لاستصلاح أراضي الجانب الشرقي من نهر دجلة والتي كان من المخطط ان تنفذ منذ عقود لتصريف مياه الصرف الزراعي لمناطق شرق العمارة وشرق البصرة عبر ما يسمى (بالمصب العام الشرقي)، والذي كان في حال انشائه سيجعل من مسألة بناء السد في منطقة أبو الفلوس أمرا مفروغاً منه.

ما هو الحل؟

تتطلب معالجة مشكلة تردي نوعية المياه، معالجة ارتفاع ملوحة المياه اولاً عن طريق الكشف عن مصادر هذه الأملاح والأسباب التي أدت لارتفاع تركيزها، ومن ثم الكشف عن التعقيدات والتداخلات في ما بينها وبين مخلفات مياه الاستخدامات البشرية والصناعية والزراعية معا، لكي يتم التعامل معها جميعاً دون إغفال أي مصدر من مصادرها مع مراعاة الأولوية في المعالجات، واستناداً لذلك يجب أن تكون معالجة مشكلة تلوث المياه في شط العرب من خلال حزمة متكاملة من المعالجات التي تتعامل مع مصادر الملوثات جميعها سواء أكانت فيزيائية ام كيميائية ام بايولوجية.
ونتيجة للتعقيدات التي طرأت حاليا على النظام الايكولوجي والنظام الهيدرولوجي لشط العرب وروافده والانهار المتفرعة منه وتعدد مصادر تلوث شط العرب وعدم الامكانية (في ظل استمرار الظروف الحالية) على السيطرة عليها جميعا او تحييد البعض منها، فانه لم يعد من المنطق الاستمرار بخطة انشاء سدة على شط العرب، بل يجب التفكير بخطط وبدائل جديدة يمكن ان تندرج تحت فئات رئيسة ثلاث هي:

1. الحلول الآنية والمستعجلة.
2. الحلول المؤقتة متوسطة المدى.
3. الحلول الاستراتيجية والمستقبلية.

الحلول الآنية والمستعجلة:

– تأمين أدنى حصة مائية لمحافظة البصرة في شط العرب بما لا يقل عن 50 م3/ ثا حاليا، لتأمين الاحتياجات المائية للاستخدامات المختلفة والحد من تقدم الموجة الملحية الصاعدة من الخليج العربي الى أعالي المجرى النهري لشط العرب، علما أن وزارة الموارد المائية قد حددت حجم الاطلاقات المائية إلى شط العرب من مؤخر سدة العمارة بحوالي 50 – 75 م3/ ثا.
– تغيير الخطة الزراعية لمحافظة البصرة من خلال الاتجاه لزراعة الخضراوات والمحاصيل العلفية واعادة استزراع غابات النخيل والكف عن زراعة المحاصيل الحبوبية لأن بالإمكان استيرادها من المحافظات الأخرى او من الدول المصدرة لها. ذلك لان تأمين إمداد المياه العذبة للسكان يأتي في المرتبة الأولى من أولويات استخدامات المياه ومن ثم تأتي بقية الاستخدامات، وكذلك ضرورة التشجيع على تغيير النمط الزراعي الافقي السائد في العراق والاتجاه لاتباع اساليب الزراعة العمودية وطرق الري

الحديثة والمتطورة، وتثقيف المزارعين عن اهمية نصب وسائل مراقبة رطوبة التربة وتحديد المواعيد الملائمة للري.

– إعادة النظر بالخطط المتعلقة بإنعاش الأهوار من قبل المعنيين في وزارة الموارد المائية، وذلك لكون استعادة الأهوار تتطلب كميات كبيرة من المياه غير متاحة حاليا او مستقبلا، كما أن انتشار مياه الأهوار على مساحات واسعة وبأعماق ضحلة سيعرضها للتبخر الذي يتجاوز معدله 3م سنويا، مما سيؤدي لتراكم الاملاح في مناطق الاهوار فتصبح مصدرا خطيرا لتردي نوعية مياه شط العرب، وهذا يثبت عدم الجدوى من اعادة إنعاش الاهوار (بأكملها) حاليا او مستقبلا، بل يجب ان يتم إنعاش مناطق محددة ومنتخبة وتحت السيطرة لغرض استدامة التنوع الحيوي الحفاظ على التراث الثقافي للأهوار.

الحلول المؤقتة متوسطة المدى:

– تفعيل مبدأ الامن المائي Water Security Concept وردم الفجوة المائية (النقص ما بين الايراد والمصروف المائي) من خلال قيام وزارة الموارد المائية بإعادة جدولة أولويات اهتماماتها، والسعي لوضع الأمن المائي على قائمة الأولويات الوطنية لأن المياه (في العراق بشكل عام والمحافظات الجنوبية بشكل خاص) تمثل احد التحديات الكبرى التي يمكن أن تمس الامن الوطني والاستقرار المجتمعي.

– تطبيق مبدأ حوكمة المياه Water Governance Concept من خلال إعادة ترتيب أولويات استخدامات المياه في جميع القطاعات الزراعية والصناعية البشرية والبيئية، وعن طريق مخاطبة المعنيين في وزارات التخطيط والموارد المائية والزراعة لوضع خطة استراتيجية شاملة ومتكاملة لإدارة المياه المتاحة في عموم العراق، وإلزام المحافظات العراقية جميعها بتطبيق جزئيات هذه الخطة من خلال تغيير الخطة الزراعية للبلد سيما في ما يتعلق بالمساحات الزراعية ونوع المحاصيل المزروعة لكونها تستهلك حوالي 80% من موارد المياه في العراق.

– تأسيس المجلس الوطني للسياسات المائية National Water Policies Council لتخطيط وتعزيز الرابطة بين موارد المياه والطاقة والغذاء* في العراق Water-Energy-Food Nexus، وتكون قراراته ملزمة في كافة أنحاء العراق. مع التأكيد بان تعمل وزارة الموارد المائية على تغيير خطط ادارة المياه والتي ركزت بشكل خاص منذ بداية تأسيس هذه الوزارة عام 2003 وحتى الان على اقامة المشاريع في مناطق شمال ووسط العراق مع ترك مناطق جنوب العراق تواجه مصيرا مجهولا مع تردي نوعية المياه وشحة كمياتها.

– التنسيق والتعاون مع المنظمات الدولية International Cooperation Agencies ذات الصلة للاستفادة من خبراتها ودعمها المادي والمعنوي في مجالات التحديث وبناء القدرات وإعداد البرامج والخطط التنموية على المستوى الوطني، في مجال امن المياه وشحته Water Security and Scarcity)).

الحلول الاستراتيجية المستقبلية:

– إقامة منظومة متكاملة من شبكات البزل لتجميع مياه البزل ومعالجتها قبل ان يتم صرفها إلى مجرى شط العرب، والسعي

للاستفادة من اعادة معالجة مياه المصب العام ومن ثم اعادة استخدامها للأغراض الزراعية اسوة بما يتم فعله في دول الاردن واسرائيل والهند.

– اكمال تنفيذ وربط شبكات مجاري المياه الثقيلة او انشاء محطات معالجة مصغرة للتجمعات السكنية التي تصرف فضلاتها الى مجرى شط العرب، وصيانة وتشغيل محطات معالجة المياه المقامة حاليا، واعادة تدوير هذه المياه لغرض الاستفادة منها زراعيا بعد ازالة الملوثات البكتيرية منها، كما تفعل دول الكويت والاردن والسلطة الفلسطينية ومصر والولايات المتحدة الاميركية. وكذلك العمل على إكمال شبكات مجاري مياه الامطار في مدينة البصرة.

– المباشرة الفورية بنصب محطات تحلية المياه بنظام التنافذ العكسي Reverse Osmosis Systems الملائم للمياه المويلحة Brackish ضمن محطات التصفية المقامة على طول مجرى شط العرب حتى منطقة السيبة، ومحطات ملائمة للمياه المالحة Saline Water ضمن مقطع المجرى النهري الممتد من السيبة حتى الفاو، لغرض إمداد المناطق السكنية بمياه نقية وصالحة للشرب، مع رفع تسعيرة المياه ووضع عدادات استهلاك المياه في المنازل والمؤسسات بشكل يضمن سهولة استخدامها ويحد من الهدر فيها مع نشر الثقافة والوعي البيئي لدى السكان، والعمل على زيادة أعداد محطات التحلية واقامتها على خور الزبير، بما يضمن تأمين المياه اللازمة لسد الاحتياجات المائية للاستعمالات الضرورية للمحافظة، وذلك تحسباً لندرة أو انعدام المياه النهرية العذبة الواصلة للبصرة مستقبلا، لأن المياه البحرية هي مياه دائمة غير قابلة للنضوب، كما تفعل دول الخليج التي يشكل انتاجها 57% من الانتاج العالمي في تحلية المياه البحرية.

– التفكير جديا بتحويل التخصيصات المالية المقرة لإنشاء سدة على شط العرب الى تبني فكرة انشاء قناة مائية رديفة لمشروع ماء البدعة (تقوم بنقل جزء من الحصة المائية المقررة للبصرة وهي 70 م3/ ثا)، ولكن يجب ان تكون عبارة عن قناة انبوبية مغلقة للتغلب على مشاكل فقد المياه نتيجة التبخر او ضياعها نتيجة الرشح، كما هو الحال في القناة المفتوحة حاليا، وكذلك منع التلوث الفيزيائي بسبب الترسبات نتيجة العواصف الغبارية والرملية السائدة في المنطقة، وأخيرا منع التجاوزات غير القانونية عن طريق سحب المياه من هذه القناة لتغذية مزارع الأسماك غير المرخصة او لسقي الحيوانات والمدعومة من جهات متنفذة. ويمكن الاستعانة بالشركات النفطية العاملة في البصرة لتوفير الانابيب الخاصة بهذه القناة.

---

* يُقصَد بالرابطة بين موارد المياه والطاقة والغذاء Water–Energy–Food Nexus، بانه عبارة عن مفهوم ينشأ من نهج إنمائي قائم على حقوق الإنسان، يهدف إلى ضمان حصول الجميع على الخدمات الأساسية، على النحو المنصوص عليه في أهداف التنمية المستدامة وفي مواجهة التحديات الناجمة عن تغيّر المناخ.

المصادر: تمت الاستعانة بالعديد من المصادر والتقارير العلمية المنشورة وغير المنشورة لأعداد هذه الدراسة.

ملاحظة: جميع الآراء الواردة في هذه المقالة تعبر عن رأي الكاتب وحده، ولا تعبر عن رأي المؤسسة العلمية التي يعمل فيها، الا ما قد أُشير اليه. لذا اقتضى التنويه.

ضحايا الاغتيالات في قطاع التأمين العراقي والتأمين على الحياة: محاولة في التعريف بهذا التأمين

مصباح كمال

تعلم مصباح غازي عسكر كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا؛ حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية عام 1978 وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن، ولا يزال يمارس العمل. نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي - عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر. يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقي - http://misbahkamal.blogspot.com - مكرسة لدراسة قضايا التأمين في العراق من موقف نقدي، أطلقها لعدم وجود مجلة تأمينية عراقية.

من باب التقديم

نشرتُ قبل فترة مقالة عن اغتيال الأطباء في العراق والتأمين من المسؤولية المهنية والقيم العشائرية[1]. ركّزت المقالة على انزياح التأمين أمام القيم العشائرية، وتهديد واغتيال الأطباء وغياب الحماية التأمينية من المسؤولية عن الأخطاء الطبية. لم تتناول المقالة ظاهرة الاغتيالات التي ظهرت بعد الغزو والاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003. في العهد الدكتاتوري كانت الاغتيالات تهدف إلى التخلص من المعارضين داخل حزب البعث والمعارضين خارجه، داخل العراق وخارجه[2]. منذ 2003 تغيرت الصورة إذ تداخلت أسباب التخلص من العلماء والأكاديميين والأطباء والصحفيين وغيرهم لتتوزع بين النزعات الطائفية والانتقامية والإجرامية مع إبقاء العراق متخلفاً علمياً وكسيحاً. لم تتوضح أسباب "مشروع الاغتيالات" حتى الوقت الحاضر رغم التحقيقات الصحفية المهمة المنشورة؛ فتارة هي "خيار السلفادور" [3]،

وتارة هي السياسات المضمرة لدول الجوار ومنها إسرائيل، وتارة أخرى هي النَفس الطائفي الموروث لتسوية ثارات الماضي.

ما نتمناه هو أن يقوم أحد المؤرخين، في غياب التحقيق الحكومي الرسمي وسكوت سياسيي الصدفة العراقيين وإخفائهم المعلومات، ببحث هذه الظاهرة بموضوعية. وليس لنا هنا سوى أن نسأل: كم سنة نحتاج لكي نحصل على عالم وطبيب ومهندس وغيرهم من أصحاب الاختصاص؟ وكم هو الهدر الاقتصادي الناتج عن اغتيال هؤلاء أو دفعهم للهجرة إلى الخارج؟ معظم هؤلاء هم من حَمَلة المعرفة ومن روافد خزين المعارف الوضعية في العراق التي يراد لها أن تجف.

سنحاول في هذه الورقة عرض خسارة قطاع التأمين من ضحايا الاغتيالات والقتل العمدي، ونماذج من وثائق التأمين على الحياة، المستخدمة في العراق، التي توفر مورداً مالياً لورثة الضحايا، ونعرض في ملحق التساؤل الذي يقول بأن التأمين على الحياة يحفز على القتل (قتل المؤمن عليه).

الأطروحة الأساسية المضمرة في هذه الورقة هي أن التأمين على الحياة أداة حضارية لتوفير مورد مالي للورثة أو ادخار لمشروع عائلي. وهي أطروحة بانتظار من يقوم بدراستها.

إن الفقراء والفئات المهمشة، وهم يعدون بالملايين في العراق، غير قادرين على شراء التأمين على الحياة لأن الدخل المتوفر لديهم بالكاد يبقيهم على قيد الحياة، ناهيكم عن الجهل بمؤسسة التأمين. وحتى التأمين المتناهي الصغر microinsurance لا يمكن له أن ينجح بدون أن يتوفر حد أدنى من الدخل للمشاركين فيه.

خسارة قطاع التأمين من ضحايا الاغتيالات

لم تقتصر خسارة الاغتيالات والقتل على قطاع معين، وما اختيارنا لقطاع التأمين سوى معرفتنا القليلة به وجهلنا بغيره من القطاعات.

لقد خسر قطاع التأمين العراقي عدداً من ممارسيه خلال فترة التهجير الأولى للكرد الفيلية، 1970 – 1971 بحجة التبعية الإيرانية (4)، ولم تخضع هذه الخسارة إلى التوثيق. كما خسر أيضاً خلال فترة الاقتتال الطائفي عندما كان العراق تحت الاحتلال الأمريكي؛ إذ صار البعض من أسرة التأمين من جملة المئات من ضحايا الاغتيالات، وانتهى غيرهم من الكفاءات في دول المهجر (5)، ربما تعرَّض غيرهم إلى عجز كلي أو جزئي نتيجة لأعمال إرهابية أو لعمليات عسكرية. وليس هناك معلومات إن كان هؤلاء يحملون وثائق تأمين للحوادث الشخصية التي كانت ستوفر بعض التعويض لما أصابهم. لا نعرف أسماء كل الممارسين من ضحايا الطائفية أو القوات الأمريكية المحتلة ومرتزقتها لكننا استطعنا، بفضل مساعدة بعض الزملاء، رصد الأسماء أدناه ولعل زملاءنا يوفرون المزيد من المعلومات:

- ضرغام الغضنفري، كان مديراً للرقابة للداخلية في شركة التأمين الوطنية، قتل في 10 كانون الثاني 2008 في حادثة تفجير إرهابي في منطقة زيّونة في بغداد وهو يقدّم العزاء لإحدى العوائل (6).
- عبد الكاظم ابو جودت، مدير قسم التسويق، شركة التأمين الوطنية، اغتيل بعد سقوط النظام سنة 2003. وقد جاء إلى الشركة لأسباب سياسية من خارج قطاع التأمين، لكنه كان بسيطاً في

تعامله مع العاملين معه في الشركة [7].

• عدنان الربيعي، مدير عام شركة التأمين الوطنية، 11 أيلول 2005 – 21 تشرين الأول 2005 (كان يحمل شهادة ماجستير من جامعة ليدز في بريطانيا).

• عماد الفرعون، محامي في شركة التأمين الوطنية [8].

• محمد حسين جعفر، مدير عام شركة التأمين الوطنية، 20 تشرين الثاني 1996 – 30 أيلول 2001 [9].

• منذر حميد حسين العاني، مدير فرع تأمين السيارات في شركة التأمين الوطنية. قُتل من قبل جنود أمريكان في الأيام الأولى من الغزو الأمريكي للعراق في آذار 2003 [10].

• منقذ جميل روحي، عمل في شركة التأمين الوطنية، وبعدها مديراً مفوضاً لشركة الأمين للتأمين.

لقد ذكرنا هذه الأسماء دون أن نهتم بالبحث عن الانتماء السياسي أو الحزبي أو الديني أو القومي لأصحابها ذلك لأنهم اغتيلوا/ قتلوا خارج سلطة القانون، أي اعتماداً على شريعة الغاب، وشريعة الانتقام الدينية، التي لا تبني دولة عصرية. لا نعرف على وجه الدقة كيف صاروا ضحايا لأعمال عمدية على يد القوات الأمريكية ومرتزقتها وعلى يد ثلّة من ضحايا الأمس (ممن تعرض لعسف النظام الدكتاتوري السابق) الذين تحولوا إلى جلاّدين لتصفية الخصوم لأسباب طائفية، أو عشائرية، أو حزبية أو فكرية. المهم هو أنهم بشر، من لحم ودم، يستحقون أن يذكروا بأسمائهم بدلاً من أن يضيعوا بين الأرقام المجردة للضحايا.

ربما لا يخطر على البال أن وثيقة التأمين على الحياة تدفع التعويض عند وفاة المؤمن عليه بسبب الأعمال الحربية والإرهابية للمستفيدين المحددين في وثيقة التأمين أو لورثته. وقد حاولنا الحصول على معلومات عن ترتيب هذه الوثائق للتأمين على حياتهم لكننا لم ننجح. لو كان لهؤلاء وثائق للتأمين على حياتهم لكان بإمكان أسرهم الاستفادة من المنافع المالية التي توفرها هذه الوثائق للإبقاء على مستوى مقبول من العيش بعد فقد المُعيل.

لقد كتبنا في مقالتنا "اغتيال الأطباء في العراق والتأمين من المسؤولية المهنية" أنه "ليس بإمكان مؤسسة التأمين التخلص من القيم العشائرية لكنها تساهم في التقليل من وقعها من خلال توفير آلية بديلة لهذه القيم متى ما انتشرت ثقافة التأمين في المجتمع. يجب الإقرار بأن التأمين لا يوفر علاجاً لجميع العلل التي ابتلي بها العراق خاصة وأن مؤسسة التأمين العراقي ضعيفة".

وضمن هذا الفهم يمكن القول إن التأمين على حياة ضحايا الاغتيالات سواء كان تأميناً فردياً أو جماعياً، لو كان هذا التأمين موجوداً، لكان قد استطاع أن يلعب دوراً في توفير مصدر مالي لورثتهم. وهذا ما سنحاول أن نعرضه في هذه الورقة من خلال عرض سريع ومبسط لما تقدمه شركة التأمين العراقية من وثائق للتأمين على الحياة [11] كان بالإمكان الاستفادة من بعضها من قبل أسر الضحايا. إن معظم ضحايا قطاع التأمين [12]، وكذلك الضحايا الآخرين من أكاديميين أطباء وعلماء ومهندسين، يمكن أن يصنفوا ضمن الطبقة الوسطى، أي أفراد لهم قدرة مالية مناسبة لشراء وثيقة تأمين على الحياة. كما أن المؤسسات التي كانوا يعملون فيها قادرة على شراء وثيقة تأمين جماعية على حياتهم.

أنواع وثائق التأمين على الحياة

وثائق التأمين التي نستعرض أجزاء منها هي المعتمدة من قبل شركة التأمين العراقية، وقد كانت شركة متخصصة بأعمال التأمين على الحياة (1964 – 1988). ونفترض أن شركات التأمين الأخرى، التي تمارس التأمين على الحياة، لها نماذج مماثلة من هذه الوثائق.

التأمين المؤقت على الحياة
Term Assurance

وثيقة التأمين على الحياة قصير الأجل، وهي من أبسط عقود التأمين على الحياة. تدفع هذه الوثيقة مبلغ التأمين المتفق عليه للمستفيد المُسمى في الوثيقة في حالة وفاة المؤمن عليه، قبل انتهاء مدة التأمين. وفي حالة انتهاء المدة وبقاء المؤمن عليه على قيد الحياة فإن عقد التأمين ينتهي دون قيام أي التزام على شركة التأمين.

هذا هو الحال عندما تكون وفاة المؤمن له طبيعية أو بسبب حادث. ما هو حكم هذه الوثيقة عندما ينفذ حكم الإعدام بالمؤمن عليه، أو تكون وفاته نتيجة انتحار، أو بسبب الأعمال الحربية؟ تنص الوثيقة على الآتي في هذه الحالات:

عقوبة الإعدام

إذا أعدم المؤمن عليه بسبب حكم قضائي فلا تكون الشركة ملزمة إلا بدفع الاحتياطي الحسابي (13) للعقد.

الوفاة نتيجة انتحار

تلتزم الشركة بدفع مبلغ التأمين إذا كانت وفاة المؤمن عليه نتيجة انتحار إلا إذا حدثت الوفاة نتيجة الانتحار خلال السنتين الأوليين لابتداء عقد التأمين أو إعادة مفعوله، فعندئذ لا تلتزم الشركة إلا بدفع الاحتياطي الحسابي للعقد وقت الوفاة.

أما إذا كان سبب الانتحار أو الشروع فيه مرضاً عقلياً أفقد المؤمن عليه إرادته فإن التزام الشركة بدفع مبلغ التأمين يبقى قائماً في أي وقت خلال مدة سريان العقد.

الوفاة بسبب الأعمال الحربية

إذا توفي المؤمن عليه بسبب عمل من أعمال الحرب المعلنة أو غير المعلنة، فإن مسؤولية الشركة بمقتضى هذا العقد تحدد بقدر الاحتياطي الحسابي للعقد وقت الوفاة. ويسري هذا الحكم على حالة وفاة العسكري بخطر من أخطار الطيران العسكري وقت السلم أيضاً.

يلاحظ من هذه الحالات الثلاث أن وثيقة التأمين لا تغطي الوفاة الناشئة عن اغتيال المؤمن عليه. ويلاحظ أيضاً غياب ذكر الوفاة نتيجة للأعمال الإرهابية. بعض شركات التأمين، ومنها شركة التأمين الوطنية، تعرض على طالبي التأمين على حياتهم توسيع غطاء التأمين ليشمل خطر العمليات الإرهابية كمنفعة إضافية مقابل سعر إضافي.

يمكن المُحاجّة بأن ديباجة الوثيقة تحصر دفع مبلغ التأمين المتفق عليه للمستفيد المُسمى في الوثيقة، في حالة وفاة المؤمن عليه قبل انتهاء مدة التأمين دون تحديد سبب الوفاة. وإذا كان هذا صحيحاً فإن عدم النص

على الوفاة بسبب الأعمال الإرهابية لا يعفي شركة التأمين من مسؤولية دفع التعويض للمستفيد (14).

وثيقة التأمين المختلط على الحياة Endowment Assurance

تعرف أيضاً باسم تأمين الوقفية، وسميت بالعربية "المختلط" لأنها تضم التأمين المؤقت Term Assurance والتأمين حال الحياة/ الوقفية البحتة Pure Endowment Assurance.

بموجب وثيقة شركة التأمين العراقية فإن المؤمن عليه يستحق مبلغ التأمين في حالة بقاء المؤمن عليه على قيد الحياة حتى انتهاء مدة التأمين. كما يستحق المستفيد مبلغ التأمين في حالة وفاة المؤمن عليه قبل انتهاء مدة التأمين.

المادة الثامنة: عقوبة الإعدام

إذا أعدم المؤمن عليه بسبب حكم قضائي فلا تكون الشركة ملزمة إلا بدفع الاحتياطي الحسابي للعقد.

المادة التاسعة: الوفاة نتيجة انتحار

تلتزم الشركة بدفع مبلغ التأمين إذا كانت وفاة المؤمن عليه نتيجة انتحار إلا إذا حدثت الوفاة نتيجة الانتحار خلال السنتين الأوليين لابتداء عقد التأمين أو إعادة مفعوله، فعندئذ لا تلتزم الشركة إلا بدفع الاحتياطي الحسابي للعقد وقت الوفاة.

أما إذا كان سبب الانتحار أو الشروع فيه مرضاً عقلياً أفقد المؤمن عليه إرادته فإن التزام الشركة بدفع مبلغ التأمين يبقى قائماً في أي وقت خلال مدة سريان العقد.

المادة العاشرة: الوفاة بسبب الأعمال الحربية

إذا توفي المؤمن عليه بسبب عمل من الأعمال الحربية المعلنة أو غير الـ معلنة أو الأعمال الإرهابية والانفجار الناتج عن الأسلحة الحربية والسيارات المفخخة، فإن مسؤولية الشركة تحدد بقدر الاحتياطي الحسابي للعقد وقت الوفاة. ويسري هذا الحكم على حالة وفاة العسكري بخطر من أخطار الطيران العسكري وقت السلم أيضاً.

يلاحظ في هذه الوثيقة النص الصريح على تغطية وفاة المؤمن عليه بسبب الأعمال الإرهابية والانفجار الناتج عن الأسلحة الحربية والسيارات المفخخة، وهو ما لا نجد ذكراً له في وثيقة التأمين المؤقت والتأمين المؤقت مع رد الأقساط. في حين أن الوثائق الثلاث تغطي وفاة المؤمن عليه بسبب عمل من الأعمال الحربية المعلنة أو غير المعلنة.

ويلاحظ أيضاً أن خطر وفاة العسكري وقت السلم ينحصر بأخطار الطيران العسكري (وليس الطيران المدني أو خطر الوفاة بسبب حادث عرضي في معسكر للجيش وقت السلم). وهنا أيضاً، نأمل من أهل الاختصاص شرح ما يبدو مفارقة في نطاق تغطية العسكريين وقت السلم.

التأمين المؤقت على الحياة مع رد الأقساط Term Assurance with Return of Premiums

يستحق المؤمن عليه مبلغ التأمين في حالة بقاء المؤمن عليه على قيد الحياة حتى حلول أجل التأمين (انتهاء مدة التأمين) بما يعدل

القيمة النقدية المضمونة guaranteed cash value للوثيقة، وتساوي مجموع أقساط التأمين التي سددها المؤمن عليه. كما يستحق المستفيد مبلغ التأمين في حالة وفاة المؤمن عليه قبل انتهاء مدة التأمين.

المادة الثامنة: عقوبة الإعدام

إذا أعدم المؤمن عليه بسبب حكم قضائي، فلا تكون الشركة ملزمة إلا بدفع الاحتياطي الحسابي للعقد.

المادة التاسعة: الوفاة نتيجة انتحار

تلتزم الشركة بدفع مبلغ التأمين إذا كانت وفاة المؤمن عليه نتيجة انتحار، إلا إذا حدثت الوفاة نتيجة الانتحار خلال السنتين الأوليين لابتداء عقد التأمين أو إعادة مفعوله، فعندئذ لا تلتزم الشركة إلا بدفع الاحتياطي الحسابي للعقد وقت الوفاة.
أما إذا كان سبب الانتحار أو الشروع فيه مرضاً عقلياً أفقد المؤمن عليه إرادته فإن التزام الشركة بدفع مبلغ التأمين يبقى قائماً في أي وقت خلال مدة سريان العقد.

المادة العاشرة: الوفاة بسبب الأعمال الحربية

إذا توفي المؤمن عليه بسبب عمل من الأعمال الحربية المعلنة أو غير المعلنة، فإن مسؤولية الشركة بمقتضى هذا العقد تحدد بقدر الاحتياطي الحسابي للعقد وقت الوفاة. ويسري هذا الحكم على حالة وفاة العسكري بخطر من أخطار الطيران العسكري وقت السلم أيضاً.

لقد اقتبسنا مطولاً من نصوص وثائق التأمين على الحياة كي يتعرَّف القارئ عليها. النصوص تكاد أن تكون متشابهة إلا في بعض المواقع، كما بيّنا في ما يخص الوفاة بسبب الأعمال الإرهابية والسيارات المفخخة. ويلاحظ أن التعويض في حالات الإعدام والانتحار والأعمال الحربية يتحدد بمقدار الحساب الاحتياطي لعقد التأمين وقت حصول وفاة المؤمن عليه.

الوثيقة العربية الموحّدة لتأمين الحياة الفردية

أصدرت لجنة تأمينات الحياة العامة في إطار الأمانة العامة للاتحاد العام العربي للتأمين باجتماعها الثامن في عمان/ الأردن بتاريخ 1 آذار 1995 الشروط العمومية العربية الموحدة نموذج لوثيقة تأمين الحياة الفردية، للاستفادة منها من قبل شركات التأمين الأعضاء في الاتحاد. ونقتبس هنا الأخطار المستثناة كي يستطيع القارئ المقارنة بينها وبين ما يرد في وثائق شركة التأمين العراقية.

الأخطار المستثناة:

(تترك لكل سوق حرية تغطية أي منها برسم إضافي أو بدون) –كما في الأصل– تلتزم الشركة بدفع مبلغ التأمين وغيره من المستحقات المنصوص عليها في هذه الوثيقة في جميع حالات الوفاة عدا الحالات الناشئة عن:
أ. الانتحار إذا حدث خلال السنتين الأوليين من تاريخ سريان الوثيقة، إلا إذا أثبت المستفيد أن سبب انتحار المؤمن له مرضي أفقده إرادته.

ب. مسابقات السرعة بواسطة مركبات ذات آلات محركة سواء كانت أرضية أو مائية أو جوية.
ج. الإعدام.
د. المبارزة.
هـ. التنقلات أو الأسفار الجوية أو المائية إلا إذا قام بها المؤمن عليه باعتباره راكباً عادياً بخط ملاحي جوي أو مائي يقوم بخدمة منتظمة.
و. أخطار الحرب والأعمال العسكرية إذا كان المؤمن عليه مجنداً أو تابعاً لإحدى هيئات القوات العسكرية المسلحة سواء كانت بسبب حربٍ خارجية أو داخلية وسواء كانت حرباً معلنة أو غير معلنة أو نشأت نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للتدابير العسكرية بما في ذلك المناورات والتدريب والأعمال الحربية أو الآثار الناشئة عنها.
ز. أخطار أعمال الفتنة أو الاضطرابات أو الشغب أو الثورات.
وفي حالة الوفاة الناجمة عن أحد هذه الأخطار المستثناة تدفع الشركة قيمة الاحتياطي الحسابي للوثيقة إلى أصحاب الشأن/ الحق.
ح. القتل العمد: من قبل المتعاقد أو المستفيد بمشاركة أو بتحريض من أي منهما، وفي هذه الحالة يسقط حق المستفيد الذي يكون قد تسبب عمداً في القتل ويؤدى مبلغ التأمين إلى باقي المستفيدين إن وجدوا، وفي حالة عدم وجود مستفيدين يؤدى المبلغ إلى الورثة الشرعيين.

سيلاحظ القارئ بأن القتل العمد مستثنى من هذه الوثيقة. سنعرض شرحاً لهذا الموضوع في ملحق هذه الورقة. كما يستثني مسابقات السرعة بواسطة مركبات ذات آلات محركة سواء كانت أرضية أو مائية أو جوية، والمبارزة، والتنقلات أو الأسفار الجوية أو المائية إلا إذا قام بها المؤمن عليه باعتباره راكباً عادياً بخط ملاحي جوي أو مائي يقوم بخدمة منتظمة – وهذه الاستثناءات لا ترد في وثائق شركة التأمين العراقية.

من باب الختام

إن ما ينشر عن الربط بين الاغتيالات والتأمين معدوم في الكتابات التأمينية العراقية. وورقتنا هذه ربما هي أول محاولة للكتابة عن الموضوع. كما أن الكتابات المنشورة عن التأمين على الحياة هي الأخرى تكاد تكون غائبة في الوقت الحاضر، وهو ما دعانا إلى محاولة الكتابة عنه. التأمين على الحياة لا يقع ضمن اختصاصنا ولذلك نأمل أن يقوم المختصون بتقويم أي خطأ في ورقتنا، وكذلك الكتابة عن واقع التأمين على الحياة في العراق، والدور المرتقب الذي يمكن أن يلعبه في الادخار والاستثمار والمعاشات، إضافة إلى دوره الأساس في تعويض المؤمن عليهم وأسرهم وغيرهم من المستفيدين.

28 آب 2017

الملحق (1)
إحصائية شركة التأمين العراقية (التعويضات المدفوعة عن التأمين على الحياة للأعوام 2014 - 2015 - 2016)[15].

تبين هذه الإحصائية استحقاق التعويض لمحفظة التأمين الفردي ومحفظة التأمين الجماعي حسب سبب الوفاة. وفيها نكتشف وجود حالة واحدة للقتل في محفظة التأمين الفردي في سنة 2015 وواحدة في سنة 2016. ونجد 3، و6، و5 حالات تعويض حوادث إرهابية في محفظة التأمين الجماعي في 2014، و2015، و2016.

ونلاحظ أن مبالغ التعويضات كانت 28،491،896،572 دينار (2014)، 3،110،456،012 (2015)، 25،702،629،123 (2016).

وبالطبع، يمكن قراءة هذه الإحصائيات بشكل أفضل لو عرفنا حجم أقساط التأمين الإجمالية والصافية.

يمكن الاستفادة من هذه الإحصائية في الرد على من يستخف بالتأمين على الحياة ودوره في توفير حماية للأفراد وورثتهم.

التعويضات المدفوعه عن التامين على الحياة للاعوام (٢٠١٤-٢٠١٥-٢٠١٦)

ت	المحفظة	السنه 2014 عدد	2014 اقساط	2015 عدد	2015 اقساط	2016 عدد	2016 اقساط
	التامين الفردي						
1	الاستحقاق بانتهاء مدة التامين	1183	3178265000	1355	3643076000	1020	3086844000
2	الاستحقاق بالوفاة حسب سبب الوفاة	16	58648000	11	37837000	9	54449000
أ	امراض القلب والدورة الدموية	10	36655000	9	32180000	6	36299333
ب	امراض السرطان	2	7331000	1	3439000	0	0
ج	حوادث السيارات	4	14662000	0	0	2	12099778
د	حوادث القتل	0	0	1	2218000	1	6049889
هـ	انفجارات عبوات ناسفة	0	0	0	0	0	0
3	تعويضات الحوادث	4	3971000	7	13157000	3	1900000
	مجموع التعويضات للتامين الفردي	1203	3240884000	1373	3694070000	1032	3143193000
2	التامين الجماعي						
أ	الوفاة الطبيعية او بحادث اعتيادي	2811	23247114369	3735	25024615703	2748	20424371831
ب	التامين الصحي(العمليات الجراحية)	2807	1997469632	2822	2370304909	2520	2130856564
ج	الحوادث الارهابية الجماعية	3	6428571	6	15570000	5	4207728
	المجموع	5621	25251012572	6563	27410490612	5273	22559436123
	مجموع تعويضات التامين على الحياة	6824	28491896572	7936	31104560612	6305	25702629123

شذى عبد الهادي هاشم
مدير اقدم قسم التخطيط والمتابعة
٢٠١٧/٨/٢٣

الملحق (2)
هل تغطي وثيقة التأمين على الحياة القتل العمد؟ (16)

في العادة تسدد شركات التأمين على الحياة منافع وثيقة التأمين في حالة قتل المؤمن عليه بعد الأخذ بنظر الاعتبار جملة من الظروف المحيطة بالقتل. وتضم هذه الاعتبارات ما يعرف بفترة التنازع، الغش، الانتحار، الفعل الإجرامي.

فترة التنازع/ الاعتراض Contestability Period

تضم معظم وثائق التأمين على الحياة شرطاً يمنح شركة التأمين فرصة التحقيق في ظروف وفاة المؤمن عليه، وهذا الشرط يحمي الشركة من المستفيدين عديمي الضمير أو أخطاء في المعلومات الاكتتابية لم يجرِ الكشف عنها أو اكتشافها يمكن أن تكون وَراء خسارة (مطالبة بالتعويض) غير صحيحة (لا تتوفر فيها الصفة العرضية). لكن تطبيق هذا الشرط (التنازع حول صحة المطالبة بالتعويض) محدد بفترة زمنية كأن تكون سنتين (17) من بدء نفاذ وثيقة التأمين (وهو ما نجده في وثائق شركة التأمين العراقية وفي الوثيقة العربية الموحدة لتأمين الحياة الفردية)، فمتى ما انقضت هذه الفترة يتوجب على شركة التأمين تسديد التعويض ولا يحق لها التمسك بالشرط.

الاحتيال

في حالة حدوث الوفاة خلال فترة التنازع/ الاعتراض واكتشاف شركة التأمين أن حامل الوثيقة قد أدلى بمعلومات غير دقيقة أو مضللة عمدا للحصول على التأمين، تستطيع الشركة أن تمتنع عن تسديد منافع الوثيقة. إن تقديم معلومات مضللة في استمارة طلب التأمين هو بمثابة احتيال ويجعل عقد التأمين ملغياً إذا تم الكشف عن هذه المعلومات في وقت مبكر. وبغض النظر عن الطريقة التي تحدث بها الوفاة، بما في ذلك القتل، فإن الوثيقة تصبح باطلة إذا تم الكشف عن الغش خلال السنتين الأوليين من التغطية.

الانتحار

إن عقود التأمين على الحياة تصبح لاغية في حالة الانتحار خلال فترة التنازع/ الاعتراض، ولا يحصل المستفيدون على منافع الوثيقة، بسبب انتحار المؤمن عليه. ومع ذلك، إذا حدث الانتحار بعد انقضاء هذه الفترة، فإن شركة التأمين مُلزمة بدفع المطالبة بالتعويض.

الفعل الاجرامي

تضم معظم عقود التأمين على الحياة شرطاً ينص على أن وثيقة التأمين تعتبر باطلة إذا كان الوفاة نتيجة مشاركة المؤمن عليه في الفعل الإجرامي. في حالة القتل، فإن شركة التأمين قد تقوم بالتحقيق لتحديد مستوى مشاركة المؤمن عليه هذا إن كان قد قام فعلاً بالمشاركة في اقتراف الفعل الإجرامي، الذي أدى في النهاية إلى قتل المؤمن عليه. إذا استقرت قناعة شركة التأمين أن المؤمن له كان مشاركاً حقيقياً في الجريمة ولم يكن مراقباً بريئاً، فإنها تمتنع عن تسديد استحقاقات التأمين على الحياة للمستفيدين.

الملحق (3)
هل التأمين على الحياة يحفز على القتل؟

يمكن تصور ذلك إلى الحد الذي يمكن للمستفيدين أن يفلتوا من مسؤوليتهم عن فعل احتيالي لقتل المؤمن عليه.

ولكن من الناحية العملية، توفر القواعد القانونية والممارسات الاكتتابية الأساس للحفاظ على سلامة إدارة التأمين على الحياة. وتشمل هذه: المصلحة التأمينية، القاعدة القانونية بعدم جواز الانتفاع من الفعل الإجرامي، والمستفيد البريء من وثيقة التأمين.

المصلحة التأمينية

وهي التي تقضي بعدم جواز شراء وثيقة تأمين على حياة أي شخص كان، التقيته صدفة، أو التأمين على حياة شخص دون معرفة هذا الشخص بالتأمين على حياته. وعلى أي حال، لا يمكن شراء وثيقة للتأمين من دون توفر مصلحة تأمينية في حياة المؤمن عليه. وبعبارة أخرى، يجب على المستفيد أن يثبت أنه سيخسر مالياً عند وفاة المؤمن عليه، ويجب أن يكون المؤمن عليه طرفاً في التوقيع على استمارة الطلب على وثيقة التأمين.

قوانين تحريم الانتفاع من الجريمة

هذه القاعدة القانونية تشكل عائقاً أمام من يحاول اغتيال المؤمن عليه، فهي تمنع المستفيد من التأمين على الحياة من الحصول على منافع وثيقة التأمين، إذا كان متورطاً عن عمد في وفاة المؤمن عليه. وفي العديد من الدول، فإن شركة التأمين لا تحتاج إلى إدانة جنائية لمقترف الجريمة لتجنب دفع تعويضات للمستفيد المشتبه به.

المستفيد البريء

هو ذلك الشخص، عادة المستفيد "الطارئ" البريء المسمى في وثيقة التأمين للانتفاع منها عندما يكون المستفيد "الأساسي" غير مؤهل لاستلام منافع الوثيقة. وفي حالة عدم تسمية مستفيدين محتملين، يحصل الورثة المؤهلون على استحقاقات الوثيقة من خلال تقسيم أموال المؤمن عليه من قبل محكمة مختصة.

---

1 – مصباح كمال، "اغتيال الأطباء في العراق والتأمين من المسؤولية المهنية،" شبكة الاقتصاديين العراقيين:
http://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2017/08/Misbah-Kamal-Medical-Malpractice-and-Insurance.pdf

2 – Samir Khalil (Kanan Makiya), Republic of Fear: The Politics of Modern Iraq (London: Hutchinson Radius, 1989), p 13, 19.

3 – هناك العشرات من المقالات والتحقيقات الصحفية وخاصة في الصحافة الأجنبية يمكن الرجوع إليها ولا نرغب في إثقال هذه الورقة باقتباس روابطها، ونكتفي بمرجع واحد:

4– Khalil, op. cit

5– مصباح كمال، "ممارسو التأمين العراقيين في المهجر،" مجلة التأمين العراقي:
http://misbahkamal.blogspot.co.uk/2013/04/iraqi-insurance-practitioners-in.html

6- هذه المعلومات مستلة من:

أسعد سعد برهان الدين وسحر الحمداني، "في ذكر المرحوم محمد حسين جعفر، مدير عام شركة التأمين الوطنية (20 تشرين الثاني 1996 – 30 كانون الثاني 2001)،" مرصد التأمين العراقي:

https://iraqinsurance.wordpress.com/2017/04/11/remembering-muha - mad-hussain-jafar-1946-2001/

باقر المنشئ، "محمد حسين جعفر . . . شهيد النزاهة"، مرصد التأمين العراقي:

https://iraqinsurance.wordpress.com/2017/04/

7- أفادني بهذه المعلومة زميلي مكي رزوقي مصطفى (19 آب 2013).

8- برهان الدين والحمداني، مصدر سابق.

9- برهان الدين والحمداني، مصدر سابق.

10- أفادني بهذه المعلومة زميلي منعم الخفاجي (18 آب 2017).

11- أشكر القسم الفني في شركة التأمين العراقية لتوفيره نماذج من وثائق التأمين على الحياة المعتمدة من قبل الشركة. نصوص هذه الوثائق قديمة. اقترح على إدارة الشركة مراجعتها وتحديثها.

لم نستطع الحصول على نماذج من وثائق التأمين على الحياة من شركات تأمين أخرى.

12- للتعرف على أسماء هؤلاء الضحايا راجع:

http://www.iraqsolidaridad.org/wordpress/wp-content/uploads/2013/11/List-of-Iraqi-academics-assassinated-November-2013.pdf

13- رغم أن احتمالية وفاة المؤمن عليه تزداد بتقدم عمره إلا أن قسط التأمين يظل ثابتاً خلال فترة التأمين، ولذلك تقوم شركة التأمين باقتطاع مقدار من القسط ووضعه في الاحتياطي الحسابي، وتستثمر رصيد هذا الاحتياطي في مجالات معينة وتستفيد منه ومن فوائده في دفع استحقاقات وثيقة التأمين.

ولتقدير الاحتياطي الحسابي أو المخصص المحاسبي تستخدم شركات التأمين على الحياة خبيراً اكتوارياً يقوم بتقدير الاحتياطي/ المخصص الكافي لمواجهة التزامات الشركة تجاه المؤمن عليهم. ويظهر هذا المخصص في الجانب المدين من حساب الإيراد والمصروفات.

وبموجب المادة 2 – ثالثا من تعليمات ديوان التأمين حول أسس احتساب المخصصات الفنية، الصادرة بتاريخ 18 أيار 2006:

يحتسب الاحتياطي الحسابي في التأمين على الحياة وفقا للمفاهيم والاسس الاكتوارية المتعارف عليها، على ان لا يقل الاحتساب في ما يخص السنة المالية الاخيرة عن نسبة (40%) ـ اربعين من المائة من صافي اقساط التأمين على الحيات المسجلة للسنة المذكورة.

14- نأمل من أهل الاختصاص التعليق على هذا الموضوع.

15- أشكر قسم التخطيط والمتابعة والقسم الفني في شركة التأمين العراقية على توفير هذه الإحصائية.

16- المعلومات الواردة في الملحق (2) والملحق (3) مستلة من مقالات منشورة باللغة الإنجليزية في الإنترنيت لم احتفظ بروابطها.

17- تمتد فترة التنازع لدى بعض شركات التأمين الغربية إلى خمس سنوات.

طاولة مستديرة

طاولة (الثقافة الجديدة) الحوارية: أزمة الكهرباء.. مرة أخرى (الجذور، الواقع، الحلول، ورهانات الخصخصة.. مقاربات تخصصية)

في يوم السبت المصادف 23/ أيلول/ 2017 وعلى احدى قاعات جمعية المهندسين، اقامت مجلة (الثقافة الجديدة) طاولة حوارية، استضافت فيها، ممثلين عن وزارة الكهرباء واقتصاديين والمختصين بموضوعة الكهرباء، بالإضافة الى عدد من النقابيين. وكانت الطاولة بعنوان (ازمة الكهرباء مرة اخرى.. الجذور، الواقع، الحلول، ورهانات الخصخصة.. مقاربات تخصصية).

شارك في أعمال الطاولة العديد من السيدات والسادة منهم:

- الدكتور مصعب المدرس، مدير مكتب الإعلام والاتصال الحكومي والناطق الرسمي باسم وزارة الكهرباء.
- رئيس مهندسين الاستاذ طارق رحيم رومي، عن دائرة التخطيط والدراسات والانتاج في وزارة الكهرباء.
- الدكتور محمد أحمد صالح أبو الطيب، رئيس قسم الدراسات الاقتصادية في دائرة التخطيط والدراسات في وزارة الكهرباء.
- الخبير الاقتصادي الدكتور ماجد الصوري.
- الخبير الاقتصادي الاستاذ باسم جميل انطون.
- الخبير الاقتصادي ابراهيم المشهداني.
- السيدة هاشمية السعداوي رئيس إقليم الشرق الأوسط، وعضو اللجنة التنفيذية في الاتحاد الدولي للصناعات.
- السيد حميد الابراهيمي نائب نقيب نقابة ذوي المهن الهندسية.
- السيد تحسين الساعدي عضو المجلس التنفيذي لـ (الممثلية الوطنية للعمال والمتعاقدين في العراق).

قدم للطاولة وأدار أعمالها ممثلا عن هيئة تحرير المجلة (الدكتور سوران قحطان). واننا إذ نشكر جميع المساهمين في اعمال الطاولة من السادة والسيدات المدعوين أو الحاضرين من رواد (جمعية المهندسين) ومقدرين تجشمهم عناء المشاركة وتفاعلهم المخلص مع فقراتها؛ الا إننا نعتذر عن نشر المداخلات المكررة او تلك المداخلات التي لم تتناول صلب موضوع الطاولة ومحاورها الرئيسية.

وتسهيلا للنقاش في الطاولة المستديرة فقد تم تعميم ورقة عمل ندرجها هنا تعميما للفائدة:

ورقة عمل مجلة (الثقافة الجديدة): أزمة الكهرباء... مرة أخرى الجذور، الواقع، الحلول، ورهانات الخصخصة.. مقاربات تخصصية

ان جاز لنا أن نتخذ مقدار ما يستهلكه شعب ما، من خدمات أساسية، مؤشرا على مدى الرفاهية التي يعيشها، وإذا اتفقنا على أن الطاقة الكهربائية تعد من الخدمات الاساسية إن لم تكن اكثرها ضرورية، فإننا نستطيع أن نؤشر به على مدى معاناة العراقيين وعلى تدني المستوى المعيشي للكثيرين منهم. وإذا جاز لنا أيضا أن نعتمد ما تؤمنه دولة ما من خدمات أساسية لمواطنيها، وفي مقدمتها الكهرباء بالتأكيد، معيارا نقيس به درجة تقدم هذه الدول اقتصاديا واجتماعيا وتحضر ومدنية شعبها، فإننا نستطيع أن نعرف من خلال ذلك لماذا يقع العراق في ذيل قائمة الدول من ناحية جودة مستوى الحياة، ولماذا تعد بغداد من اسوأ المدن للعيش. إن هذا التقييم لم يقدم من قبل منظمات دولية فحسب وإنما من قبل العراقيين أنفسهم. والكهرباء في النهاية ليست سلعة خدمية موجهة للاستهلاك المباشر فقط. فعلى الرغم من الاهمية الكبيرة لهذا الجانب فإنه لا يمثل الا جزءا من الأزمة، ذلك ان الكهرباء قطاع استراتيجي اساسي يرتبط بمجمل المنظومة الاجتماعية بقطاعاتها الاقتصادية والخدمية الاخرى وبرؤية الدولة ورهاناتها.

فمن المعروف أن العجز الحالي في الكهرباء هو عجز في تلبية حاجات الاستهلاك المباشر – الاستهلاك الأسري منه على وجه الخصوص –. وعند ادخال حاجات القطاعات المختلفة، الصناعية والزراعية وغيرها، الى الحسابات سوف يتضح لنا مقدار العجز الحقيقي في تجهيز الطاقة الكهربائية وآثاره المجتمعية.

إن محاولات فرض أي حلول فوقية لأزمة الكهرباء ستكون غير مجدية، إن لم تقترن بمعرفة متكاملة بأسباب الأزمة وجذورها. إن التمسك بمسلمات قديمة من جهة أو استيراد وصفات أخرى قد تكون أثبتت نجاحها في ظل وضع اجتماعي وتاريخي آخر، لن يؤدي إلى ضياع الوقت فقط وإنما إلى تعميق الأزمة.

إن الملاحظات السابقة، وغيرها الكثير طبعا، دفعتنا لعقد هذه الطاولة، هادفين بذلك اطلاق حوار علمي هادف وبناء. فمشكلة الكهرباء كثيرا ما تم تناولها بطريقة غير مقبولة خصوصا من قبل بعض السياسيين وبعض وسائل الإعلام، متخذين منها موضوعا

للمناكدة والتنافس، وتعاملوا معها بلغة الخطابات والتصريحات السياسية المجردة، لغة التهويل وانعدام المسؤولية، لغة الاستهزاء بالمواطنين واطلاق الوعود وحبال الاماني. أو بلغة التسقيط والشكوى بأسلوب التحريض والتأليب. كل هذا على حساب فهم صحيح للموضوع وبناء مقاربة صحيحة تخرج النقاش بشأن هذا الموضوع الحيوي من خانة التبرير الى فضاء آخر يمكّن من بلورة حلول سليمة وعملية لمشكلة مستعصية، أو هكذا تبدو.

وأخيرا، نود التأكيد على أن طاولتنا الحوارية هذه تنطلق من فرضية قوامها ضرورة التأكيد على دور المختصين لأخذ زمام المبادرة وليقوموا بطرح مقارباتهم التخصصية في سبيل فهم جذور أزمة الكهرباء في بلادنا وواقعها وطرح الحلول المناسبة لها على المديات المختلفة.

المحاور الرئيسية للطاولة

- **المحور الأول: مشاكل الكهرباء من التوليد.. الى النقل و التوزيع.. وحتى الاستهلاك.**
- **المحور الثاني: وزارة الكهرباء.. اسست سنة 2003 وشرع قانونها سنة 2017! ومدى مسؤوليتها في اعادة انتاج الازمة؟**
- **المحور الثالث: حلول للمشكلة أم هروب الى الامام.. الدولة أم الخصخصة؟ رهانات فنية ام صراع حول خيارات مجتمعية كبرى؟ وهل البداية خصخصة الجباية؟**
- **المحور الرابع: أزمة قطاع استراتيجي ام أزمة نظام؟**

في بداية اعمال الطاولة رحب الدكتور سوران قحطان بالحضور قائلا: نشكر السادة والسيدات الحضور على تلبيتهم دعوة مجلتنا (الثقافة الجديدة) للمساهمة في اعمال هذه الطاولة الحوارية التخصصية، ولنشدد هنا على كلمة تخصصية التي سنعود لها بعد قليل، حيث عوّدت مجلتنا قراءها وجمهورها على القيام بالعديد من النشاطات وفي مقدمتها عقد الطاولات الحوارية. وباسم هيئة تحرير المجلة اتقدم بالشكر الى وزارة الكهرباء الى تعاونها وتواصلها المستمر معنا لإنجاح هذه الطاولة، كما واعتذر عن اي سوء فهم غير مقصود حصل. مع الاسف لم نتمكن من توجيه دعوة لأعضاء مجلس النواب او اعضاء مجلس محافظة بغداد لحضور الطاولة.

وأكمل د. سوران حديثه: في طاولتنا الحوارية اليوم، نتصدى مرة أخرى بالنقاش لموضوعة أزمة الكهرباء في العراق، حيث انها ليست المرة الاولى التي نقوم بها بعقد طاولة حوارية عن مشكلة الكهرباء وأزمتها في العراق. إننا إذ نتصدى معا لمناقشة هذه المشكلة من جديد نهدف دائما الى المساهمة في الحوار العلمي التخصصي الهادف والبناء، منطلقين من مركزية الدور الذي يجب ان يلعبه المختصون ومن أهمية استلامهم زمام المبادرة وليقوموا بطرح مقارباتهم التخصصية في سبيل فهم جذور هذه الازمة في بلادنا وواقعها وطرح الحلول المناسبة لها على المديات المختلفة؛ فمشكلة الكهرباء وكما جاء في ورقة العمل الموزعة عليكم، كثيرا ما تم تناولها بطريقة غير مقبولة، خصوصا من قبل بعض السياسيين وبعض وسائل الإعلام، بلغة الخطابات والتصريحات، او لغة الوعود الخلابة. وبالتالي فإن هذا الصراخ والجعجعة تطغيان على الصوت الهادئ، صوت العقل والاختصاص.

إن ازمة الكهرباء ليست مشكلة عجز بتوفير سلعة خدمية موجهة للاستهلاك المباشر فقط. فعلى الرغم من الاهمية الكبيرة لهذا الجانب فإنه لا يمثل إلا جزءا من الأزمة، ذلك ان الكهرباء قطاع استراتيجي اساسي يرتبط بمجمل المنظومة الاجتماعية بقطاعاتها الاقتصادية والخدمية الاخرى وبرؤية الدولة ورهاناتها.

ونحن وإذ نناقش معا أسباب هذه الازمة وطرق معالجتها يجب ان لا يغيب عن بالنا السؤال الجوهري الآتي: هل أزمة الكهرباء هي أزمة فنية لقطاع استراتيجي أم أزمة نظام بأكمله؟

ودون ان ننسى الفرق في الظروف ودون ان نقوم بمقارنة بين وضعين مختلفين، لكن يجب ان لا يغيب عن بالنا ايضا بعد حرب الخليج الثانية (1991) تمكن عدد من الفنيين والخبراء في مجال الكهرباء بعضهم ما زال يعمل في الوزارة، من إعادة منظومة الكهرباء العراقية الى العمل، ولينجحوا بوقت قياسي وبما توفر لديهم من البدائل والمواد الاحتياطية بإعادة تأهيل أغلب المحطات الكهربائية.

سيداتي سادتي لنتفق على الآلية التالية، وهي ان يبدأ المدعوون للطاولة بتقديم مداخلاتهم، وبعد ذلك يمكن ان نفتح باب الاسئلة والحوار ان تبقى لنا وقت.

وبعد ان تم الاتفاق على ان يبدأ السادة ممثلو الوزارة بالحديث تم فتح باب المداخلات للسيدات والسادة الحضور وفق التسلسل الآتي:

الدكتور مصعب المدرس
مدير مكتب الإعلام والاتصال الحكومي والناطق الرسمي باسم وزارة الكهرباء

في البداية احب ان أشكر هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) لإتاحة الفرصة للقاء بهذا الجمع الرائع.

سيداتي سادتي هذا الموضوع مهم؛ فمشكلة بل ازمة الكهرباء هي ازمة لا تخص وزارة الكهرباء فقط، ولا تخص الحكومة، بل هي ازمة وطنية يجب ان يتكاتف الجميع لحلها. والمثل الذي ضربه د. سوران ان من اعاد الكهرباء الى الحياة سنة 1991 هم من منتسبي هيئة الكهرباء. والسبب كان هناك توجيهات من جهة واحدة، وكانت الامور تسير بمسار واحد وطريق مفتوح، بالرغم من فرض الحصار الاقتصادي. مع الوضع الحالي ووزارة الكهرباء حاليا فإن الوزارة عملت طيلة السنوات التي مضت بمفردها دون اسناد الوزارات الاخرى وكان لهذا الأمر تأثير سلبي على عمل وزارة الكهرباء.

منظومة الكهرباء الوطنية عام 2003 كان انتاجها لا يتعدى (3400) ميغاواط، أما حاليا فقد وصلت وزارة الكهرباء كطاقات تصميمية لمنظومة الكهرباء الوطنية حتى تجاوزنا (25000) ميغاواط، لكن المنتج الفعلي حاليا بالإضافة الى الطاقة المستوردة يصل الى (15700). وقد عملت الوزارة على بناء منظومة كهرباء متكاملة من الانتاج الى نقل الطاقة وصولا الى التوزيع. وتمكنت من اضافة (22) محطة توليدية مختلفة السعات بالإضافة الى (28) محطة 400kv و(72) محطة 132KV و (178) محطة 33/11. ناهيك عن اضافة ما يقارب 4500 كم من خطوط نقل الطاقة الكهربائية للضغط الفائق والضغط العالي بالإضافة الى استحداث المئات من المغذيات في العاصمة بغداد والمحافظات. في عام 2003 وكما قلت كان انتاج المنظومة الكهربائية هو (3400) ميغاواط. بينما الاحمال هي (6000) ميغاواط . وبعد 2003 عندما تمكنا من انتاج (6000) ميغاواط وصلت الاحمال الى (10000) ميغاواط تقريبا، وعندما وصلنا الى (10000) ميغاواط طاقة انتاجية، وصلت الاحمال الى (15000) ميغاواط. وعندما وصلنا الى (15000) ميغا واط تجاوزت الاحمال (22000) ميغاواط. هناك لدينا من كميات الانتاج التي وصلنا لها بحدود 60% ضائعات، نتيجة الهدر والاسراف والعشوائية في عملية الاستهلاك. ومن جهة أخرى واجهت الوزارة تحديات كثيرة وكبيرة مثل التحديات الامنية والتحديات المالية. ولا بد من الاشارة الى أن وزارة الكهرباء لم تعمل بمعزل عما مرّت به البلاد من احداث امنية. فعندما كان مسؤولو الوزارة يصرحون أن ازمة الكهرباء في البلاد ستنتهي عام 2014 كانوا يستندون على ارضية صلبة هي المشاريع الكبيرة للوزارة الكبيرة، لكن دخول (داعش) الى محافظات

نينوى وصلاح الدين والانبار وديالى أثّر على المنظومة الكهربائية بشكل كبير. فللوزارة محطات توليدية في هذه المحافظات الاربع كانت ستضيف الى منظومة الكهرباء بحدود (4000) ميغاواط وهي: محطة المنصورية في ديالى ومحطة بيجي الغازية الجديدة في صلاح الدين، ومحطة صلاح الدين الحرارية ومحطة الكَيارة في نينوى، بالإضافة الى محطة الانبار المركبة ومحطة عكاز في الانبار. هذا ما عدا المحطات التي كانت تعمل في هذه المحافظات، وتوقفت وكانت طاقتها تصل الى حدود (2000) ميغاواط. أي ان المنظومة فقدت بحدود (6000) ميغاواط بسبب الارهاب و(داعش). هذا بالإضافة الى ان منظومة الكهرباء تأثرت بالاستهداف المستمر لخطوط نقل الطاقة الكهربائية والذي كان استهدافا مركزا.

اما التحدي المالي، فالوزارة تعرّضت ايضا الى نكبات كثيرة نتيجة لعدم اطلاق مبالغ الموازنات المخصصة لها في الاعوام 2015 و2016 و2017. وجميع التخصيصات الاستثمارية للسنوات الثلاث التي مضت لم تتسلم منها الوزارة سوى نسبة 10 – 11%.

هذا اذا لم ننس تحديا آخر هو الاسراف والهدر في استهلاك الطاقة الكهربائية. وهذا نتيجة للبناء العشوائي وكذلك للتجاوزات على شبكات التوزيع وعلى خطوط نقل الطاقة الكهربائية وتبادل التغذية بين المناطق واستهلاك الطاقة الكهربائية بدون مقاييس. وهناك مع الاسف ثقافة سلبية هي ثقافة التجاوز على المقاييس. وقد قامت وزارة الكهرباء بإعداد دراسات واحصاءات اكدت ان المواطن العراقي يستهلك طاقة كهربائية اكثر من جميع مواطني دول الجوار، علما ان دول الجوار تنعم بطاقة كهربائية مستمرة ومستقرة. الوزارة وصلت الى قناعة انه يجب ان تلجأ الى القطاع الخاص من اجل حل ازمة الطاقة الكهربائية، من خلال عقود الخدمة والجباية والتي حققت فيها الوزارة قصص نجاح كبيرة في العاصمة بغداد والمحافظات، والوزارة ماضية في هذا التوجه من اجل حل ازمة الطاقة الكهربائية، علما ان التسعيرة هي تسعيرة مدعومة من قبل الدولة وتصل نسبة الدعم هذا الى 94%. وقد استندت الوزارة من خلال هذه العقود الى مواد في قانون موازنة 2016 و2017 والتي تجيز لوزارة الكهرباء ان تدخل بشراكات مع القطاع الخاص من اجل حل الازمة وزيادة قدرة المنظومة الكهربائية، سواء في مجال الانتاج او مجال التوزيع. والمواد 21 و22 من قانون الموازنة لعامي 2016 و 2017 اكدت على موضوع مهم وهو ضرورة ان تستحصل وزارة الكهرباء اجور استهلاك الطاقة الكهربائية مثلها مثل باقي الوزارات التي تقدم خدمات للمواطن. وفي حال عدم استحصال هذه المبالغ، فإن وزارة المالية ملزمة باستقطاع هذه المبالغ من موازنة الوزارة المعنية.

وفي ما يتعلق بموضوعة توزيع الكهرباء على المحافظات، فأود الاشارة هنا الى ان هذا يعتمد على الكثافة السكانية، لكن وزارة الكهرباء لا تحدد نسب التوزيع على المحافظات وانما من يقوم بذلك هو (الهيئة العليا للتنسيق بين المحافظات) وبحضور جميع السادة المحافظين ورؤساء مجالس المحافظات ورؤساء لجان الطاقة الذين يحددون النسب ويوقعون عليها ومن ثم يسلمونها الى وزارة الكهرباء.

اما بالنسبة لاستيراد الكهرباء من ايران، فنحن نستورد (1200) ميغاواط، وهذه تكلفنا سنويا بحدود المليار دولار.

وبخصوص المولدات الاهلية، فنحن طالما اكدنا في وسائل الاعلام، ان هناك من تنامت مصالحه طيلة سنوات الازمة، وهم حاليا يضعون العراقيل امام الحكومة وأمام الوزارة خصوصا مجابهتهم موضوع الاستثمار في مجال الجباية.

حتى الوحدات التوليدية التي استوردناه من (جنرال الكترك) و(سيمنز) في عقود عام 2008 والتي تعد من أول العقود المهمة التي ابرمتها وزارة الكهرباء، هذا الوحدات تعمل على اربعة اشكال من الوقود: الغاز، الكازاويل، النفط الخام، والنفط الاسود. لكن قدرات الوحدات الانتاجية تنخفض مع تغير نوعية الوقود، ونحن قبل ما نبرم العقد اخذنا رأي وزارة النفط التي اكدت ان حقول المنصورية وعكاز والرميلة ستكون جاهزة عام 2011، وعلى اساس ذلك تم ابرام العقد وبدأت هذه الوحدات بدخول العراق منذ نيسان 2010. ثم تم إعطاؤنا موعدا آخر في عام 2013 وموعد أخير عام 2018 وبتنا على يقين، الآن، ان هذه الحقول من الممكن ان تكون منتجة ومؤهلة عام 2021.

وخلال هذه الفترة تعاقدنا على استيراد الغاز من ايران بأنبوبين لتشغيل محطات القدس والصدر. ثم نتفاجأ بتصريح وزير النفط بأن هناك عقدا مع دولة الكويت لتصدير الغاز دون التفكير بسد الحاجة المحلية، علما ان (10%) من الطاقة التشغيلية تعمل بالغاز والباقي بالوقود البديل. واريد هنا ان اؤكد على المسألة المهمة التالية ونحن اتفقنا ان لا خطط حمراء : وزارة الكهرباء هي ضحية كل الوزارات الاخرى ابتداءً من وزارة النفط. نحن لا ننكر ان وزارة النفط تعرضت الى العديد من النكبات ومن اهمها خروج مصفى (بيجي) من الخدمة والذي كان يزود البلاد بـ (60%) من حاجاتها، والذي أثر بالتالي على عمل وزارة الكهرباء؛ فقامت وزارة النفط بمضاعفة كمية المستورد من الوقود لوزارة الكهرباء، غير أن هذا المستورد غالبا ما يعوقه عدم وجود السيولة المالية، وهذا يعود لوزارة المالية. طبعا لا ننسى وزارة التخطيط وضعف عمل دائرة التقييس والسيطرة النوعية ووزارة التجارة وانفتاح الحدود على مصراعيها ودخول اجهزة كهربائية من مناشئ غير رصينة؛ فبحدود 70% من الاجهزة الموجودة في الاسواق كانت ممنوعة قبل عام 2003. وهناك ايضا موضوع البناء العشوائي وتقسيم البيت الواحد الى عدة بيوت.

الاستثناءات 500 ميغاواط للمستشفيات، مشاريع مراكز تحلية المياه، وكذلك الصرف الصحي لكنها للاسف وصلت الى 1200 ميغاواط، غير أنه من الجيد اننا استطعنا التغلب والسيطرة عليها في الفترة الاخيرة.

طارق رحيم رومي

رئيس مهندسين - مكتب وكيل الوزارة لشؤون النقل والتوزيع

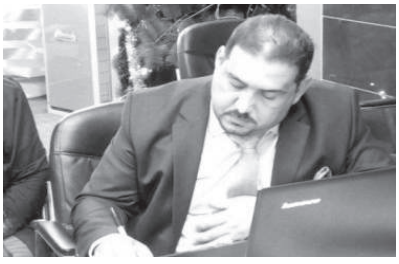

ان تدهور منظومة الكهرباء الوطنية العراقية بدأ بعد عام 1992 حيث قبل هذا التاريخ بلغت سعات المحطات التوليدية الى (8،000) ميكاواط في حين ان أعلى طلب خلال فترة حمل الذروة (حمل الذروة: هو

أعلى طلب على الكهرباء خلال اليوم ويكون غالبا بعد غروب الشمس) في أشهر الصيف بلغ (5000) ميغاواط، مما يؤشر وجود احتياطي في التوليد بمقدار (3000) ميكاواط.

خلال فترة حرب الخليج الثانية (حرب الكويت) تعرضت أغلب محطات التوليد وخطوط نقل الطاقة الى ضرر كبير بسبب قصف تلك المحطات واستطاعت كوادر تلك المحطات من اعادتها للعمل وبمساعدة كافة الوزارات والهيئات الاخرى.

ولكن بسبب فرض الحصار الاقتصادي على العراق واستمرار النمو في الطلب على الطاقة (نتيجة النمو السكاني) وعدم بناء مشاريع جديدة لمحطات الانتاج والنقل والتوزيع وتقادم المحطات العاملة بدأت منظومة الكهرباء الوطنية تتدهور مما أدى الى ظهور القطع المبرمج في القدرة على المواطنين واستمر هذا القطع المبرمج لغاية عام 2003.

بعد عام 2003 وحتى 2017

في عام 2006 بدأت التخصيصات الاستثمارية الفعلية الى وزارة الكهرباء؛ حيث بلغ مجموع تلك التخصيصات (لإنشاء مشاريع جديدة من محطات انتاج ونقل وتوزيع إضافة الى بناء خطوط نقل الطاقة وشبكات التوزيع)، (29) مليار دولار فقط، وعند إضافة مبلغ التخصيصات أو ما تسمى الموازنة التشغيلية والبالغة (28.5) تريليون دينار أو ما يعدل (24) مليار دولار، والتي تتمثل بـ(رواتب الموظفين، وقود محلي ومستورد، استيراد طاقة من دول الجوار: تركيا وإيران، إضافة الى مبالغ الصيانة والتأهيل لكافة القطاعات) فانه سيكون مجموع ما صرفته الوزارة من الموازنتين الاستثمارية والتشغيلية هو (53) مليار دولار، وليس كما يشاع دائما بأن الوزارة صرفت مبلغ (80) مليارا.

الانجازات

اولا: قطاع الانتاج

استطاعت وزارة الكهرباء خلال الفترة (2003 – 2017) من زيادة عدد محطات التوليد من (23) محطة الى (73) محطة توليد، وإضافة سعات توليدية تصميمية بلغت (15252) ميغاواط، عدا المشاريع المتوقفة البالغة (6292) ميغاواط، بسبب احداث 2014 (دخول داعش) منها محطات (بيجي الغازية الثانية 6 وحدات مضروبا بـ 169 = 1014، صلاح الدين الحرارية 4 مضروبا بـ 330 = 1320، دبس، المنصورية، الانبار المركبة... الخ)، وبذلك أصبحت السعات التوليدية التصميمية الحالية (المحطات القديمة والجديدة)، (29746) ميغاواط في حين أن التوليد المتاح حاليا (15834) ميغاواط. وقد حققت الوزارة في صيف 2017 أعلى توليد خلال حمل الذروة (15550) ميغاواط، وبذلك استطاعت وزارة الكهرباء زيادة التوليد من (5700) ميغاواط قبل 2003 الى (15550) ميكاواط في عام 2017.

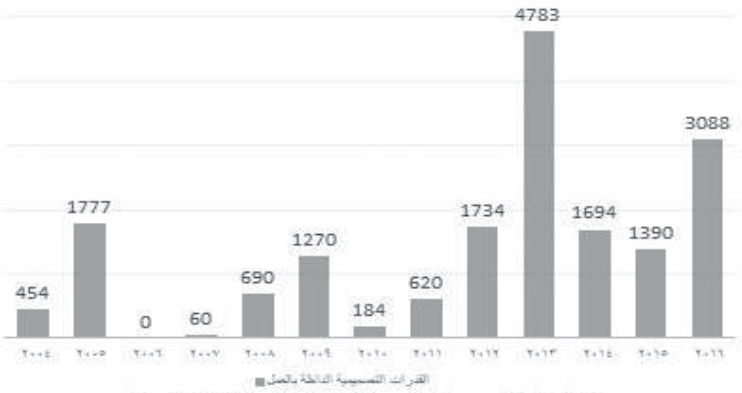

مجموع القدرات التصميمية المنصوبة (٢٠٠٤-٢٠١٦) ١٥٢٥٢ م.واط
مشاريع متلكئة لأسباب امنية او فسخ عقد ٣٣٣٠ م.واط

17

وهنا يتبادر الى الذهن السؤال الآتي: ما هو الفرق بين السعة التصميمية والسعات المتاحة؟ وسأوضح بالأرقام الفروقات وهي كالاتي:

1 – 3043 ميغاواط مفقود بسبب الوضع الامني (توقف المحطات العاملة في محافظات الموصل وصلاح الدين والانبار).

2 – 5445 ميغاواط مفقود بسبب تقادم المحطات العاملة (لا تستطيع الوصول الى السعة التصميمية بسبب المحددات).

3 – 1721 ميغاواط مفقود بسبب نوع الوقود من جهة (يستخدم النفط الاسود أو الوقود الثقيل بدل الغاز الطبيعي في المحطات الغازية مما يؤدي الى انخفاض التوليد بنسبة 15%) وشح الوقود المجهز من وزارة النفط (الغاز الطبيعي وزيت الغاز او ما يسمى الكازاويل).

4 – 3703 مفقود بسبب محددات الحرارة العالية وانخفاض تصريف المحطات الكهرومائية. ينخفض توليد المحطات التوليد الغازية بنسبة 20% في الصيف، بسبب ارتفاع الحرارة داخل التوربين وعلى سبيل المثال الوحدة نوع frame 9 السعة التصميمية لها 125، ولكن في حالة تشغيلها على النفط الاسود والحرارة 50 درجة مئوية، سينخفض توليدها الى (80) ميغاواط.

وبذلك يكون مجموع المفقودات في محطات التوليد (13912) ميغاواط والتوليد المتاح (15834) ميغاواط.

ثانيا: قطاع النقل

1 – محطات تحويل الضغط الفائق 400 كيلو فولت:- استطاعت وزارة

الكهرباء من بناء محطات تحويل الضغط الفائق (400/132) كيلوفولت بعدد (16) محطة تحويل، مع توسيع محطات التحويل العاملة بعدد (8) محطات من خلال توسيع الشبكة، وإضافة المحولات الذاتية مع وجود (3) محطات حاليا قيد التنفيذ.

2 – محطات تحويل الضغط العالي 132 كيلو فولت:- استطاعت وزارة الكهرباء بناء محطات تحويل الضغط العالي (132/33/11) كيلو فولت، بعدد (63) محطة، مع وجود (33) محطة قيد التنفيذ.

3 – إضافة خطوط الضغط الفائق والعالي بطول (2450) كيلومترا، مع (426) كيلومترا حاليا قيد التنفيذ.

4 – إضافة قابلوات الضغط العالي 132 كيلو فولت بطول (250) كيلومترا.

ثالثا: قطاع التوزيع

استطاعت الوزارة انشاء محطات التحويل (33/11) كيلو فولت في شبكة التوزيع بعدد (255) محطة تحويل، مع وجود محطات بعدد (215) محطة، قيد التنفيذ، مع تنفيذ العديد من شبكات التوزيع (11/0.4) كيلوفولت في كافة المناطق والالاف من مغذيات التوزيع (33) و(11) كيلو فولت الخارجة من محطات التحويل الجديدة والقديمة.

نمو الطلب على الطاقة

لقد ارتفع الطلب على الطاقة خلال حمل الذروة الصيفي من (6781) ميغاواط في 2003 الى (25581) ميغاواط في عام 2017 والأسباب الآتية أدت الى ارتفاع الطلب على الطاقة وكما مبين في المخطط رقم (1) المرفق أدناه:

1 – النمو السكاني (ارتفاع نفوس العراق من (26) مليون نسمة في عام 2003 الى (38) مليون نسمة) بمعدل 850 الف نسمة سنويا.

2 – زيادة عدد المشتركين الرسميين من (2،6) مليون مشترك (بدون متجاوزين) قبل 2003 الى (4) مليون مشترك (من ضمنها 400 ألف مشرك غير رسمي مثل العشوائيات والمتجاوزين على الاراضي الزراعية والانشطارات بالدور القديمة، واكثر من 400 الف متجاوز غير مسجلين كمشتركين رسميين).

3 – تحسن الحالة الاقتصادية (مع زيادة في دخل الفرد السنوي وزيادة في الرواتب).

4 – تطور واستخدام اجهزة التبريد من مبردات بسيطة الى مكيفات متعددة الانواع ومن مناشئ رديئة بدون الخضوع الى معايير جهاز التقييس والسيطرة النوعية وبدون ملصق طاقة.

5 – دخول كميات هائلة من الاجهزة الكهربائية المستهلكة للطاقة (ثلاجات، تلفزيونات، هيترات، سخانات كهربائية، أجهزة التدفئة، أجهزة حاسوب، أجهزة ستلايت، أجهزة الهاتف المحمول... الخ)، ولم تكن مستخدمة بصورة واسعة قبل 2003.

6 – الانشطارت داخل المناطق مع تهديم الدور القديمة وانشاء عدد من المنازل داخل نفس الارض مع بناء الاراضي الزراعية ودون الاخذ بنظر الاعتبار التصميم الاساسي للمدن مما ولد ضغطا هائلا على كافة البنى التحتية وليس الكهرباء فقط.

مخطط رقم (1)

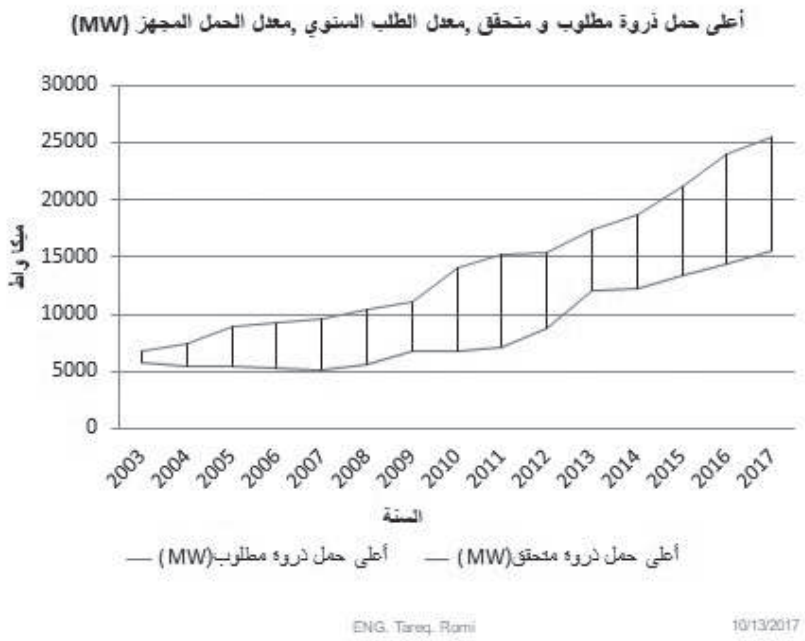

الأسباب الاساسية لعدم تحقيق الخطة الاستراتيجية للوزارة لعام 2014

• عدم اقرار موازنة عام 2014 مع قلة تخصيصات الموازنة للأعوام (2015، 2016، 2017) حيث لم يتجاوز مصروف الموازنة الاستثمارية (4،8) تريليون دينار، ومصروف الموازنة التشغيلية (8،04) تريليون دينار. بينما كان المطلوب (29،1) و(34،4) تريليون دينار على التوالي للسنوات الاربعة، ما أثر بشكل واضح على خطة الوزارة في تنفيذ مشاريع الانتاج والنقل والتوزيع، وبرامج التأهيل والصيانة لقطاعات الانتاج والنقل والتوزيع، وبالتالي توقف مشاريع (إكمال محطات التوليد الجديدة، محطات وخطوط النقل وشبكات التوزيع، أنظمة تبريد الوحدات الغازية، الدورات المركبة، الطاقة النظيفة).

• عدم مواكبة برامج استثمار الغاز المصاحب واستخراج الغاز الحر من قبل وزارة النفط مع برامج إنتاج الطاقة الكهربائية، الامر الذي يؤدي الى تقليل كلف الصيانة وخروج الوحدات عن العمل والجدوى الاقتصادية من التشغيل على الغاز.

• الاعمال الارهابية من قبل (داعش) والتي تسببت في توقف العمل في مشاريع محطات الإنتاج والنقل والتوزيع مع تدمير كامل لمحطات التوليد في بيجي وفقدت المنظومة بحدود (3000) ميغاواط، وضرر بالغ في محطات

وخطوط وشبكات النقل والتوزيع في أربع محافظات.

• في عام 2016 و2017 تم صرف الموازنة الاستثمارية للمحلي فقط الذي يتضمن (رواتب العقود الاستثمارية والعاملين في محطات الانتاج العاملة والمشاريع الجديدة).

• بالرغم من عدم صرف التخصيصات الاستثمارية للاعوام 2016 و2017 استطاعت الوزارة إضافة (6172) ميغاواط بجهود ذاتية، خلال هذه الاعوام من قبل الوزارة من خلال اكمال وربط مشاريع المحطات التوليدية الجديدة (الزبيدية الحرارية، الديوانية الغازية، الحيدرية الغازية /2، شط البصرة الغازية، نجيبية الغازية، عمارة الغازية، الصدر الغازية الثانية).

• تم اللجوء الى القروض لغرض اكمال وتنفيذ جزء من خطة الوزارة والتي أخذت وقتا طويلا لحين ادراجها وإقرارها في قوانين الموازنة، مع تأخير اصدار بعض الكفالات السيادية للمشاريع لغاية الآن، وعدم تفعيل القروض بشكل كامل لحد الآن.

مخطط رقم (2)

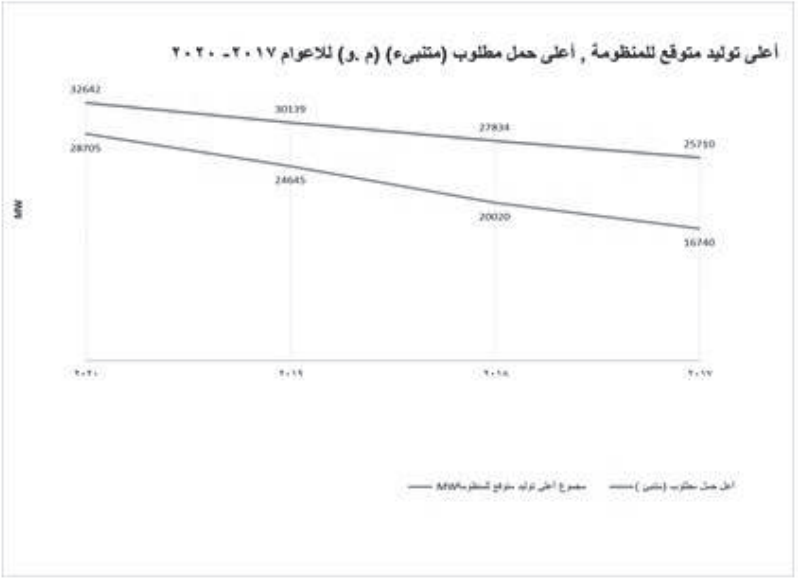

ENG. Tareq. Romi 10/13/2017

والآن لنقدم اجابات على الكثير من الاسئلة التي توجه الى وزارة الكهرباء:

أولا: لماذا تم اللجوء الى الاستثمار في قطاع الانتاج؟

1 – الزيادة الكبيرة في الطلب على الكهرباء حيث من المتوقع وصول الطلب الى (32000) ميغاواط في صيف عام 2020 مع وجود عجز في التوليد بمقدار (3927) ميغاواط وكما مبين في المخطط رقم (2) المذكور سابقا.

2 – عدم توفير التخصيصات اللازمة لإنشاء وإكمال مشاريع الوزارة في قطاع الانتاج.

3 – تشجيع القطاع الخاص ومشاركته في إنتاج الطاقة، تمهيدا لإنشاء شركات كهرباء مساهمة او مختلطة.

ثانيا: لماذا تم التوجه الى الاستثمار أو مشاركة القطاع الخاص في عقود الخدمة والجباية في قطاع التوزيع؟

1 – الهدر في مبالغ الجباية التي يفترض ان تقوم الوزارة بجبايتها حيث وصلت تلك النسبة الى (67%) من مبالغ الطاقة المستهلكة، وان الوزارة لا تحصل إلا على نسبة جباية (26%) من الطاقة المنتجة لعام 2015 وتطورت هذه الارقام ليصبح الهدر (84%) ونسبة الجباية (13%) في عام 2016. وكما مبين في المخطط رقم (3) أدناه، وهي مؤشرات سلبية جدا على إمكانية الوزارة للسيطرة على شبكات التوزيع، والحد من التجاوزات وجباية قوائم الكهرباء وعدم تقديم خدمة مُرضية للمواطن.

2 – الاستثمار يعتمد على أسلوب مشاركة القطاع الخاص في إدارة خدمة الجباية والصيانة وتكون على القطاع الخاص واجبات أساسية تصب في حماية حقوق المستهلك وحسب التسعيرة الحكومية مع وضع معايير مشددة على طبيعة الخدمة المقدمة واستلام شكاوى المواطنين ومعالجتها بسرعة.

3 – ترشيد للاستهلاك غير النظامي والعشوائي.

4 – جباية اجور الطاقة لغرض ادامة محطات الانتاج وشبكات النقل والتوزيع وتسديد أجور ورواتب الموظفين خاصة في ظل الازمة المالية التي يمر بها البلد.

5 – الحد من التجاوز المستمر على شبكات التوزيع والذي يؤثر بشكل سلبي على المعدات كافة وخاصة المحوّلات، اضافة الى عدم استقرار واستدامة خدمة تجهيز الكهرباء للمواطنين.

مخطط رقم 3

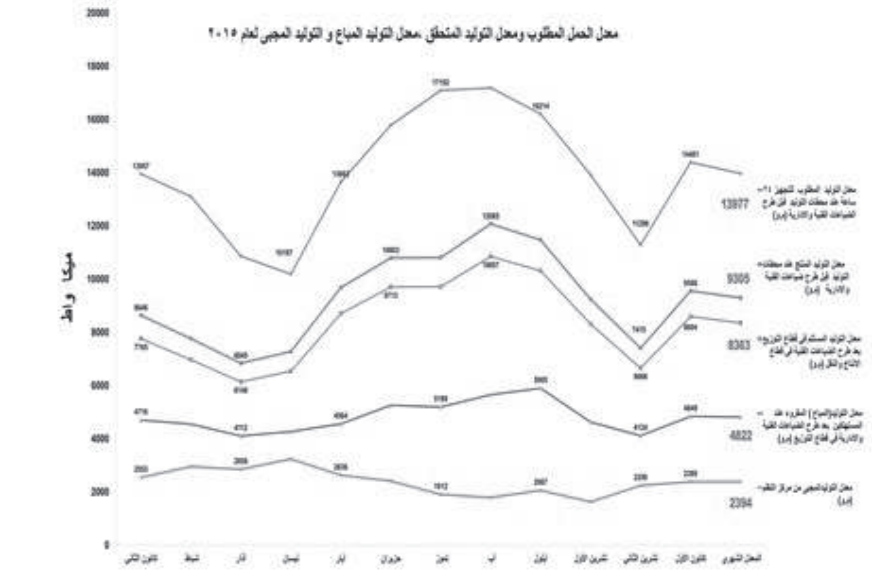

52 ENG. T. R 10/13/2017

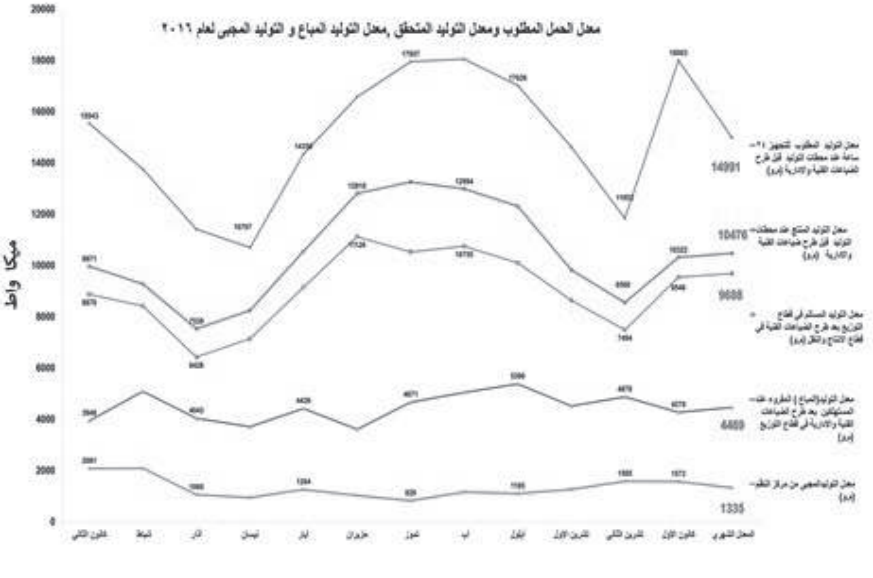

53 ENG. T. R 10/13/2017

ثالثا: ما هي نتائج مشاركة القطاع الخاص في إدارة الخدمة والجباية لحد الآن؟

1. حقق تخفيضا ملحوظا في استهلاك الطاقة، وصل الى (30%) في المناطق المشمولة بهذا المشروع، جراء ترشيد الاستهلاك والحد من الاسراف، مما سيؤدي الى انخفاض نسبة النمو في الطلب على الطاقة من (12%) في عام 2016 الى (8%) في عام 2017 وصولا الى نسب متدنية في الاعوام اللاحقة، وبعد تطبيق التجربة في كافة أنحاء العراق.
2. زيادة واردات الجباية الى عشرة أضعاف تقريبا، وكما مبين في المخطط رقم (4) في أدناه، لتجربة مناطق زيونة واليرموك والحارثية.
3. الحد من التجاوز على الشبكة (الجطلات) وإدخال جميع المستهلكين ضمن الشبكة النظامية بما يسهم في استقرار التجهيز وعدالة التوزيع.
4. تجهيز المواطنين بالكهرباء بمعدل (24) ساعة يوميا، بعد تصفير الضائعات غير الفنية (الادارية) في المنطقة الخاضعة للاستثمار، مما يساهم في استقرار تجهيز الطاقة وضمان عدم تبادل التغذية بين المناطق (الجطلات).
5. التخلص ورفع المولدات الاهلية في المناطق المشمولة بهذه الخدمة، مما ساهم في انهاء وتقليل ما يدفعه المواطن الى أصحاب تلك المولدات والتي كانت تدفع كمبالغ او اشتراكات مقطوعة حتى عند عدم استخدام الكهرباء، في حين ان هذه التجربة سيدفع المواطن اجور الكهرباء التي يستخدمها فقط وحسب العداد.
6 – تقليل التلوث والضوضاء الناتج

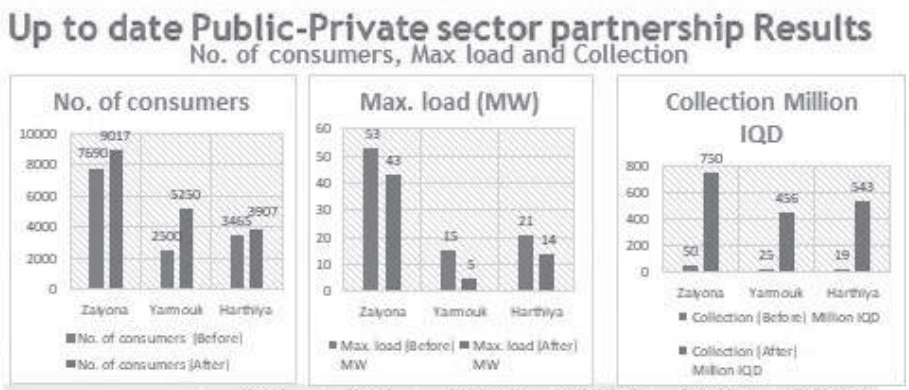

	No. of consumers (Before)	No. of consumers (After)	Max. load (Before) MW	Max. load (After) MW	Collection (Before) Million IQD	Collection (After) Million IQD
Zaiyona (average for one cycle)	7690	9017	53	43	50	750
Yarmouk (one collection cycle)	2500	5250	15	5	25	456
Harthiya (one collection cycle)	3465	3907	21	14	19	543

ENG. TAREQ RAHEEEM ROMI

من عمل المولدات الأهلية بعد رفعها من المناطق.

7 – سيتم نصب العدادات الذكية والرقمية والتي لا يمكن التلاعب بها مستقبلا.

8 – توفير فرص عمل للشباب، للعمل في القطاع الخاص، ومن خلال تلك الشركات.

رابعا: ما هي أسباب عدم استقرار ساعات تجهيز المواطنين بالطاقة الكهربائية؟

1 – عدم استقرار توليد المحطات العاملة بسبب تذبذب كميات الوقود المجهزة للمحطات وخاصة الغاز الجاف وزيت الغاز، كما ذكرنا سابقا.

2 – تعرض خطوط نقل الطاقة الكهربائية الى العمليات الارهابية بشكل متكرر وغير معقول.

3 – التجاوزات على الشبكة الكهربائية والإيصالات غير النظامية وتبادل التجهيز بين المناطق والمنازل (الجطلات) مما يتسبب في انفصال مغذيات التوزيع (11) كيلوفولت، بمناولة فوق التيار، هذا إضافة الى عطب كثير من المحولات لأنه سيتم تحميل المحولة بأكثر من طاقتها التصميمية.

4 – عدم التزام المحافظات بالحصص المقررة لها من الطاقة وفق النسبة المحددة.

5 – الفرق بين التوليد والطلب على الطاقة وخاصة في الأيام الحارة خلال فصل الصيف.

وأخيرا، يجب ان نشكر جهود العاملين في قطاع الكهرباء كافة، وخاصة العاملين في محطات الانتاج وصيانة خطوط نقل وتوزيع الطاقة، الذين يبذلون قصارى جهدهم في توفير الخدمة للمواطنين، وعلى مدار 24 ساعة يوميا. وأدعو كافة المواطنين الى التشجيع على عقود الخدمة والجباية وترشيد استهلاك الطاقة.

الخبير الاقتصادي إبراهيم المشهداني

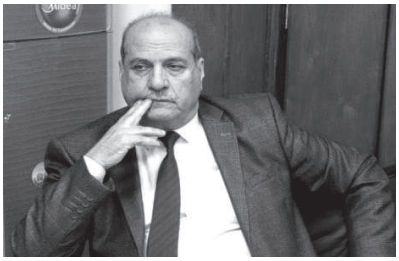

اتقدم بالشكر الى مجلة (الثقافة الجديدة) لدعوتها لنا وللمختصين للمشاركة في اعمال هذه الطاولة المهمة. كما اشكر ممثلي وزارة الكهرباء، وأتمنى منهم ومن الوزارة ان لا تتحدث فقط بلغة الارقام؛ فالمواطن البسيط لا يفهم هذه اللغة.

انطلاقا من البديهية التي عقدت وفقها الطاولة، وهي ان قطاع الكهرباء في العراق يمر بحالة ازمة وهنا أتساءل: هل ستحل كل مشاكل هذا القطاع الاستراتيجي المهم للمواطن بواسطة الخصخصة. الاساتذة الاجلاء ممثلو وزارة الكهرباء قالوا لا توجد خصخصة؟ لكن المادة (8) من قانون وزارة الكهرباء تشير بهذا الشكل او ذاك الى خلاف ذلك.

وكما يعرف الجميع فإن الكهرباء كانت في بدايتها قطاعا خاصا. واستمر الأمر الى بداية 1955 حيث اممت الشركة وذلك

عندما بدأ مجلس الاعمار يدير اقتصاد العراق. ومنذ ذلك التاريخ تقود الدولة قطاع الكهرباء.

وقطاع الكهرباء هو القطاع الاستراتيجي الثاني بعد قطاع النفط؛ اذ تتوقف عليه الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

والحقيقة ان وزارة الكهرباء ليست وحدها المسؤولة عن فشل دام اربعة عشر عاما؛ حيث استمرت الازمة وانما تتحمل المسؤولية أيضا كل من الحكومة ولجنة الطاقة في مجلس النواب، وكافة الجهات الرقابية التي لم تراقب كيفية انفاق (29) مليار دولار منذ عام 2003 الذي لو استثمر بشكل عقلاني وعلمي لكان حجم انتاج الطاقة الكهربائية اكثر من 25 الف ميغاواط، حسبما خطط له في الخطة الخمسية للأعوام 2013 – 2017، وبما يزيد حقا على حاجة الطلب الكلي.

فهل الخصخصة التي يطنب بها اعلام الوزارة صباح مساء هي الحل (علما ان المقصود بالخصخصة من وجهة النظر الاقتصادية وفق مفهوم اقتصاد السوق تحويل الملكية من القطاع الحكومي الى القطاع الخاص، عن طريق منظومات اقتصادية مساهمة او منظومات خاصة) ام عبر اشكال اخرى من الملكية، ومنها المشاركة مع القطاع الخاص في القطاع المناسب في الانتاج أو التوزيع، انطلاقا من البرنامج الاقتصادي الراهن للحكومة والذي كان القصد من الشراكة ان يسهم الشريك بنصيبه من رأس المال بعد تقييم المجال الذي سيشارك فيه، لمعالجة تداعيات الازمة المالية بعد حزيران من عام 2014؟ ربما تحتاج الاجابة على هذا السؤال قراءة متأنية لتطور انتاج الطاقة الكهربائية خلال المراحل الآتية:

– خلال الاعوام 1952 – 1955 وصل انتاج الكهرباء الى 41 ميغاواط.

– في عام 1955 تم تأميم شركة التنوير والقوة الكهربائية المحدودة لمدينة بغداد، وسميت محطة كهرباء بغداد، حيث ارتبطت بوزارة المواصلات والأشغال. وبالرغم من عدم توفير وثيقة جازمة عن اسباب التأميم لكن الاحتمال الاكثر هو ان الشركة، وهي قطاع خاص، لم تكن لديها القدرة المالية على توسيع انتاجها، نتيجة التوسع العمراني، وتزايد الطلب على الكهرباء في ذلك الوقت.

– في عام 1958 تم تأسيس (مصلحة الكهرباء الوطنية) والتي تولت امتلاك وتشغيل كل من محطات توليد الدبس وجنوب بغداد وخطوط النقل والمحطات الفرعية لها المشيدة من قبل مجلس الاعمار.

– في عام 1964 تم دمج (مصلحة كهرباء بغداد) مع (مصلحة الكهرباء الوطنية) وابدالها بمديرية كهرباء منطقة بغداد، على غرار المديريات الثلاث، التي كانت ضمن تشكيلات الكهرباء كافة.

– في عام 1987 الغيت (المؤسسة العامة للكهرباء) الى المنشاة العامة لتوزيع كهرباء بغداد، كدائرة من دوائر وزارة الصناعة والمعادن.

– وفي عام 1999 استحدثت (هيئة الكهرباء الوطنية). تشير الاحصائيات الى ان حجم الانتاج في عام 1990 وفق القدرة الانتاجية (12) ألف ميغاواط، في حين كان معدل الاستهلاك (5800) ميغاواط مع حمل ذروة 7500 ميغاواط، مما يعني أن الفائض بلغ

عندها (6200) ميغاواط. في عام 1991 بلغ الانتاج (9500) ميغاواط. اما في عام 1994 فبلغ معدل توليد الطاقة الكهربائية (3409) ميغاواط مقابل حجم طلب مقداره (4653) ميغاواط بنسبة عجز مقدارها 27 بالمائة. ويعود هذا الانخفاض في فترة التسعينات، أي الى نشوب الحرب والحصار الاقتصادي الذي وجد تعبيره في تقادم مكائن التوليد وعدم امكانية استيراد الادوات الاحتياطية لإجراء عمليات الصيانة أو امكانية ابرام عقود جديدة لإنشاء محطات توليد لتجاوز الازمة. واستمر هذا التدهور لحين سقوط النظام والانتقال الى مرحلة جديدة. من ذلك نستنتج ان انتاج الكهرباء بإدارة القطاع الحكومي كان ناجحا وفائضا وكان يصدر الفائض من خلال شبكة الربط العربي، لولا دخول العراق في حرب لا معنى لها، قادت الى تدهور عام في معظم القطاعات وبضمنها قطاع الكهرباء.

– أما في عام 2003 فكان معدل انتاج الطاقة الكهربائية (2500) ميغاواط.

– وفي عام 2004 بلغ معدل توليد الطاقة الكهربائية (3828) ميغاواط ارتفع في عام 2008 الى (4523) ميغاواط، اي بنسبة تطور 63 بالمائة في حين ارتفع حجم الطلب من (5442) ميغاواط الى (10000) ميغاواط في عام 2008 مما تحقق نسبة عجز مقدارها 38 بالمائة. وتعزو الوزارة اسباب ذلك الى اعمال التخريب وتدهور الوضع الامني وانعكاسه على نشاط العاملين، هذا بالإضافة الى عدم وصول المشتقات النفطية التي تدخل في تشغيل الوحدات التوليدية في معظم المشاريع وصعوبة الحصول على الادوات الاحتياطية التي تتطلبها اعمال الصيانة وتقادم المحطات وشح المياه خاصة للمحطات الكهرومائية، مما ترتب عليه انخفاض الانتاج مقارنة بعام 2007 بنسبة تراوحت بين 24 بالمائة و59 بالمائة، المتحقق خلال النصف الاول من عام 2008.

– كان الانتاج في عام 2010 يتراوح بين (5000) و(6000) ميغاواط وان (1000) ميغاواط مستورد من دول الجوار، فيما كان الطلب الكلي في هذا العام (12000) ميغاواط، وجزء من الانتاج يقدر بـ(1500) ميغاواط، مخصص للمناطق المستثناة. وتشمل (المنطقة الخضراء) والمستشفيات ومحطات تصفية مياه الشرب الصافي، وبعض المرافق الاخرى.

وعلى الرغم من المبالغ المخصصة للوزارة عبر الموازنات السنوية منذ عام 2003 ولغاية 2010، والتي بلغت 12 تريليونا و389 مليون دينار (اي ما يعدل 8 مليارات ومائتين وتسعة وخمسين مليون دولار، وهذا المبلغ يكفي لإنتاج 10314 ميغاواط) فان العجز في الانتاج بلغ اكثر من (4000) ميغاواط، هذا دون ان ندخل النفقات التشغيلية في الحساب والتي كان مقدارها لنفس الفترة اكثر من 9 تريليون دينار.

– في عام 2011 كان حجم الانتاج (7000) ميغاواط، فيما كانت الحاجة في ذلك العام (14000) ميغاواط (حسب تقدير لجنة الطاقة النيابية بتاريخ 25 /7 /2011).

– أما في عام 2016 فقد كان حجم الانتاج (12500) ميغاواط.

– وحسب تصريح الناطق الاعلامي لوزارة الكهرباء فان الانتاج في تموز عام 2017 بلغ ما يقارب (15000) ميغاواط. علما انه وبحسب ما جاء في الخطة الخمسية للأعوام 2013 —2017 فان انتاج الطاقة الكهربائية في عام 2017 قدر له ان يبلغ (25000) ميغاواط، الأمر الذي يشير الى عجز مقداره (10000) ميغاواط عن القدرة التخمينية.

مما تقدم يتضح ان المشكلة في تدهور انتاج الكهرباء بعد عام 2003 لا علاقة لها بالقطاع العام، كقطاع هام واستراتيجي في الاقتصاد، وانما المشكلة تكمن في ادارة هذا القطاع التي كانت تضم عناصر خرجت من معطف المحاصصة، انتشرت فيها كل امراض الفساد وقلة الكفاءة والاخلاص، وذلك في بيئة تشتد فيها التجاذبات السياسية والهيمنة على ادارة المشاريع واخذ حصتها من الكعكة!

ان الخطة التي وضعتها وزارة الكهرباء في تشرين الثاني من عام 2006 لمدة عشر سنوات توسعت في ما بعد الى عام 2030 وفي ضوئها ابرمت العقود لإنشاء محطات انتاج بسعة كلية قدرها (16000) ميغاواط، وحظيت بموافقة مجلس الوزراء، فضلا عن هيئته الاستشارية، كانت تحمل فشلها بنفسها حين ركزت على محطات توليد غازية تعمل بالدورة البسيطة يمكن ان تتحول لاحقا الى العمل بالدورة المركبة، مع ادراكهم عدم توفر الغاز الذي يكفي لتحريك عجلة هذه المحطات، ويحملون وزارة النفط مغبة عدم توفير الوقود مما اضطرت الوزارة الى استيراده من ايران، بالإضافة الى زعمها انخفاض مناسيب المياه مما يعرقل عمل هذه المحطات، وكأن مشكلة قلة المياه كانت عصية على الحل.

ان العقود التي ابرمتها الوزارة منذ عام 2004 شابها الفساد واكثرها ضررا بالمال العام (عقود جي اي وسيمنس) التي وافقت عليها الحكومة، ورفضها البرلمان لأنها اقتصرت على المولدات دون بناء القاعدة التحتية، والتي بلغت تكاليفها سبعة مليارات دولار، على ان تقوم بإنتاج (8800) ميغاواط (المصدر: وكالة براثا للإنباء نقلا عن تصريح وزير الكهرباء الاسبق كريم وحيد، وهو في الامارات في حينه). وهذه المولدات ملقاة في العراء وعرضة للتلف بسبب العوامل المناخية. وللعلم فان هذه العقود دفعت قيمتها من قبل الحكومة وتم رفضها من قبل البرلمان. والاغرب من ذلك قيام نفس الشركات ببناء القاعدة التحتية لمكائن التوليد ذاتها، ألا تستحق هذه العقود التدقيق والمساءلة؟

لقد فشلت الوزارة في جباية اجور الكهرباء لعدم وجود خطة واضحة معززة بآليات فعالة وتحصيل ديونها من وزارات الدولة، وكافة القطاعات المستهلكة لخدماتها (الصناعية والتجارية الزراعية والسكنية)، والتي تقدر بمئات المليارات من الدنانير. هذا اضافة الى رفع التجاوزات الناشئة عن عشرات الاحياء العشوائية التي توسعت دون ضوابط والتي كان ينظر اليها كأصوات انتخابية بغض النظر عن الاضرار الناجمة عنها. فكيف لا تستطيع الوزارة استيفاء الاجور كما كانت تفعل منذ عشرات السنين؟

وهل من الصحيح اسناد هذه المهمة الى مقاولين اطلقت عليهم صفة الخصخصة، في حين كان بإمكان الوزارة حل مشكلة الجباية من خلال اكداس الموظفين الذين يزيد عددهم على (100000) شخص، بضمنهم الموظفون بعقود خارج الملاك، تبلغ اعدادهم أكثر من (30000) موظف؟ علما ان الوزارة سبق لها ان مارست هذه التجربة بمنح قراء المقاييس الذين يتولون الجباية 6 بالألف من المبالغ التي يجبونها.

ومن جهة أخرى فقد كان للبرلمان دور ضعيف في مراقبة تنفيذ خطط وزارة الكهرباء، كجزء من واجباته الرئيسية ومراقبة ادائها الاداري، وملاحقة الفساد الذي شاب عقود الوزارة. وبدلا من ذلك اتخذ قراره رقم (199) في 30 ايلول 2012 بخصخصة الكهرباء بسبب فشل المساعي الحكومية التي انفقت 29 مليار دولار لتحسين هذا القطاع، دون محاسبة الادارة الفاشلة ومعالجة ظاهرة الفساد وهدر المال العام في الوزارة.

اما عن دور القطاع الخاص فان هذا القطاع قد دخل في عملية الانتاج والتوزيع على المواطنين منذ عام 2003 وقد ساهم في حل جزء من المشكلة، بالرغم من التكاليف الباهظة التي يتحملها المواطنون، نتيجة ارتفاع اسعار الكهرباء. وكان الطموح معلقا على وزارة الكهرباء. لكنني ارى ان عملية الخصخصة والتكيف الهيكلي التي تحدث عنها القانون بالمادة (8) ليست سوى هروب الى الامام وتبرير للفشل الاداري والفساد والهدر المالي الذي صاحب عمل الوزارة منذ وجودها عام 2003 دون معاقبة الفاسدين الذين ألحقوا الضرر بالمال العام والتنمية الاقتصادية في البلاد.

واخيرا، في حديث السادة الافاضل ممثلي وزارة الكهرباء حملوا وزارة النفط بعضا من مسؤولية عرقلة انتاج الطاقة الكهربائية فأنا ايضا، ومن معلوماتي، احمل وزارة الكهرباء جزءا كبيرا من المسؤولية، لأنها هي اصلا مدينة الى وزارة النفط؛ ففي عام 2007 كانت وزارة الكهرباء مدينة لوزارة النفط بـ (101) مليار دينار، ولا اعرف مقدار الدين حاليا.

هنا اجاب الدكتور مصعب المدرس، مشيرا الى ان مقدار الدين لوزارة النفط حاليا كبير وهو بحدود (6.25) مليار دولار.

الخبير الاقتصادي الاستاذ باسم جميل انطون

شكرا جزيلا على هذه الدعوة، وانا كاقتصادي سوف اتناول الموضوع من جانب آخر فالإخوان قدموا معلومات عن الجانب الفني. لا شك ان الطاقة الكهربائية تعتبر العمود الفقري للنشاطات الاقتصادية الانتاجية (زراعة.. صناعة.. سياحة.. وخدمات اخرى) وتعطل تجهيز الطاقة الكهربائية

معناه اصابة هذه القطاعات بالشلل، والتالي يولد مشاكل اخرى منها نسب البطالة والفقر في المجتمع وحتى الارهاب، لان الاخير ينمو في مستنقعات الفقر والبطالة. لذا فإن قطاع الكهرباء يجب النظر الى اهميته من الناحية الاقتصادية؛ فالقطاع الكهربائي ليس إنارة بيت المواطن، بل ان مشاكل ونكبات كل القطاعات الانتاجية كانت ازمة الكهرباء تعتبر سببا معطلا. وأحد اسباب عجزنا في القطاع الانتاجي يكمن في ان كلف توليد الطاقة في العراق عالية جدا. هذا اضافة الى تعطيل تنفيذ بعض القوانين الحمائية والكمركية وملفات الفساد التي نالت من قطاع الكهرباء بشكل واسع. واعتقد ان هناك الكثير من المافيات في اجهزة الدولة تعمل على تعطيل بل على شلل هذا القطاع، وهذه مؤامرة سياسية اقتصادية على العراق، واصبح بعض السياسيين ينظرون للعراق وقطاعه الانتاجي بعيون دول الجوار؛ حيث انتعشت القطاعات الانتاجية في هذه الدول على حساب القطاع الانتاجي العراقي. ان الولاء للبلد ولقطاعه الانتاجي مسألة جدا مهمة. بينما الآن فإن المواد الغذائية والالبسة للعراقيين كلها مستوردة.

وللمقارنة، فان حصة الفرد السعودي من الطاقة الكهربائية تبلغ ثمانية اضعاف حصة الفرد العراقي، وهكذا في باقي دول الجوار.

واذا تابعنا ملف الكهرباء منذ سقوط النظام السابق ولغاية اليوم، نجد ان هذا الملف قد استنزف مبالغ كبيرة تتجاوز (53) مليار دولار، سواء للميزانية التشغيلية او الاستثمارية، لكن الحصيلة اننا لم نتجاوز لحد الآن انتاج (15000) ميغاواط، منها (1300) ميغاواط استيراد من ايران، و(3500) ميغاواط كانت قائمة قبل السقوط. والمفروض الآن وامام هذا المبلغ الهائل ان لا يقل انتاجنا من الطاقة الكهربائية عن (25000) ميغاواط.

من المعروف ان انتاج كل (1000) ميغاواط من الكهرباء يحتاج الى (3000) شغيل، في حين اننا نجد ان عدد العاملين في وزارة الكهرباء، من ملاك دائم وأجور يومية، يصل الى (120000) منتسب، اي ان هناك ملاكا يمثل ثلاثة اضعاف الحاجة الفعلية. ولو قمنا بحساب الكلف وبدل من نشغل في الوزارة (40000 الى 50000)، تم تشغيل (120000) وهذه كلف يتحملها البلد والمواطن، لذلك يجب ان يعاد النظر بذلك.

(تعقيبا على الارقام اعلاه، قام د. مصعب المدرس بتدقيق ارقام الملاك في الوزارة مع الاستاذ باسم جميل؛ حيث أشار د. المدرس الى ان الملاك في الوزارة هو (105) الف منتسب، منهم بحدود (63) الفا ـ ملاك دائم، و(33) الفا ـ عقود، و(8) آلف ـ اجور يومية).

اضافة الى ذلك يجب ان لا ننسى ما صرف من قبل المواطنين على المولدات البيتية (وهو جزء من الناتج القومي للبلد)، التي بلغت حوالي 9 ملايين مولدة، واسلاك كهربائية، ووقود لهذه المولدات والمولدات التجارية التي يتجاوز عددها (240) الف مولدة، وهذه كلها مبالغ كبيرة. هذا بالإضافة الى ما انفق من

اموال على حوادث الحريق والمشاكل الاجتماعية الأخرى. وربما تتجاوز صرفيات المواطنين ما انفقته الحكومة على الطاقة الكهربائية، بحدود (19.6) تريليون دينار سنويا.

ان حاجة العراق الان تصل الى (25000) ميغاواط. وفي حالة تفعيل القطاعات الانتاجية ودخول الاستثمار سوف تتفاقم الحاجة للكهرباء بشكل اكبر.

كما أنه لا توجد عدالة في توزيع الكهرباء بين المحافظات (واسط، البصرة والناصرية) اضافة الى التلوث الكبير الذي راكمته المولدات وما خلفته من امراض واوبئة في البلد وبالأخص الامراض السرطانية.

وكان من المفروض ان يكون في الوزارة دائرة او مديرية تشرف على انتاج الطاقة الكهربائية في القطاع الخاص، وعلى اصحاب المولدات من نواحي تحديد السعر ووقت التجهيز وتوفير الوقود والأمان والصيانة والتلوث... الخ. علما أن اشراف مجالس المحافظات هو اشراف شكلي.

ولا أريد ان اطيل، لكن يجب ألا ننسى ضرورة تفعيل دور هيئة رقابة المستهلك وحمايته. ولا ننسى مسؤولية المواطن وضعف الوعي وهذا بسبب انعدام الثقة وفقدان المصداقية، خصوصا بسبب بعض التصريحات غير المسؤولة من بعض المسؤولين من قبيل سنصدر الكهرباء سنة 2014 بينما لحد الآن (2017) تنقطع الكهرباء بحدود 10 ساعات يوميا. وهناك ضعف في العلاقة بين الوزارة والمواطن اعلاميا.

السيد حميد الابراهيمي
نائب نقيب نقابة ذوي المهن الهندسية

ازمة الكهرباء ازمة سياسية بامتياز. وهي من جهة ازمة خارجية كون النجاح في حلها سيضيف كثيرا الى رصيد الحكومة العراقية، وسيلقي بظلاله على عمل جميع الوزارات والقطاعات الاخرى، وبالتالي ستستفيد من نجاحه الحكومة وشخصها الاول، لكن للمحتل ودول الجوار رأي آخر، وبالتالي قد يساهمون في افشال هذا القطاع او انجاحه بحسب مصالحهم.

من جهة اخرى ازمة الكهرباء هي ازمة داخلية، لان الحكومة العراقية مشكلة من خليط غير منسجم، كما ان المحاصصة البغيضة تلعب دورا كبيرا في فشل هذا القطاع. فنجاح الحكومة ورئيس الوزراء في حل هذه المعضلة ليس في مصلحة هذه الكتل، فتعمل على افشاله، بعيدا عن المصالح الوطنية والولاء للبلد، فهذا عندهم غير مهم.

دون ان ننسى طبعا ضعف التشريع من قبل البرلمان واستغلال ازمة الكهرباء في الدعايات الانتخابية وتحويل حاجات المواطن الانسانية الى سلع يروج لها لخدمة مصالحهم. بل ان بعضهم روج وحرّض الناس على عدم دفع مبالغ

الجباية بالرغم من ان هذا لا يخالف القانون والأخلاق، وإنما حتى توجيهات المرجعية الرشيدة التي اوصت بتسديد مبالغ الجباية.

لن اتحدث عن وضع الكهرباء قبل 2003 كما انني اتفق مع الارقام التي طرحها الاستاذ ابراهيم المشهداني، اننا بدأنا بعد سقوط النظام بـ(2800) ميغاواط وعندما يصل الانتاج الى (15000) ميغاواط معناها أن الوزارة حققت نسب نجاح مهمة، وهو ما لم تحققه اي وزارة اخرى في العراق. لكن هذه الزيادة لم تكن تغطي المطلوب، وبقي هناك عجز. وأحد الاسباب هو التنامي المستمر في الحاجة للطاقة الكهربائية. وأوجه سؤالي للسادة الحضور: هل لخصخصة قطاع توزيع الطاقة الكهربائية اثر في زيادة تزويد المواطن بالكهرباء؟ وهل له اهمية في القضاء على التجاوزات على الشبكة الموجودة؟ اذا علمنا ان المستثمر سيعتمد على متقاعد، اساسا كان يعمل في وزارة الكهرباء، وثانيا يحتاج للمنتسبين الموجودين في التوزيع، وثالثا هو بحاجة الى شرطة الكهرباء. ونحن كنقابيين كيف سنضمن حماية حقوق المنتسب او نحميه هو نفسه بالتأكيد من شرطة الكهرباء وليس الشرطة المحلية؟ واذا كانت كل هذه متوفرة للوزارة، فما هي الحاجة الى تسليم قطاع التوزيع الى مستثمر؟

بل ان المناطق التي لا تستطيع وزارة الكهرباء دخولها لجباية الاموال لن يستطيع المستثمر دخولها، وبالتالي قد تضطر الوزارة الى الاستعانة بفصائل مسلحة او ميلشيات لجباية اجور الكهرباء. وبالتالي لم نحقق شيئا. انني متأكد من ان المسألة يمكن ان تحل عن طريق تقوية القانون وفرضه وان تعود الامور الى وضعها الطبيعي دون الحاجة الى الاستثمار. علما ان الخصخصة ستمس منتسبي الوزارة مستقبلا بشكل مباشر؟

كما تعلمون ان دور النقابات هو رقابي، كان عملنا الرقابي قويا عندما كنا نعمل بنشاط في وزارة الكهرباء. بينما تضاءل وضعف هذا الدور عندما صدر قرار الوزارة بالغاء العمل النقابي في وزارة الكهرباء في 2010/7/21 بحجة تدخل النقابات في عمل الوزارة. بينما في الحقيقة السبب الرئيسي لذلك القرار، هم المفسدون داخل الوزارة. حيث كان للنقابات دور كبير في الدفاع عن حقوق المنتسبين، ورفع الغبن عنهم. وساهمنا في رفع امكانياتهم الفنية والإدارية. كما ان النقابة كانت تزج بالعديد من النقابيين في اللجان المشكلة في الوزارة.

الخبير الاقتصادي الدكتور ماجد الصوري

لم يتم التركيز على اثر التلوث الكبير الذي تسببه المولدات التجارية والاهلية على صحة المواطن، وآثارها السلبية المختلفة.

المسألة المطروحة الآن هل هي ازمة وزارة الكهرباء ام ازمة النظام؟ برأيي ان الجواب هو: انها ازمة نظام. فالإمكانية الموجودة ان الكوادر المحلية استطاعت اعادة المنظومة الكهربائية بعدما دمرت بشكل كبير في عام 1991 وما زالت موجودة. واليوم امكانيات وزارة الكهرباء كبيرة جدا. لكن المشكلة الاساسية هي الازمة العامة للنظام، والتي كان من نتائجها انتشار الفساد في كل مناحي الحياة، وأثرت على اداء كل موظف. سابقا كان جابي الكهرباء يُسلم مبالغ جباية الكهرباء والمواطن مطمئن من انها في يد امينة، الآن يضطر المواطن الحريص الى الذهاب الى الدائرة الرسمية، لتسديد مبالغ اجور الكهرباء. ولم تستطع الوزارة حل مشكلة الجباية، بالعكس، عمقت من هذه المشكلة.

بالنسبة لموضوع الاستثمار: المشكلة ليست بالاستثمار بحد ذاته، بل في السيطرة على هذا الاستثمار. والقطاع الخاص في العالم يسيطر على قطاع الكهرباء، والحكومات تتدخل من خلال تحكمها وسيطرتها على السعر. وهذه المسألة مهمة وايجابية في هذا المجال. ويجب ان لا ننسى اهمية قيام منظمات المجتمع المدني بعمليات الرقابة. لكن يحدث الخطأ عندما تتم المقارنة والمفاضلة بين اسعار الجباية الجديدة مع اسعار المولدات الاهلية، وهنا المقارنة لا تجوز لأن اساس وجود المولدات الاهلية خاطئ.

الموضوع الذي تكلم عنه الاستاذ باسم انطون عن العلاقة بين القطاعات الانتاجية واسعار الكهرباء، اود الاشارة هنا الى أننا في مرحلة انتقالية، ويجب توفير جميع الامكانيات وفي مقدمتها الكهرباء. وان تكون جميع هذه الامكانيات والضرائب بأسعار تفضيلية، وذلك من اجل تخفيف تكلفة الانتاج على السلع المنتجة في العراق. كذلك يجب السيطرة على المنافذ الحدودية. لذلك انا اعتقد ان اسعار تجهيز الكهرباء خصوصا للقطاعات الانتاجية هي اسعار ظالمة. لهذا ارى انه يجب تخفيضها حتى لو ادى هذا الى تخفيض ايرادات الدولة.

السيد تحسين الساعدي
عضو المجلس التنفيذي لـ (المثلية الوطنية للعمال والمتعاقدين في العراق)

احب ان اشكر مجلة (الثقافة الجديدة) والسادة الحضور. في ما يخص عمل المولدات، وتأكيدا على كلام د. ماجد الصوري، فان قانون هيئة الكهرباء السابقة رقم (95) لسنة 1999 كان ينظم عمل اصحاب المولدات، ولا اعرف لماذا اهملت وزارة الكهرباء هذا الموضوع، مع انه موضوع حيوي ومهم، خصوصا وإن اصحاب المولدات كان لهم دور كبير في التجاوز على الشبكة الكهربائية خصوصا في مجال المناقلة بين المغذيات. وهنا ارى ضرورة ان تفعل

الوزارة هذا الموضوع، وان يكون لها دور في عمليات نصب المولدات الاهلية ونقلها ومكانها وسعاتها وتشغيلها، وبالتالي تستطيع السيطرة على الاضرار البيئية والضوضاء التي تنتج عنها.

وايضا أحب ان اؤكد على ما قاله الاستاذ حميد الابراهيمي انه عندما تم تقييد عمل النقابات وعملها داخل الوزارة، فإنه ابعد جهة كانت وستبقى تلعب دورا ايجابيا رقابيا الى جانب الجهات الرسمية الاخرى، وكذلك كان من الممكن الاستفادة من عمل النقابة في دعم خطط وتوجهات الوزارة اعلاميا، هذا بالإضافة الى الاستفادة من عمل النقابات في مجال نقل معاناة العمال ومنتسبي الوزارة. ايضا موضوع العاملين بالعقود والاجور اليومية في الوزارة الذين ليس لديهم من يعمل على نقل معاناتهم ومشاكلهم، وبعضهم يعمل في الوزارة لسنوات طويلة تصل الى (12) سنة، والوزارة لم تجد حلا لمشكلتهم لحد الآن. وفي الحقيقة حدثت انتهاكات كثيرة وكبيرة وهناك عدد من المديريات تلكأت في دفع رواتبهم وأجورهم، مثلا هذا المبالغ في دائرة توزيع الوسط تعود الى سنة 2016. ولا اعتقد انه في ميزانية 2017 مجال لتبويب جديد وصرف هذه المبالغ. كما أنه ولحد الآن هناك رواتب ومستحقات متأخرة ومتلكئة خصوصا في محطات الإنتاج. وكلنا نعرف ان اصعب واشق الاعمال هي تلك التي تحدث في محطات الانتاج والتوليد، خصوصا ان ذروة الطلب تكون في فصل الصيف. ونحن نتساءل: هل في خطة الوزارة في التحول نحو مجال الخصخصة والاستثمار ما يضمن حصول عمال ومنتسبي الوزارة على حقوقهم بل مصيرهم؟ لأن نص المادة رقم (8)/ ثالثا من قانون الوزارة يشير صراحة الى الآتي:- (إدارة أصول الشركات العامة التي تم تحويلها الى شركات مساهمة خلال عملية إعادة هيكلية الشركات المترتبطة بالوزارة وحتى إجراء كافة التعديلات على الملكية).

الدكتور محمد احمد صالح ابو الطيب
رئيس قسم الدراسات الاقتصادية في دائرة التخطيط والدراسات في وزارة الكهرباء

في البدء شكرا لمجلة (الثقافة الجديدة) ولـ(جمعية المهندسين) لاستضافتنا في هذه الطاولة. اولا موضوع الخصخصة له شروط وقوانين ومحددات، وما دام الاستثمار لحد اللحظة قائم على المشاركة، فلا ضير منها، ما دامت التسعيرة محددة من قبل الوزارة، ومسيطر علها من قبل الحكومة، لكن عندما يبدأ المستثمر فرض تسعيرة خاصة على المواطن في ذلك الوقت يكون الاستثمار ضارا.

السؤال المهم المطروح: هل ازمة الكهرباء هي مشكلة فنية تخص وزارة الكهرباء ام مشكلة سياسية؟ في الحقيقة يجب ان يكون السؤال ما الذي ضخم مشكلة وزارة الكهرباء؟ وهي تشابه مشاكل وزارة الصحة ووزارة التجارة، وحالها حال اي

وزارة اخرى. لكن وزارة الكهرباء جرى تضخيم مشكلتها، لأنها تتحمل وزر عمل كل الوزارات الاخرى في تنفيذ سياستها وفي تنفيذ خطط عملها. مثلا في التصميم الاساسي الحضري يكون التصميم (50 – 60) بيتا على طول شارع محدد، وبالتالي نستطيع معرفة كمية الطاقة الكهربائية التي يحتاجها سكان هذا الشارع من خلال معرفة تخمينية لعدد الافراد وعدد العوائل ومساحة كل بيت وعدد الطوابق. الآن هناك فشل في ضبط عمليات البناء وتأسيس البيوت الجديدة بحيث انها عملية غير مسيطر عليها، وتحدث دون قيود تماما، حاليا البيت الذي كان واحدا اصبح تسعة، وبالتالي الشارع الذي كان تصميمه (50–60) اصبح فيه حوالي (150) بيتا، وهذا ما يجب ان يتوفر له بنية تحتية كاملة ومنها بالتأكيد الكهرباء. وعندي معلومات شخصية تقول ان هناك منطقة حاليا فيها (116) الف متجاوز.

من جهة اخرى، اذا اخذنا مسألة الاستيراد للأجهزة الكهربائية من اجهزة تبريد وثلاجات وسخانات اغلبها غير مطابقة للشروط والمواصفات، بل ان بعضها غير مطابق للمواصفات المكتوبة على الاجهزة نفسها. بالإضافة الى هذا حدث هناك تغير في السلوك الاجتماعي في بيوتنا؛ فالكهرباء كانت جزءا من استهلاك الطاقة، بالإضافة الى النفط والغاز. حاليا، بسبب رخص الاجهزة الكهربائية ونوعياتها الرديئة والبسيطة توجه الاستهلاك بصورة كبيرة نحو الطاقة الكهربائية، وتحول البيت كله الى كهرباء. وانا هنا لا اتكلم عن حق المواطن، بالعكس العراق بلد غني، ومن حق المواطن ان يتنعم بثراء بلده، ولكن بالمعقول ووفق الاصول.

ما اريد ان اعود له هو ان ازمة الكهرباء، ضخمت، لأنها محصلة ازمات كل الوزارات الاخرى، والمواطن لا يرى امامه إلا وزارة الكهرباء، بينما هل يحاسب احد وزارة التجارة على السماح باستيراد الاجهزة ولم تحاسب دائرة التقييس والسيطرة النوعية على الاجهزة ومواصفاتها، لم تحاسب وزارة الاسكان على مواصفات البناء. في عمان ـ عاصمة الاردن يشترط عند البناء وجود عزل حراري في الحيطان، وحجر من اجل العزل الكهربائي. ولا يتم تجهيز الكهرباء بدون وجود سخان شمسي. مع العلم ان مؤسسة السجناء السياسيين قامت مشكورة بتوزيع هذه السخانات لكن وفي النهاية بيعت بعشرات الآلاف من الدنانير، بينما اسعارها بمئات الدولارات، ولم ينصب اي سخان منها.

بالنسبة لتعرفة الكهرباء او اجور الكهرباء والتي دائما ما سميت بأنها ظالمة، تعرفة الكهرباء تكون بالشكل الآتي:

(0 – 1000) كيلوواط/ وحدة سعرها (10) دنانير، اي (0.8) سنت، فأي دولة بالعالم تبيع الكهرباء بهذا السعر؟ عدا قطر التي تكون الكهرباء فيها مجانا. في أونتاريو (أونتاريو Ontario هي المقاطعة الأكثر اكتظاظاً بالسكان في كندا (حوالي 13 مليون نسمة وثاني أكبر مقاطعات كندا العشر مساحة – المحرر) تباع الكهرباء في وقت الذروة بـ (13) سنتا، وفي خارج وقت الذروة بـ (9) سنتات، وفي فترة انعدام الذروة من (7–9)، صباحا تباع الكهرباء بمبلغ

(6.5) سنت. أما من (1500–1000 وحدة) تباع الكهرباء في العراق بـ (20) دينارا، أي بـ (1.6) سنت، ومن (1500 – 2000 وحدة) بـ(40) دينارا، اي بـ (3.2) سنت. وتبدأ التسعيرة بالزيادة عندما يصل المستخدم الى (4000 وحدة) لأن التعرفة تصبح (200) دينار. وبالتالي هناك تفاضل في التسعيرة بين الانسان الفقير الذي مجمل حمل بيته لا يتجاوز 1500 – 2000 وحدة. وبالتالي هذه التسعيرة ابدا ليست ظالمة، بالعكس السعر رخيص بل تافه. بينما كلفة انتاج (1000) واط للعام الماضي هي (106) دينار عراقي، اي (8.4) سنت. بينما مبلغ البيع هو كما قلنا (10) دينار، او (0.8) سنت، ومعدل البيع العام لكل التسعيرة هو تقريبا (75) دينار عراقي، او (7.6 – 8) سنت وهو سعر معقول.

هل تعلمون ان 20% من المسجلين في وزارة الكهرباء يستهلكون شهريا اقل من (100) واط، والسبب انه حصل (تجطيل) كل شيء، وترك على الميزانية اجهزة البيت البسيطة والانارة. علما أن هناك مناطق في بغداد يخاف محصل الجباية الدخول إليها، بل حدث اكثر من مرة ان تم الاعتداء جسديا على محصلي الجباية.

ان وزارة الكهرباء لا تعمل منفردة، وليست مستقلة، بل انها ضمن منظومة كاملة. واي مشكلة ضمن هذه المنظومة تؤثر في عمل الوزارة. وانها تعمل عندما تتعاون معها باقي الوزارات، وعندما تسدد ما بذمتها من مبالغ، وكذلك عندما يتعاون المواطن ويسدد ما بذمته.

السيدة هاشمية السعداوي
رئيس إقليم الشرق الأوسط وعضو اللجنة التنفيذية في الاتحاد الدولي للصناعات

السيدات السادة الحضور الكرام
لهيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) كل الاحترام والتقدير على الاهتمام بالقضايا التي تهم حياة الناس.

أود أن اشير في مداخلتي أولا الى الطاقة المتجددة.

جميع الحاضرين من الاختصاص او من المهتمين بشأن الكهرباء. وواضح للجميع ان الطاقة المتجددة مصدرها الموارد الطبيعية. وحظيت بتسمية المتجددة كونها لا تنفد ومصادرها كثيرة ومتعددة (الشمس، الرياح، المياه، حرارة الأرض، المحاصيل الزراعية والأشجار). لنترك مصدر المياه جانبا لكون لدينا مشاكل في وفرتها وتحكم دول الجوار بالكميات التي تطلق الى انهارنا؛ فممكن أن نعتبره مصدرا غير مستقر، ولنترك ايضا مصدر المحاصيل الزراعية والاشجار جانبا لكون قطاع الزراعة هو الآخر يعاني من الاهمال، حاله حال القطاعات الأخرى، فضلا عن أن التوجه الدولي نحو هذا المصدر ليس كما هو التوجه نحو مصادر الطاقة المتجددة الأخرى، كون الأخيرة لها مخلفات تعمل على زيادة الاحتباس الحراري.

لو ننظر الى اهم مصدرين من مصادر الطاقة المتجددة هما الشمس والرياح نجد أنهما مستغلين بشكل واسع في الدول المتقدمة، وحتى في الدول النامية واصبح انتاج الطاقة الكهربائية من هذه المصادر من الأمور الاعتيادية او المألوفة. وبعض الدول اصبح انتاجها للكهرباء يغطي ما يقارب 20% من حاجتها المنزلية، أما المانيا الاتحادية والتي يصل سكانها الى حوالي (88) مليون نسمة، فان 50% من حاجة البلد، بما فيها مصانع ضخمة، تعد الطاقة الشمسية مصدرا للطاقة فقد تم هناك انشاء منظومات ضخمة لاستغلال الطاقة الشمسية وأخذتها هذه الدول بالحسبان ضمن مخططاتها ما تحتويه الطاقة المتجددة من مميزات (من الجانب الاقتصادي، وفرتها واستمراريتها بالعمل، وتقنياتها غير المعقدة)، فضلا عن انها لا تسبب تلوثا للبيئة فهي لا تطرح مخلفات ضارة كثاني اوكسيد الكاربون، او اية غازات اخرى وبالتالي لا تزيد من الاحتباس الحراري، كما أن كلفتها قليلة جدا مقارنة مع المصادر الأخرى، وتكون الكلفة اولية، أي عند تأسيس المنظومة فقط، وعمر المنظومة يصل الى 20 او 25 سنة، واعمال الصيانة فيها نادرة جدا. ومن دول الشرق الأوسط بدأت السعودية استخدام الشمس كمصدر للكهرباء.

السؤال هنا يطرح: لماذا لا تستغل الرياح والشمس بإنتاج الطاقة الكهربائية في العراق؟ فهي متوفرة خاصة الشمس والنهار طويل وسُجل عالميا ان العراق والبصرة تحديدا سجلت اعلى درجات الحرارة في العالم خلال السنوات الماضية. والعراق صرف المليارات على محطات متقادمة استنزفت الأموال في عمليات الصيانة دون جدوى او المردود الايجابي لها لا يتناسب مع حجم الاموال التي صرفت.

لا نذهب بعيدا فلدينا تجربة مواطن عراقي من اربيل، نصب هكذا منظومة في بيته واجرت معه قناة الموصلية الفضائية مقابلة في (برنامج الكاميرا) التي كانت هناك وهذا المواطن يحصل من هذه المنظومة على 43 امبيرا، بشكل مستمر طوال الليل والنهار.

ولكن ليس كل المواطنين باستطاعتهم نصب هكذا منظومة، فقد يستطيع البعض وهم قلة. أليس من الأجدر أن تتبنى وزارة الكهرباء هكذا مشاريع، خاصة وأن قانون الكهرباء الجديد والذي شرع في كانون الثاني من هذا العام (2017) نص في المادة 9 ثانياً على الآتي: "تشجيع القطاع الخاص للاستثمار في بناء محطات تعمل على الطاقة المتجددة مع توفير المحفزات الضرورية".

اما بخصوص العرض الذي قدمه الاستاذ طارق رحيم رومي عن واقع الكهرباء في العراق، فله الشكر والتقدير. وبالتاكيد ما قدمه كان مبنيا على معلومات ومعطيات ملموسة وموضوعية، ولكنني ارى أن التخطيط المستقبلي للتوسع السكاني غير مدروس بشكل صحيح وجدي، لذلك نرى هناك زيادة في انتاج الطاقة الكهربائية، ولكن بالمقابل التوسع او النمو السكاني يفوق ذلك مما يجعل الكهرباء بمثابة ازمة مستمرة قائمة.

اما خصخصة قطاع التوزيع فما يملكه القطاع الخاص لا يملكه قطاع الدولة فهل الوزارة عاجزة عن القيام بالمهام

التي يقوم بها القطاع الخاص (تصفير الضائعات، الصيانة، الجباية، ونصب منظومة سمارت ميتر)؟ ألا يمكن للوزارة ان تستعين باجهزة الدولة الاخرى لتنفيذ مهماتها؟ فما الذي يملكه القطاع الخاص! اما موضوع الجباية وعدم دفع اجور الكهرباء من قبل اعداد من المواطنين، ومع انني ادعو الى الالتزام بدفع اجور الكهرباء فهذا حق، اود ان اشير الى موضوع مهم جدا وهو تفاقم ازمة الثقة بين المواطن والحكومة فهل المواطن حاصل على حقوقه التي ضمنها له الدستور العراقي؟ وأسأل جميع الحضور: هل حصلتم انتم وعوائلكم على التأمين الصحي والعلاج أو تأمين السكن اللائق او تأمين الشيخوخة و...و.. الخ، من تلك الحقوق التي ضمنها دستور 2005؟ من يقرأ دستور العراق (الحقوق والحريات) يجد ان هناك من الأجانب ممن يحسدون العراقيين على هذا الدستور. لكنه مع ذلك بقيت مواده حبرا على ورق؟ فمن أين للمواطن العاطل عن العمل (والعمل حق انساني ودستوري) ان يدفع فاتورة الكهرباء؟ ومن جانب آخر يرى الفساد في كافة مفاصل الدولة. المشكلة متأزمة ومتشابكة وتبقى قائمة ما لم تبادر الحكومة الى حل الازمات التي يعاني منها المواطن. عندها سيشعر المواطن ان تسديد الفواتير والضرائب يعود بالفائدة عليه.

اما موضوع حقوق العاملين بصفة عقد في وزارة الكهرباء والتي اشار لها السيد تحسين الساعدي، فلا بد من الاشارة الى الانجاز الكبير وهو تشريع قانون يتوافق مع المعايير الدولية. واعتبره الاول في اقليم الشرق الاوسط وشمال افريقيا وهو قانون العمل رقم 37 لسنة 2015 والذي من المفروض أنه دخل حيز التنفيذ في 8 شباط 2016 بعد نشره في (الجريدة الرسمية)، ولكن للأسف لم يطبق. ويبدو هناك اصرار لعدم تطبيقه. المفارقة ان الاصوات تتعالى من أجل ان يكون العراق دولة قانون ومؤسسات، لكننا نرى الحكومة بوزاراتها تنتهك القانون. فلو طبق قانون العمل رقم 37 فإنه سوف يحفظ حقوق المتعاقدين مع القطاع العام ومنهم العقود في الكهرباء.

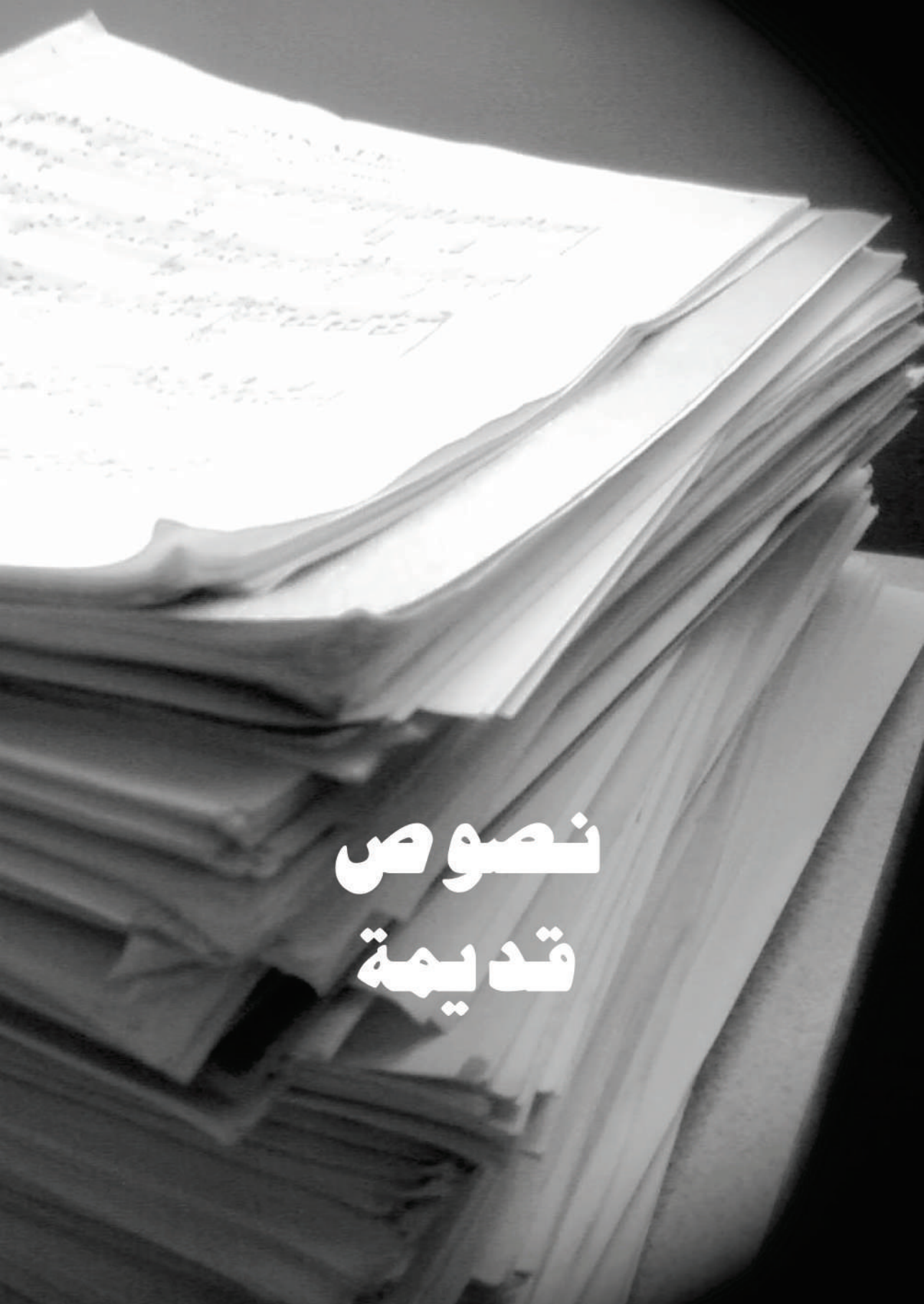
نصوص
قديمة

فلاديمير لينين:
حق الأمم في تقرير مصيرها *

كتب: في فبراير - مايو 1914
نشر لأول مرة: في أبريل - يونيو 19 14 **في جريدة بروسفشينيه**
Posveshcheniye، **الأعداد** 4، 5، 6

ما معنى حرية الأمم في تقرير مصيرها؟

من الطبيعي أن يبرز هذا السؤال في مبدأ الأمر، حين نحاول النظر في ما يسمى حرية تقرير المصير من وجهة نظر الماركسية. فماذا يعني ذلك؟ هل نستقصي الجواب من التعاريف القانونية المستقاة من شتى أنواع "المفاهيم العامة" للقانون، أو ينبغي البحث عنه في دراسة الحركات القومية دراسة تاريخية اقتصادية؟

لا غرابة في أن السادة سيمكوفسكي وليبمان ويوركفيتش واضرابهم لم يفطنوا حتى إلى إلقاء هذا السؤال وهم يتملصون من ذلك عن طريق التهكم على "غموض" البرنامج الماركسي. ويبدو أن هؤلاء السادة على ما هم عليه من بساطة يجهلون تمام الجهل أن مسألة حرية الأمم في تقرير مصيرها لم يعالجها البرنامج الروسي الموضوع في سنة 1903 وحسب، بل عالجها أيضا قرار مؤتمر لندن الأممي المنعقد في سنة 1896 (...)

فالحركات القومية لم تبرز اليوم في روسيا للمرة الأولى وهي ليست وقفا على هذه البلاد دون سواها، ففي العالم كله كان عهد انتصار الرأسمالية الحاسم على الاقطاع مقترنا بالحركات القومية. ذلك لأن الانتصار الكامل للإنتاج السلعي يتطلب استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية وتوحيد الأراضي التي يتكلم سكانها لغة واحدة، وإزالة كل حاجز من شأنه أن يعيق تطور تلك اللغة ورسوخها في الأدب، ذلكم هو الأساس الاقتصادي للحركات القومية. إن اللغة هي أكثر وسائل اتصال الناس بعضهم ببعض أهمية، كما أن وحدة اللغة وحرية تطورها هما من أهم الشروط لقيام مبادلات تجارية حرة شاملة حقا تتوافق والرأسمالية الحديثة، ولتكتل الناس تكتلا حرا واسعا داخل طبقاتها المتعددة، وأخيرا لإقامة علاقة وثيقة بين السوق وبين كل رب عمل كبير أو صغير وبين كل بائع ومشتر. ولذلك، فالسعي إلى إقامة دول قومية تستجيب على الوجه الأكمل لمتطلبات الرأسمالية الحديثة هذه هو أمر مصاحب لكل حركة قومية. وتدفع إلى هذا الهدف أعمق العوامل الاقتصادية. ومن هنا يبدو أن الدولة القومية، بالنسبة لكل أوروبا الغربية، بل للعالم المتمدين كله، هي

* مقاطع من الكتاب اعلاه

أمر نموذجي وطبيعي في المرحلة الرأسمالية. فإذا أردنا، بعد هذا، أن نفهم معنى حرية الأمم في تقرير مصيرها دون أن نتلاعب بالتعريفات القانونية، ودون أن "نخترع" تعريفات مجردة، بامتحان شروط الحركات القومية التاريخية والاقتصادية، فلا بد أن نصل إلى النتيجة التالية: إن المقصود بحرية الأمم في تقرير مصيرها، هو الانفصال السياسي لهذه الأمم من الهياكل القومية الغريبة، وتشكيلها لدولة قومية مستقلة. وسنرى في ما بعد، الأسباب الأخرى التي توقعنا في الخطأ إذا فهمنا من حق حرية تقرير مصير أمة من الأمم شيئا آخر غير حق الوجود كدولة قائمة بذاتها. أما الآن فعلينا أن نعالج: كيف جهدت روزا لوكسمبورج في أن "تتملص" من مجابهة النتيجة الحتمية القائلة بأن الأسباب الاقتصادية العميقة تحدد الاندفاع نحو إنشاء دولة قومية. تعرف روزا لكسمبورج معرفة تامة الكراسة التي وضعها كاوتسكي بعنوان "القومية والأممية" ملحق "نوي تسايت " Neuezeit.[1] العدد الأول 1907–1908، الترجمة الروسية في مجلة "ناووتشنايا ميل" ريفا 1908 [2]، وتعرف أن كاوتسكي، بعد أن حلل مسألة الدولة القومية في الفقرة الرابعة من هذه الكراسة تحليلا دقيقا، توصل بالنتيجة إلى القول بأن أوتو باور «يقلل من قوة الاندفاع إلى إنشاء الدولة القومية» (الصفحة 23 من الكراسة المذكورة) وقد أوردت روزا لوكسمبورج نفسها كلمات كاوتسكي التالية: «إن الدولة القومية هي شكل الدولة الذي ينسجم أكمل انسجام مع الظروف العصرية» (أي الظروف الرأسمالية المتمدنة، والشروط الاقتصادية المتقدمة، بوصفها شيئا متميزا عن الظروف السابقة على الرأسمالية، في العصور الوسطى.. الخ). وهي الشكل الذي يتهيأ لها فيه تأدية مهامها على أحسن وجه (أي مهام إفساح المجال أمام الرأسمالية لتتطور إلى أبعد حدود الحرية والشمول والسرعة)، وعلينا أن نضيف إلى ما تقدم ملاحظة ختامية، أوفر دقة، أوردها كاوتسكي، وهي أن الدول التي يكون تركيبها القومي بعيدا عن التجانس (أي التي تعرف بدول القوميات المتعددة خلافا للدول القومية)، هي دائما تلك الدول التي يظل تشكيلها الداخلي لسبب ما شاذا أو ضعيف التطور، متأخرا). وغني عن البيان ان كاوتسكي يستعمل هنا لفظة "شاذ" للدلالة فقط على عدم التلاؤم مع ما ينسجم ومتطلبات الرأسمالية النامية.

والسؤال الآن هو: كيف عالجت روزا لوكسمبورج هذه الاستنتاجات التاريخية الاقتصادية التي توصل إليها كاوتسكي؟ هل تعتبرها صحيحة أم مغلوطة؟ ومَن مِن كاوتسكي وأوتو باور على حق: الأول بنظريته التاريخية الاقتصادية، أم الثاني بنظريته القائمة على أساس سيكولوجي؟ وأية رابطة تجمع بين "انتهازية" باور "القومية" التي لا مراء فيها، ودفاعه عن الاستقلال الذاتي القومي، وولعه بالتعصب القومي (تضخم العوامل القومية هنا وهناك كما وضعها كاوتسكي): «ومبالغته الشديدة في تقدير شأن العوامل القومية وتناسيه العوامل الأممية تناسيا تاما» (كاوتسكي). نقول أية رابطة تجمع بين هذا كله وبين تقليل باور من شأن الاندفاع نحو انشاء دولة قومية؟

إن روزا لوكسمبورج حتى لم تطرح هذا السؤال. ولم تلاحظ هذه الصلة كما أنها لم تضع في اعتبارها مجموع أفكار باور النظرية، ولم تقارن مطلقا بين النظرية التاريخية الاقتصادية والنظرية السيكولوجية في المسألة القومية بل حصرت نفسها في حدود الملاحظات التالية، في نقدها لكاوتسكي :

إن هذه الدولة القومية "المثلى" ليست سوي شيء مجرد يسهل عرضه نظريا والدفاع عنه نظريا، ولكنه غير مطابق للواقع.

–PrzegladSocialdemokrat) cizny 1908، العدد 6، ص 499).

وللدلالة على صحة هذا التصريح الجازم وتأييده تورد روزا لوكسمبورج سلسلة حجج تزعم فيها أن تطور الدول الرأسمالية العظمى والامبريالية يجعلان من حق تقرير مصير الشعوب الصغيرة شيئا وهميا. ثم تصيح: «هل يمكن لأحد الحديث عن "حرية" سكان الجبل الأسود والبلغاريين والرومانيين والصرب واليونانيين: وحتى السويسريين إلى حد ما، في تقرير مصيرهم. وكلهم مستقلون صوريا، مادام استقلالهم ذاته نتيجة للنضال السياسي، وللعبة الدبلوماسية، للجوقة الأوروبية؟!» (ص 500) إن الدولة التي تتلاءم مع الظروف تلاؤما أكمل «ليست هي الدولة القومية، كما يتصور كاوتسكي، بل هي الدولة المفترسة»... إن جهود روزا لوكسمبورج في تلقين كاوتسكي درسا قاسيا حول تبعية الدول الصغيرة اقتصاديا للدول الكبيرة، وكيف أن الصراع بين الدول البرجوازية متواصل لسحق الأمم الأخرى بضراوة، وأن ثمة إمبريالية ومستعمرات، كل هذا ليس سوى أمر مضحك،... لأن هذه الأمور كلها لا تمت بصلة إلى الموضوع. إن التبعية الاقتصادية الكاملة لسلطان الرأسمال المالي الامبريالي في البلدان البرجوازية "الغنية" ليست شيئا مقصورا على الدول الصغرى فقط، بل إنها أيضا تشمل أقطارا كروسيا ولم تكن دويلات البلقان وحدها مستعمرة لأوروبا من الوجهة الاقتصادية، بل إن أمريكا ذاتها كانت كذلك في القرن التاسع عشر. على حد ما ذكره كارل ماركس في "الرأسمال"(3). كل هذا يعرفه بالطبع كاوتسكي جيدا، شأن كل ماركسي، ولكن هذا كله لا علاقة له، قط، بمسألة الحركات القومية والدولة القومية.

لقد استعاضت روزا لوكسمبورج في قضية حرية الأمم في تقرير مصيرها السياسي في المجتمع البرجوازي، أي قضية استقلالها الاقتصادي، ولا شك أن في هذا من الذكاء، ما يشبه تماما موقف شخص يسعي، عند مناقشة أحد المطالب في برنامج من البرامج حول سلطان البرلمان – أي مجلس ممثلي الشعب في الدولة البرجوازية – إلى تبيان اقتناعه – الصائب كل الصواب – بأن الرأسمال الكبير يسود في البلد البرجوازي، مهما كان نظامه. ليس من شك في أن الجزء الأكبر من آسيا، وهي القارة المأهولة بالسكان أكثر من غيرها، واقع في إحدى حالتين: إما مستعمرات "للدول العظمى" وإما دول ممعنة في التبعية وخاصة للاضطهاد القومي. ولكن هل يزعزع هذا الظرف المعروف من الجميع، الحقيقة التي لا مراء فيها وهي أنه في آسيا ذاتها لم تنشأ شروط تطور الإنتاج السلعي الأكمل، ولا شروط نمو الرأسمالية الأكثر حرية واتساعا وسرعة، إلا في اليابان، أي فقط في دولة قومية مستقلة؟ إن هذه الدولة هي دولة برجوازية، ولذا أخذت هي باضطهاد أمم أخرى، واستعباد مستعمرات لها. ونحن لا نستطيع الحديث عما إذا كانت آسيا ستنجح على غرار أوروبا، أم لا، ولكن يبقى شيء لا يختلف فيه إثنان، وهو أن الرأسمالية بايقاظها القارة الاسيوية قد أثارت في جميع بقاع آسيا، أيضا حركات قومية تسعى حثيثا إلى إنشاء دول قومية، وأن هذه الدول هي التي تضمن للرأسمالية أحسن الظروف التي يتطلبها تطورها. إن مثال آسيا هو في صالح كاوتسكي، ضد روزا لوكسمبورج. إن مثال الدول البلقانية هو ضدها أيضا. فكل منا يرى اليوم أن أحسن الظروف التي يقتضيها تطور الرأسمالية آخذة في التوافر في البلقان، وذلك كلما ازداد نشوء دول قومية مستقلة في شبه الجزيرة هذا. وهكذا يتضح أن المثل الذي تضربه البشرية المتمدينة والمتقدمة جمعاء، ومثل البلقان ومثل آسيا تبرهن تماما على صحة قضية كاوتسكي – رغم روزا لوكسمبورج – تلك

القضية القائلة بأن الدول القومية هي القاعدة والمعيار للنظام الرأسمالي، وبأن الدول التي لا تجانس في تركيبها القومي لا تمثل سوى التأخر، أو الاستثناء. ولا شك في أنه من زاوية العلاقات القومية، فإن الدولة القومية، تخلق أفضل الشروط لتطور الرأسمالية. ولا يعني هذا أن مثل هذه الدولة القائمة على أساس العلاقات البرجوازية، تستطيع أن تقضي على استغلال الأمم واضطهادها. إنه يعني فقط، أن الماركسيين لا يستطيعون إهمال العوامل "الاقتصادية" القوية التي تولد الدافع إلى انشاء الدول القومية. كما يعني أن "حرية الأمم في تقرير مصيرها" لا يمكن أن يكون لها في برنامج الماركسيين، من الوجهة التاريخية الاقتصادية، سوى معنى واحد هو حرية تقرير المصير السياسي، والاستقلال كدولة، وإنشاء دولة قومية. أما الشروط التي نشترط بها من الوجهة الماركسية أي من وجهة نظر الطبقة البروليتارية تأييد المطلب البرجوازي الديمقراطي القائل "بدولة قومية" فسنفصل القول فيها لاحقا. أما الآن فسوف نقتصر على تعريف مفهوم "حركة تقرير المصير" وليس فقط في أن روزا لوكسمبورج تعرف ماذا يعني هذا المفهوم "الدولة القومية" في حين أن أنصارها... من جماعة ليبمان وسيموفسكي ويوركيفيتش يجهلون حتى هذا الأمر !

(1) دي نويه تسايت Die Neue Zeit المجلة النظرية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني. صدرت في شتوتجارت من 1883 حتى 1923. كان يشرف على تحريرها ك. كاوتسكي حتى أكتوبر 1917 ثم خلفه في هذا هـ. كاناو. وقد نشرت هذه المجلة بعض كتابات لمؤسسي الماركسية لأول مرة، ومن هذه الكتابات "نقد برنامج جوته" لماركس و"الاتجاه النقدي لمنشور البرنامج الاشتراكي الديمقراطي عام" 1891 لانجلز. وكثيرا ما كان انجلز يشير بأصبع الاتهام إلى محرري مجلة دي نويه تسايت وينتقد انحرافاتهم عن الماركسية. ونذكر من بين القادة المبرزين للحركة العمالية الأممية الألمانية الذين أسهموا بالكتابة في هذه المجلة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين "أ. بيبيل، و. ليبكنخت، ر. لوكسمبرج، ف. مهرنج ، وكلارا تسيتكين، وحـ ف. بليخانوف، وب. لافارج. وفي بداية التسعينات، أي بعد وفاة انجلز، دأبت المجلة على نشر مقالات للمراجعين ومنها سلسلة مقالات كتبها أ. برنشتين تحت عنوان "مشاكل الاشتراكية" وكانت مقالاته هذه بداية معركة خاضها المراجعون ضد الماركسية. وخلال الحرب العالمية الأولى اتخذت المجلة لنفسها موقفا ثابتا في مساندة الشوفينيين الاجتماعيين.

2) Nauchnaya Mysl)أو الفكر العلمي – مجلة الاتجاه المنشفيكي صدرت في ريجا عام 1908.

(3) أنظر كارل ماركس – رأس المال – مجلد 1 طبعة موسكو 1959 ص 765.

وضع القضية وضعا تاريخيا ملموسا

حين يعمد المرء إلى تحليل قضية اجتماعية أيا كانت، توجب عليه النظرية الماركسية أن يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين. كما تشترط عليه أيضا، إذا كان الموضوع يدور حول بلد بمفرده (مثلا حول البرنامج القومي لهذا البلد)، أن يأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه في حدود هذه الحقبة التاريخية ذاتها.

فماذا يعني هذا الشرط، الذي تقول به الماركسية في تطبيقه على القضية التي نعالجها؟ إنه يعني بالدرجة الأولى، ضرورة التمييز بدقة بين مرحلتين من الرأسمالية يختلفان جذريا في ما يتعلق بالحركات القومية.

فهناك من جهة الاقطاع والحكم المطلق، ينشأ

فيها مجتمع ودولة ديموقراطيان برجوازيان، وتصبح فيه الحركات القومية لأول مرة حركات جماهيرية تجذب "جميع" طبقات السكان نحو السياسة، سواء عن طريق الصحافة أو عن طريق الاشتراك في الهيئات التمثيلية وغيرهما من الطرق.

ومن جهة أخرى، هناك مرحلة اكتمال تأسيس الدول الرأسمالية بنظامها الدستوري الموحد منذ زمن طويل، مرحلة تعاظم التناحر بين البروليتاريا والبرجوازية – مرحلة يمكننا تسميتها عشية انهيار الرأسمالية. أما ما يميز المرحلة الأولى فهو استيقاظ الحركات القومية التي يجرف تيارها طبقة الفلاحين – أي الطبقة التي تضم أكبر عدد من السكان والتي يصعب دفعها إلى الحركة بين طبقات السكان في مجرى النضال من أجل الحرية السياسية بصورة عامة، ومن أجل حقوق القومية بصفة خاصة، وأما ما يميز المرحلة الثانية فهو غياب الحركات البرجوازية الديموقراطية الجماهيرية، وسعي الرأسمالية المتطورة التي تقرب بين الأمم أكثر فأكثر بعد أن اندفعت هذه الأمم بكليتها في حركة التبادل التجاري، تضع التناحر القائم بين الرأسمالية الذي اندمج على الصعيد العالمي، وبين حركة العمال العالمية في الدرجة الأولى من الأهمية. وليس هناك طبعا أي جدار يفصل بين هاتين المرحلتين، بل إنهما يتصلان ببعضهما بحلقات انتقالية كثيرة. على أن هناك عوامل أخرى تميز بين مختلف الأقطار، كسرعة تطورها الوطني، وتركيب سكانها القومي وتوزيع هؤلاء السكان، الخ. ولهذا لا يمكن اطلاقا الشروع بوضع برنامج قومي للماركسية في بلد من البلدان، دون النظر بعين الاعتبار إلى جميع هذه الأول التاريخية العامة وجميع الاوضاع الملموسة لهذه الدولة... والمقصود هنا برنامج الماركسيين القومي في قطر معين هو روسيا، وفي حقبة معينة هي مطلع القرن العشرين.

الروح العملي في مسألة القوميات

... ماذا يعني مطلب الروح العملي في مسألة القوميات؟ إنه يعني: إما تأييد جميع الأماني القومية، وإما الجواب "بلا أو نعم" على قضية انفصال كل أمة، وإما، بصورة عامة "إمكانية تحقق المطالب القومية مباشرة".

فلنمعن النظر في جميع هذه المعاني الثلاثة الممكنة لمطلب الروح العملي. إن البرجوازية التي تتزعم بطبيعة الحال كل حركة قومية في بدايتها تصف تأييد جميع الأماني القومية بأنه أمر عملي. إلا أن سياسة البروليتاريا في المسألة القومية (شأنها في سائر القضايا الأخرى) لا تؤيد البرجوازية إلا في اتجاه معين، دون أن تكون إطلاقا مماثلة لسياستها. فالطبقة العاملة لا تؤيد البرجوازية إلا في صالح السلم القومي (الذي تعجز البرجوازية عن توفيره كاملا والذي لا يمكن تحقيقه إلا بقدر ما تسود الديموقراطية سيادة تامة) بغية المساواة في الحقوق، بغية تهيئة أفضل جو ممكن للنضال الطبقي. ولذلك فإن البروليتاريا تعارض في مسألة القوميات "الروح العملي" البرجوازي بسياسة مبدئية ولا تدعم البرجوازية إلا ضمن شروط معينة. إن كل برجوازية تطمح في مسألة القوميات: إما إلى الحصول على امتيازات لأمتها، وإما إلى تحقيق فوائد استثنائية لها وهذا ما تقصده "بالروح العملي" في حين أن البروليتاريا هي ضد كل امتياز وضد كل استثناء فمطالبة البروليتاريا

(*) أنظر لينين، الأعمال الكاملة، مجلد 20 من ص 17 – 51.

بأن تكون "عملية" معناها السير تحت كنف البرجوازية والانغماس في الانتهازية.
أما الاجابة "بلا أو نعم" على قضية انفصال كل أمة، فتبدو أنها مطلب جد "عملي" ولكنه في الواقع مطلب سخيف ميتافيزيائي النزعة من الوجهة النظرية بينما يؤدي إلى اخضاع البروليتريا لسياسة البرجوازية من الوجهة العملية. فالبرجوازية تضع دائما مطالبها القومية في مقدمة الأهداف وتضعها بلا قيد ولا شرط. في حين أن هذه المطالب تخضع في نظر البروليتاريا لمصالح النضال الطبقي. ولا يستطاع من الوجهة النظرية التأكيد مسبقا على أن انفصال هذه الأمة عن تلك أو مساواتها في الحقوق مع أمة أخرى هو الذي سيتم الثورة البرجوازية الديمقراطية. فمن المهم للبروليتاريا في كلتا الحالين تأمين تطور طبقتها. أما البرجوازية فتهتم بعرقلة هذا التطور بإلقاء أهدافه وراء أهداف أمتها، ولذلك فإن البروليتاريا تقتصر على مطلب الاعتراف بحق تقرير المصير بشكل سلبي إذا صح التعبير. دون أن تضمن شيئا لأية أمة. ودون أن تقطع على نفسها عهدا بمنح أي شيء على حساب أمة أخرى. قد يكون هذا غير "عملي"، ولكنه خير ضامن في الواقع لأوسع الحلول الممكنة ديمقراطية. إن هذه الضمانات وحدها هي التي تحتاج إليها البروليتاريا. أما ما تحتاجه برجوازية كل أمة فهو ضمان مصالحها دون الاهتمام بأوضاع الأمم الأخرى ولو على حساب هذه الأمم. إن أخص ما يهم البرجوازية هو "امكانية تحقيق" مطلب معين بالذات وهذا ما يدفعها على الدوام إلى انتهاج سياسة المساواة مع برجوازية الأمم الأخرى على حساب البروليتاريا. أما البروليتاريا فيهمها أن تقوي طبقتها ضد البرجوازية، وأن تربي الجماهير بروح الديمقراطية المنسجمة وروح الاشتراكية. قد يكون هذا "غير عملي" في نظر الانتهازيين. بيد أن هذا هو في الواقع الضمانة الوحيدة التي تؤمن أوفر قسط من المساواة القومية والسلم القومي رغم أنف الإقطاعيين والبرجوازية المفعمة بروح التعصب القومي أيضا. إن كل المهمة الملقاة على عاتق البروليتاريا في مسألة القوميات ليست بالشيء "العملي" في نظر البرجوازية المفعمة بروح التعصب القومي في كل أمة لأن البروليتاريين يتطلبون مساواة "مجردة" في الحقوق، وانعدام الامتيازات اطلاقا مهما كانت طفيفة، فهم أعداء لكل تعصب قومي.
... ومن الطبيعي أن تتجل الانتهازية في الحقل القومي بأشكال مختلفة لدي الأمم القاهرة، على عكس الأمم المقهورة. فبرجوازية الأمم المضطهدة تدعو البروليتاريا تحت دعوى مطالبها "العملية" إلى مناصرة أمانيها دون أي تحفظ، أفضل موقف عملي لديها هو القول "نعم" صراحة لصالح انفصال أمة بعينها، لا لصالح حق انفصال جميع الأمم أيا كانت! ولكن البروليتاريا لا توافق على هذا المفهوم "العملي" وهي تعترف بالمساواة في الحقوق وتقرر لجميع الأمم حقا متساويا في إنشاء دولة قومية ولكنها تضع مصلحة التحالف بين البروليتاريين في جميع الأمم فوق كل اعتبار آخر. وتنظر إلى كل مطلب قومي، والى كل انفصال قومي على ضوء نضال العمال الطبقي، وهكذا يتبين أن شعار "الروح العملي" ليس في الواقع إلا شعار تبني أماني البرجوازية بدون نقد أو تمحيص. ثمة من يقول لنا: إنكم بتأييدكم حق الانفصال تؤيدون نزعة التعصب القومي البرجوازي لدى الأمم المقهورة... ونحن نجيب: كلا ان البرجوازية هي التي يهمها هنا الحل "العملي" أما العمال فيهمهم التمييز مبدئيا بين اتجاهين: فما دمنا نناضل مع برجوازية الأمة المقهورة ضد الأمة المتسلطة فنحن معها دائما وأبدا في

جميع الظروف بعزيمة تفوق تأييد الآخرين جميعا، لأننا ألد أعداء الاضطهاد نكافحه بجرأة وثبات، وما دامت برجوازية الأمة المستضعفة تعمل في سبيل تعصبها القومي البرجوازي، فنحن ضدها. أي أننا نقاوم امتيازات الأمة المتسلطة الظالمة وأعمالها العنيفة من جهة، ولا نتسامح مطلقا مع سعي الأمة المستضعفة وراء الامتيازات. وإذا لم ننجح في رفع شعار حق الانفصال في دعايتنا وإثارتنا السياسية فإننا لا نخدم مآرب البرجوازية وحسب، بل نخدم أيضا مآرب الإقطاعيين واستبداد الأمة المتسلطة الظالمة (...).

الاعتراف للجميع بحق الانفصال، وتقدير كل قضية ملموسة تمت إلى الانفصال من وجهة نظر تستبعد كل إخلال بالمساواة، وكل امتياز واستئثار. لنأخذ حالة الأمة المضطهدة الظالمة. فهل يستطيع شعب أن يكون حرا اذا كان يضطهد شعوبا أخرى؟ كلا. فإن مصلحة حرية السكان الروس تقضي بمقاومة ذلك الاضطهاد. ولكن تاريخا طويلا من قمع حركات الأمم المقهورة خلال العديد من الاجيال والدعاية المنتظمة المتواصلة التي تقوم بها الطبقات "العليا" في تأييد هذا القمع، قد خلقا في الشعب الروسي العظيم أوهاما وآراء خاطئة الخ.. تشكل عوائق كبرى أمام قضية حريته نفسه. إن هؤلاء الروس العظام... يغذون تلك الاوهام ويذكون نارها عن وعي وإدراك. وتتجاوز البرجوازية الروسية عن هذه الأوهام أو تصفح عنها، لذا لا تستطيع البروليتاريا الروسية تحقيق أهدافها الخاصة بها ولا تتمكن من شق طريقها نحو الحرية إلا بمكافحة تلك الاوهام مكافحة منتظمة مستمرة. أن أمر انشاء دولة قومية مستقلة قائمة بذاتها لا يزال حتى الآن في روسيا امتيازا تتمتع به الأمة الروسية دون غيرها.

أما نحن البروليتاريين الروس، فلا ندافع عن امتيازات مهما كان نوعها، ولا ندافع بالتالي عن هذه الامتيازات. اننا نناضل في نطاق دولة معينة، ونعمل على توحيد صفوف عمال جميع الأمم القاطنة داخل نطاق دولة معينة. وليس بإمكاننا أن نضمن هذه الطريق أو تلك في التصور القومي، لكننا نسلك جميع الطرق الممكنة للوصول إلى هدفنا الطبقي. غير أنه لا يمكن السير نحو هذا الهدف بدون محاربة نزعات التعصب القومي على اختلافها وبدون الدفاع عن المساواة بين مختلف الأمم... ونحن أبناء البروليتاريا نعلن مسبقا أننا خصوم لامتيازات القومية الروسية وفي هذا الاتجاه نركز كل دعايتنا ونشاطنا التحريضي... المهمة العملية الرئيسية التي تواجه بروليتاريا الأمة الروسية وبروليتاريا الأمم الأخرى، مهمة القيام يوميا بدعاية ونشاط تحريضي ضد كل امتياز قومي في الدولة، وفي سبيل تمتع الأمم كافة بحقها المتساوي في انشاء دولها القومية وهذه المهمة هي هدفنا الرئيسي (حاليا) في مسألة القوميات، لأننا بهذه الصورة فقط ندافع عن مصالح الديمقراطية ومصالح تحالف جميع البروليتاريين من جميع الأمم أيا كانت على أساس المساواة في الحقوق. ولن يضيرنا في شيء اذا كانت تلك الدعاية (غير عملية) في نظر الطغاة الروس، أو في نظر برجوازية الأمم المستضعفة... غير أن هذه الدعاية وحدها هي التي تتضمن أفضل الامكانيات وأوسعها لتوطيد السلم القومي في روسيا، إذا ظلت هذه البلاد دولة متباينة التركيب القومي كما تضمن تقسيمها تقسيما سلميا إلى أقصى حد (ولا يؤذي نضال البروليتاريا الطبقي) إلى عدد من الدول القومية، إذا وضعت قضية هذا التقسيم على بساط البحث.

ف. أ. لينين: بصدد مقالة «مقالات للنقد

فيما يتعلق بمسألة القوميات»*
(نبذة مبسطة)

مقدمة

عرف العصر الراهن محاولات كثيرة لحل مسألة القوميات. ولكن ما من شك، وهذا هو ما أكدته الخبرة التاريخية، في أن أكثر الطرق فعالية في هذا المقام هو الطريق الذي اختاره الاتحاد السوفياتي.

وأهم شيء على هذا الطريق هو مراعاة مصالح المجتمع كله والبلاد ككل والقرن بينها وبين مصالح كل شعب من الشعوب التي تعيش في هذا المجتمع.

ولقد تم تحقيق هذه النتيجة لأن الانعتاق والتحرر الوطني الذي جلبته معها ثورة اكتوبر عام 1917 قد سار على اساس التحولات الاجتماعية الجذرية. وتم أيضاً لأن الكادحين من أبناء شتى القوميات قد أدركوا ضرورة التوحد والمساعدة المتبادلة بدافع من وحدة الأهداف الاجتماعية. وكذلك لأن الشعوب الأكثر تطورا في البلاد قد قدمت العون بشتى السبل الى الشعوب المتخلفة. ولأنه قد تم كمحصلة للبحث والمناقشات النظرية والاختبارات والتجارب العملية ايجاد وتنفيذ مبادئ جديدة تماما لسياسة الدولة بصدد القوميات.

وفلاديمير لينين هو الذي أرسى أسس هذه السياسة.

فقد طوّر لينين بابداع الأحكام والبنود الحيوية الهامة للماركسية بصدد مسألة القوميات في الظروف التاريخية الجديدة. وفي العصر الذي ضاعفت فيه الامبريالية من حدّة التناقضات القومية الى اقصى حد، وضع لينين نظرية مسألة القوميات وبيّن دور النضال الوطني التحرري، وأعد الأسس العلمية لسياسة الحزب الشيوعي في ما يتعلق بالقوميات.

وفي عام 1913 كتب لينين مقالة "مقالات للنقد فيما يتعلق بمسألة القوميات" وهي ذات أهمية نظرية وسياسية كبيرة في وضع نظرية وبرنامج الحزب فيما يتعلق بمسألة القوميات. والأفكار الواردة بهذه المقالة لم تفقد قيمتها وأهميتها في ظروفنا الراهنة المعاصرة أيضا.

ونوصي بدراسة هذه المقالة وفق الخطة التالية:

– الظروف التاريخية التي كتبت فيها.
– الاتجاهان القائمان في مسألة القوميات في ظروف الرأسمالية.
– الأحكام المنهاجية للحزب الماركسي بصدد مسألة القوميات.
– نقد لينين للبرنامج الانتهازي "للاستقلال الذاتي الثقافي القومي".

الظروف التاريخية التي كتبت فيها المقالة

صدرت "مقالات للنقد فيما يتعلق بمسألة القوميات" عشية اندلاع الحرب العالمية الامبريالية الأولى. وكتب (لينين) في مقدمة هذا العمل ان "مسألة القوميات قد طرحت الآن في مكانة بارزة بين مسائل الحياة الاجتماعية لروسيا. وهذا واضح بداهة. فالنزعة القومية العدوانية لدى الرجعية، وانتقال الليبرالية البرجوازية المضادة للثورة الى النزعة القومية... وتقوية النزعات القومية المتطرفة بين مختلف الاشتراكيين الديمقراطيين القوميين التي وصلت الى حد انتهاك برنامج الحزب في آخر الأمر، هي كلها أمور تلزمنا بإيلاء اهتمام أكثر من ذي قبل لمسألة القوميات"(1).

واحتدمت هذه الاتجاهات والتيارات التي ذكرها لينين نتيجة لهزيمة الثورة الروسية الاولى أعوام 1905 – 1907. وكانت تلك هي أول ثورة شعبية في عصر الامبريالية. فقد كانت شعبية قبل كل شيء من حيث قواها المحركة، قوى البروليتاريا وطبقة الفلاحين في

الدولة الروسية المتعددة القوميات. وكانت البروليتاريا هي المهيمنة في هذه الثورة.
وعقب هزيمة الثورة حلّت الرجعية في كافة الخطوط التي تمس العلاقات القومية أيضا. فإذ فزعت البرجوازية الليبرالية من الابعاد الهائلة للثورة، اقدمت على حل وسط مع السلطة القيصرية. وأيدت السياسة القومية المتطرفة من جانب الحكم المطلق.
وكما تنبأ (لينين) بالضبط جاءت فترة من المد الثوري بعد فترة الرجعية. ونمت الحركة الثورية في الاطراف القومية للبلاد. أضف الى ذلك أن الحرب العالمية الامبريالية التي كانت تقترب حثيثاً والتي أعدت الحكومة القيصرية لها تحت شعار "الدفاع عن الوطن" قد أدت الى نمو النزعة القومية البرجوازية والشوفينية. وتشددت الاتجاهات القومية المتعصبة بين الطبقة العاملة، والانتهازية وسط الاشتراكيين الديمقراطيين بروسيا. ولم تكن روسيا استثناءً من ذلك.
فقد ارتفعت موجة النزعة القومية المتعصبة والشوفينية في كافة البلدان الامبريالية. وغدت الاشتراكية الديمقراطية الدولية هي الاخرى تحت تأثير هذه الأمزجة والميول. وسار بعض منظري وقادة أحزاب الأممية الثانية(2) على طريق تبرير السياسة الامبريالية لحكوماتها. وطرحت مسألة الوحدة الاممية للحركة الثورية بحدّة في تلك الفترة.
وقد حفّز هذا كله الثوار في روسيا وزعيمهم (لينين) لطرح سياسة ماركسية مدروسة ثابتة لمسألة القوميات.

اتجاها مسألة القوميات في ظروف الرأسمالية

تناولنا هذه المسألة في فصل من هذا الكتاب بعنوان "البعبع القومي المتطرف للتجنس". وأورد (لينين) تعريفا للاتجاهين المتضادين في مسألة القوميات على أساس التحليل العلمي للتناقضات في العالم الرأسمالي والتناحرات القومية والسنن الطبيعية في حركات التحرر. وكتب يقول "ان الرأسمالية قيد التطوير تعرف اتجاهين تاريخيين في مسألة القوميات: الاول هو تحفيز الحياة القومية والحركات القومية والنضال ضد كافة أنواع النير القومي، وانشاء الدول القومية. والثاني هو تطوير واكثار كافة العلاقات في ما بين الامم وتحطيم العوائق القومية واقامة الوحدة الأممية للرأسمال والحياة الاقتصادية بوجه عام والسياسة والعلم... الخ. والاتجاهان من خصائص القانون العالمي للرأسمالية. ويغلب الاتجاه الاول في بداية تطورها، أما الاتجاه الثاني فهو مميز للرأسمالية الناضجة السائرة نحو التحول الى مجتمع اشتراكي"(3). وهذا الاتجاه وذاك تقدميان من حيث الفكرة التاريخية الداخلية لهما. والاتجاه الاول يميز طريقة الانتاج الرأسمالية الاخذة في التشكل، في خضم النضال ضد الاقطاع، وأثناء عملية قيام الأمم والدول القومية. وتتولد حركة التحرر كتعبير عن حاجة التطور الاجتماعي.
وفي القرن التاسع عشر أدى تطور الرأسمالية الى ظهور اتجاه نحو منظومة عالمية موحدة للاقتصاد والتقارب التدريجي في ما بين مناطق شاسعة هائلة. ويجري انشاء السوق العالمية ويتقوى تصدير الرأسمال وتتطور طرق المواصلات البحرية والحديدية وغيرها. وتجري عملية التقسيم الدولي للعمل والتبعية المتبادلة الشاملة.
وحيث أن هذا الاتجاه كان يعكس التطور الهائل في القوى المنتجة، فانه يؤدي الى التغلب على الانغلاق القومي، ومن ثم فهو يهيئ المقومات لازالة تضاد مصالح شتى الشعوب.
غير ان الشكل الذي يتطور به هذا الاتجاه لا

يتمشى مع طابعه التقدمي العام. فالامبريالية تحقق التقارب في ما بين الشعوب ليس على أساس التعاون الطوعي في ما بين الأمم، وانما عن طريق عمليات الاستيلاء بالعنف والقسر والقهر واستعباد واستغلال البلدان المستعمرة والتابعة. وهذا التقارب القسري يولد مقاومة وكفاح الشعوب التابعة غير المتكافئة في الحقوق. فطموح الشعوب المقهورة الى التحرر السياسي من التبعية الامبريالية، ونحو اقامة دول قومية مستقلة والميل الى التقارب الاقتصادي في ما بين الأمم، لقي تناقضات مستعصية في ظروف الامبريالية.

وذكر (لينين) انه ينبغي على كافة القوى الثورية والديمقراطية صاحبة المصلحة في احداث التطور التقدمي للأمم والتقارب في ما بينها مراعاة كلا الاتجاهين ووضعهما في الاعتبار.

وتعرض تناول لينين لمسألة هذين الاتجاهين، اللذين يستكمل كل منهما الاخر من الناحية الجدلية في مسألة القوميات في ظروف الرأسمالية وضرورة مراعاتها في سياسة الأحزاب، لتهجمات وتطاولات بالغة العنف والضراوة من جانب الانتهازيين والقوميين المتطرفين الذين عقدوا مفاضلة ديماغوجية بين الاتجاهين. وأدى بهم هذا الى الانتقال الى موقع القومية المتطرفة، من ثم الى نفي ورفض الأممية البروليتارية. كذلك أخطأ بعض زعماء الفصائل القومية في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي لروسيا بالوقوع في هذه النظرة الضيقة لمعالجة مسألة القوميات.

وظهر عدم الفهم هذا بدقة وحدة كبيرة في أسلوب تناول عملية التجانس. فقد طابقوا بطريق الخطأ بين سياسة التجانس التي انتهجتها الحكومة القيصرية وبين التقدم الذي تحمله عملية التوحد ذاته في طياتها. وفتت القوى الوطنية للكادحين من ابناء كافة الأمم هذا الوضع. وكان هذا لصالح البرجوازية سواء برجوازية أمة الدولة العظمى أو البرجوازية القومية.

وكتب لينين في توضيح، خطأ هذا الوضع: "ان من لم ينغمس في الاباطيل والترهات القومية المتطرفة، يرى حتما في هذه العملية للتجانس فيما بين الامم على يدي الرأسمالية تقدما تاريخيا عظيما جدا وهدما للخشونة لشتى اركان الدببة وخاصة في البلدان المتخلفة مثل روسيا".

ويضرب لينين مثلا محددا للايضاح فيقول: "خذوا روسيا مثلا وعلاقة الروس العظام بالاوكرانيين. فبديهي أن أي ديمقراطي، ناهيك بالكلام عن كونه ماركسيا، سوف يناضل بحسم ضد مهانة الاوكرانيين التي لم يسبق لها مثيل، وسوف يطالب بمساواتهم التامة في الحقوق. ولكن من الخيانة الصريحة للاشتراكية، والسياسة الغبية حتى من وجهة نظر (المهام القومية) البرجوازية للأوكرانيين اضعاف الصلة القائمة الان واتحاد البروليتاريا الاوكرانية والروسية العظيمة ضمن نطاق الدولة الواحدة"(4).

وذكر لينين ان الطبقة العاملة تقبل وترحب بتجانس الامم باستثناء التجانس القسري أو القائم على تمييز احداها.

وفي ظروف الاشتراكية نجم طراز جديد من العلاقات القومية والدولية القائمة على التكافؤ في الحقوق واحترام الحقوق القومية لكل شعب والصداقة الاخوية والثقة. وتحقق بلدان الاسرة الاشتراكية واجبها الاممي بثبات والمتمثل في تقديم العون الأخوي الحقيقي الى الشعوب المتخلفة بذنب وجريرة الامبريالية، في تطورها الاقتصادي والثقافي. ويتصدى هذا الطراز من العلاقات للاستغلال الرأسمالي من جانب الامم القومية للأمم الضعيفة، وقمع حقوق وحريات الشعوب.

الأحكام المنهاجية للحزب الماركسي بصدد

مسألة القوميات

قدم الحزب الماركسي الثوري الذي أسسه (لينين) الاحكام المنهاجية الخاصة بمسألة القوميات. وراعى البرنامج البنية المعقدة المتعددة القوميات لروسيا والفواصل الهائلة الشاسعة في مستويات التنمية الاقتصادية في ما بين مناطق البلاد وأطرافها، فضلا عن زرقشة الانماط الاجتماعية. واذا كانت بعض الشعوب قد قطعت آنذاك فترة التطور الصناعي للرأسمالية بدرجة صغرت أم كبرت، فقد كان البعض الاخر في بداية الانجذاب والانخراط في التنمية الرأسمالية، واما في ظروف النظام الابوي العشائري.

كانوا يطلقون على روسيا القيصرية تسمية سجن الشعوب. وكانت الشعوب غير الروسية تماثل أكثر من نصف اجمالي تعداد سكانها، وكانت منتفية الحقوق تماما، فضلا عن تعرضها للاستغلال الماكر والامتهان والاساءة.

وكانت المناطق القومية متخلفة جدا اقتصاديا في العادة. وكانوا ينظرون الى اطراف روسيا على أنها مستودعات للخامات ليس الا. وتركز 60% من اجمالي الصناعات في وسط البلاد والاورال. وكانت الصناعة في اسيا الوسطى، مثلا، ممثلة في عدد صغير من ورش السكك الحديدية والمنشآت الضئيلة التي تمارس التحويل البسيط البدائي للخامات الزراعية (حلج القطن وعصر الزيوت ودباغة الجلود... الخ). وكانت البروليتاريا وليدة لتوها هناك، بينما ظروف المعيشة وكدح العمال أسوأ كثيرا مما لدى اوانهم في الطبقة بوسط روسيا. وكان متوسط اجر العامل الواحد في الصناعة التحويلية في تركستان في عام 1908، مثلا، اقل بمقدار 60% عن المتوسط في الدولة الروسية.

ولم يكن وضع الكادحين في المناطق الزراعية أفضل من ذلك. وكانت المعية الاقطاعية المحلية تخضع الفئات الفقيرة في القرية لتبعيتها التامة. وزاد عدد الفلاحين المعدمين من الارض والماشية والادوات الزراعية.

فقد كان رعاة الماشية الرحل في اسيا الوسطى (وكان قوامهم يزيد على العاملين بالزراعة) يعيشون عيشة صعبة في أغلبهم. ولم يكن لدى اكثر من 11% منهم ماشية، على حين كان نصف اجمالي عدد رؤوس الماشية بالكامل في حيازة الطغمة الاقطاعية القليلة العدد جدا (ما لا يزيد على 3%).

وكان الكادحون في الاطراف القومية محرومين عمليا من أية حقوق سياسية. وكانت السلطة بالكامل معقودة لموظفي القيصر الذين كانوا يديرون دفة الامور، مستغلين في ذلك النفوذ التقليدي لزعماء العشائر المحليين والاقطاعيين باقتدار ومهارة.

وكانت تسود على نحو مصطنع في الاطراف ومناطق وسط البلاد أمزجة ونزعات عدم الثقة بالتبادل، واستفزاز النزعات في ما بين القوميات. وغالبا ما كانوا يضفون الطابع الديني على التفرق والبغضاء.

واذا كان سكان البلاد ككل غير متميزين بالالمام بالقراءة والكتابة (كان غير المتعلمين يمثلون ثلثي عدد الراشدين من السكان على الاقل) فقد كان الجميع تقريبا أممين في الاطراف. وفي عام 1917 كان في اراضي طاجيكستان الحالية عدة مدارس دينية أولية على حين كان تعداد السكان هناك يزيد على المليون نسمة.

وأوليت مكانة هامة للمطالب الخاصة بمسألة القوميات في برنامج حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي لروسيا. وكان الهدف منها هو أن تعكس نضال الطبقة العاملة وحزبها من اجل مقرطة العلاقات القومية وان تفتح أمام كادحي الأمم المقهورة آفاق القضاء على النير الاجتماعي والقومي، وارساء الاساس اللازم

لثقة الشعوب المقهورة تجاه الطبقة العاملة للأمة الروسية، والاسراع بتحقيق الوحدة الاممية للكادحين في النضال الثوري.
وفي وقت لاحق تطورت المطالب الاساسية الهامة الخاصة بمسألة القوميات وتدققت وتحددت وثائق وقرارات الحزب ومؤلفات لينين. ومن بين هذه الاعمال "مقالات للنقد فيما يتعلق بمسألة القوميات".
ولقد شرحت الاحكام المنهاجية بصدد مسألة القوميات على نحو شامل وبررت في اقسام "الليبراليون والديمقراطيون في المسألة الخاصة باللغات"؛ "التكافؤ في الحقوق بين الامم وحقوق الاقليات القومية"؛ "تعميم المركزية والحكم الذاتي".
ولقد تضمن برنامج الاشتراكيين الديمقراطيين الروس بصدد القوميات ما يأتي: "عدم منح أية امتيازات قط لأية أمة أو أية لغة؛ وحل مسألة تقرير المصير السياسي للأمم، أي انفصالها في دول بحرية تامة بالطريق الديمقراطي؛ واصدار قانون عموم الدولة الذي يعلن عدم شرعية وعدم سريان أية تدابير تؤدي الى أية امتيازات كانت لأي أمة من الامم وتنتهك تكافؤ الامم في الحقوق وحقوق الاقليات القومية. ومن حق أي مواطن بالدولة أن يطالب بالغاء هذا التدبير بوصفه مخالفا للدستور وتوقيع العقوبة الجنائية على هؤلاء الذين يجرأون على تطبيقه في الحياة"(5).
والتكافؤ التام في الحقوق بين كافة الامم والاقوام هو أحد المطالب الاساسية للحزب الماركسي الثوري لروسيا. ويبين (لينين) في معرض تبرير هذا المطلب اختلاف المبادئ في موقف الاشتراكية الديمقراطية الثورية والبرجوازية الليبرالية بصدد المساواة في الحقوق بين لغات شعوب روسيا. فسياسة القيصرية كدولة عظمى وغرس اللغة الروسية على نحو مصطنع قد طرحا مسألة بالغة بحدة.
وعمل (لينين) بحسم ضد الغرس القسري للغة واحدة لعموم الدولة. على ان البرجوازية الليبرالية كانت تصر على ذلك. فقد كانت لا تعترف باللغة الام لهذا القوم أو ذاك، الا في حدود معلومة (في المدرسة الاولية مثلا).
وكان موقف (لينين) على النقيض تماما من وجهة نظر البرجوازية الليبرالية في هذه المسألة. فقد كان رأيه ان الاجبار لا يؤدي الى شيء سوى تصعيب وصول اللغة الروسية الى المجموعات القومية الاخرى. وأكد ان احتياجات التنمية الاقتصادية ستؤدي الى ان تصبح دراسة اللغة الروسية أمرا ضروريا للتخاطب فيما بين القوميات"... ان احتياجات الدورة الاقتصادية تجبر القوميات التي تعيش في دولة واحدة (طالما تريد العيش سويا) على دراسة لغة الاغلبية. وكلما زادت ديمقراطية النظام في روسيا وكلما كان تطور الرأسمالية اقوى وأسرع وأوسع، كلما زادت متطلبات الدورة الاقتصادية الحاحا في دفع القوميات المختلفة الى دراسة اللغة المناسبة اكثر من غيرها لتسيير العلاقات التجارية المشتركة"(6).
كان البلاشفة ضد تقديم أية امتيازات، وان ضؤلت، الى أية لغة، وكانوا يزودون من المساواة التامة بين كافة اللغات والامم(7).
وابرز فلاديمير لينين: "اذا ما انتفت الامتيازات بأنواعها وتوقف فرض احدى اللغات، فسوف يتعلم السلافيون جميعا بسهولة ويسر وسرعة كيف يفهمون بعضهم بعضا ولن يهابوا الفكرة "الفظيعة" لالقاء الكلمات بلغات مختلفة في البرلمان المشترك. وذكر ان متطلبات الدورة الاقتصادية سوف تحدد بداهة تلك اللغة التي من الاجدى للأغلبية معرفتها لصالح الصلات التجارية في بلد بذاته.
وسوف يكون هذا التحديد أكثر صلابة اذا ما تقبله سكان مختلف الامم طواعية، وسيكون

أسرع وأوسع كلما كانت الديمقراطية أكثر ثباتا على المبادئ، وكلما كان تطور الرأسمالية أسرع نظرا لذلك"(8).

ويتناول لينين البند المنهاجي الرئيسي، ونعني به تكافؤ الامم والاقوام في الحقوق في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والحكومية والثقافية والاجتماعية والسياسية، في فصل من هذه المقالة بعنوان "التكافؤ في الحقوق بين الامم وحقوق الاقليات القومية".

وينبغي هنا بوجه خاص توجيه الانتباه الى تحديد لينين لطرق اقامة تكافؤ الامم في الحقوق، قد نوقشت في تلك الايام بين منظري الاممية الثانية ايضا. وكانوا يفهمون بالتكافؤ في الحقوق، المساواة الحقوقية البحتة. فمن رأيهم انه يكفي الاعلان الشكلي عن "مساواة الامم". وسبب اخفاق هذا الموقف هو انه كان يقصد الاقليات القومية الاوربية وحدها. فلم يهتموا بمصير الملايين من ابناء الشعوب المقهورة في المستعمرات والبلدان التابعة.

ان اعلان التكافؤ في الحقوق في ما بين الشعوب في الواقع الحي ما هو الا خطوة أولى، وليس الخطوة الرئيسية بحال لتحرير الاقوام من النير القومي. فتحقيق التكافؤ الفعلي في ما بين الامم يتطلب القضاء على التخلف الاقتصادي والسياسي والثقافي لكافة الشعوب.

وبيّن لينين أهمية الخبرة المعلومة الموجودة فعلا في العالم كالحل الديمقراطي لمسألة القوميات في سويسرا مثلا.

فتحقيق حقوق الاقلية القومية وثيق الصلة بمبدأ التكافؤ التام في الحقوق في ما بين الامم والاقوام. وكان البلاشفة يعترفون بضرورة "ان يضمن الدستور قانونا أساسيا يعلن عدم سريان أية امتيازات كانت لأية امة من الامم وأية انتهاكات كانت لحقوق الاقلية القومية"(9). وبمقتضى هذا القانون الاساسي كان المقترح أن يتم الاعداد التفصيلي وتطوير حقوق الاقليات القومية في القوانين المعيارية الخاصة للمقاطعات والمدن والمشاعيات... الخ"(10).

أولى (لينين) أهمية كبيرة للنظام القومي المقبل للدولة في البلاد. وقال (لينين) ان الماركسيين لا يستطيعون قبول الاتحاد الفيدرالي البرجوازي. فالاتحاد الفيدرالي هو تحالف بين متساويين. ويستحيل في ظروف الرأسمالية اقامة تحالف متكافئ في الحقوق للدول القومية، لأن العلاقات في ما بينها تبنى على أساس الاخضاع، والذود عن العلاقات الاتحادية في ما بين الدول في هذه الظروف يكون معناه تأييد الطموحات القومية المتطرفة للبرجوازية.

"والماركسيون بالطبع يعادون الاتحاد الفيدرالي وفك المركزية لسبب بسيط هو ان الرأسمالية تتطلب لتطورها دولا اكثر ضخامة قدر الامكان وأكثر مركزية قدر الامكان. وفي ظل ظروف اخرى متكافئة فسوف تطالب البروليتاريا الواعية دائما بالذود عن دولة اكثر ضخامة. وسوف تناضل باستمرار ضد طموح بعض أجزاء الدولة للتمييز والتفرد على حساب مصالح عموم الدولة الذي كان سائداً في العصور الوسطى وسوف ترحب باستمرار التكاتف الاقتصادي الوثيق الممكن في ما بين المناطق الكبرى والتي يمكن ان ينبسط فيها نضال البروليتاريا ضد البرجوازية على نطاق واسع"(11).

ونرى من ناحية أخرى ان (لينين) قد أيد في وضع تاريخي محدد معين اخر مبدأ الاتحاد الفيدرالي وفكرة انشاء جمهورية البلقان الديمقراطية الفيدرالية مثلا. وكان من شأن انشاء هذه الجمهورية أن ينهي على نحو أخف مرات كثيرة واقل ايلاما الخلاف القومي والقهر الاقطاعي، ولكان من شأنه أن يعيق التدخل المستمر من جانب البلدان الامبريالية بأوربا في شؤون شعوب البلقان.

دافع البلاشفة عن مبدأ المركزية الديمقراطية

في ما يتعلق بمسألة القوميات. فما هو الفارق المبدئي في نظر لينين بين المركزية الديمقراطية وبين المركزية البيروقراطية؟ ان المركزية الديمقراطية في المفهوم الماركسي تفترض حتما الى جانب المركزية توفير الادارة الذاتية الواسعة للاقاليم المتميزة بظروف اقتصادية ادارية ومعيشية خاصة وبقوام قومي خاص بالسكان... الخ. والادارة الذاتية للاقاليم محسوبة على التخلص الحقيقي من عدم تكافؤ الامم في الحقوق، ومنحها حريات متساوية في التنمية السياسية والاقتصادية والثقافية.

"فمن البديهي تماما استحالة ان نتصور دولة عصرية ديمقراطية حقا دون منح هذا الحكم الذاتي لكل اقليم يتميز بأي قدر يذكر من الخصائص الاقتصادية والمعيشية وبقوام خاص للسكان... الخ. ان مبدأ المركزية الضروري لصالح تطوير الرأسمالية لا يتفوض بمنح هذا الحكم الذاتي المحلي والاقليمي، بل على العكس نراه يتحقق بفضله بطريقة ديمقراطية وليس بطريقة بيروقراطية. ان التطور العريض الحر السريع للرأسمالية كان من شأنه أن يكون بالغ الصعوبة دون هذا الاستقلال الذاتي الذي يسهل تركيز رؤوس الاموال وتطوير القوى المنتجة وتكاتف البرجوازية والبروليتاريا على نطاق عموم الدولة. ذلك ان التدخل البيروقراطي في المسائل الاقليمية والقومية... الخ البحتة هو احدى العقبات الضخمة جدا التي تعيق التنمية الاقتصادية والسياسية بوجه عام واحدى العقبات التي تواجه المركزية بوجه خاص في الشيء الجاد الضخم والاساسي"(12).

والى جانب القوام القومي للسكان، كان لينين يرى الاهمية البالغة للظروف الاقتصادية والمعيشية وغيرها التي يحق للسكان المحليين بمقتضاها تحديد حدود الجمهوريات والاقاليم الذاتية الحكم والدوائر القومية الذاتية الحكم وغير ذلك من الوحدات الاقليمية الادارية.

أما اقرارها فهو من حق الاجهزة التشريعية المركزية. وكان (لينين) يصر إزاء ذلك على الادارة الذاتية المحلية الديمقراطية تماما"(13).

وبعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا قام (لينين) بتحديد تصوره بما يتمشى مع الظروف الجديدة في معرض تعميم خبرة ارساء الشعوب أسس كيانات دولها القومية الخاصة. وبنتيجة للتحليل العلمي العميق وابداع تطبيق الماركسية على الواقع الحي الثوري لروسيا، اكتشف نوعا جديدا من انواع الاتحاد الفيدرالي.

ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية هو كيان جديد للدولة قائم على أساس مبادئ الاتحادية الفيدرالية الاشتراكية وحقق التكاتف الأممي والازدهار الحقيقي والصداقة بين الشعوب الداخلة فيه(14).

وينبغي ذكر انه اثناء النضال ضد النير الاستعماري كونت بلدان نامية كثيرة اتحادات واتحادات فيدرالية، وغير ذلك من انواع توحيد الدول على الاساس الديمقراطي. وتلعب هذه الاشكال للاتحاد دورا تقدميا في تطويرها. وفي الوقت نفسه يستغل الامبرياليون المبدأ الفيدرالي لنظام الدولة في المناطق المتعددة القوميات في يومنا الراهن أيضا كأحد الاشكال الأكثر انتشارا للاستعمار الجديد. فهم يحاولون فرضه على أي بلد متحرر كثقل مقابل لطموح الاوساط التقدمية الى انشاء دول مركزية موحدة. ان النظم الفيدرالية المفروضة عنوة تؤدي في واقع الامر الى اضعاف حركة التحرر الوطني وتفرمل التقدم القومي والتنمية السياسية والاقتصادية والثقافية للشعوب.

وهكذا نرى ان استنتاج (لينين) بصدد ضرورة وضع الظروف التاريخية المحددة والممارسة في الحسبان لدى اختيار الاشكال المثلى لكيان الدولة بالبلدان المتعددة

القوميات ومبدأ المركزية الديمقراطية واقرار التكافؤ الحقيقي في الحقوق والمساواة بين الامم والشعوب، تظل هي المسائل الاساسية في حل المشاكل القومية في يومنا الراهن أيضا.

نقد لينين للبرنامج الانتهازي "للاستقلالية الذاتية الثقافية والقومية"

كان من أخطر الشعارات التي روجت لها البرجوازية والانتهازيون المقولة الخاصة "بالثقافة القومية". فقد دأبت البرجوازية على برهنة وجود ثقافة واحدة لدى كل أمة، ولذا فان المصالح الاجتماعية السياسية لديها واحدة وينبغي على البروليتاريا والبرجوازية في الامة الواحدة أن يدافعا عنها سوياً. وكتب لينين في تفنيد هذه الارشادات الانتهازية: "ان الديمقراطية العمالية تضع في قبالة التطاحن القومي في ما بين مختلف الاحزاب البرجوازية بسبب المسألة المتعلقة باللغة.... الخ، تضع مطلب: الوحدة الحتية والتلاحم التام في ما بين عمال كافة الاقوام في كافة المنظمات العمالية المهنية والتعاونية والاستهلاكية والتنويرية وغيرها، كثقل مضاد لأية قومية برجوازية. فهذه الوحدة وهذا التلاحم هما القادران وحدهما على الذود عن الديمقراطية ومصالح العمال ضد الرأسمال – الذي اصبح امميا فعلا، ويصبح امميا على نحو متزايد، – الذود عن مصالح تطور البشرية نحو النمط الجديد للمعيشة الذي لا يعرف أية امتيازات أو أي استغلال"(15).

ان شعار "الثقافة القومية" قد موه التناحرات الطبقية في ما بين الاستغلاليين والواقع عليهم الاستغلال داخل كل أمة.

ولقد أبرز فلاديمير لينين انه في ظروف الرأسمالية فان هذا الشعار خداع بالغ الرجعية للجماهير. انه موجه نحو الاستعباد الروحي للكادحين على أيدي الاستغلاليين. وقال لينين ان برجوازية كل الامم قد انتهجت سياسة تفتيت العمال وسائر القوى الديمقراطية تحت شعار "الثقافة القومية". ان أية قومية ليبرالية برجوازية قد ألحقت الخسارة بالنضال الطبقي للبروليتاريا. وكتب (لينين) ان: (شعار الديمقراطية العمالية ليس هو "الثقافة القومية" وانما هو الثقافة الاممية للديمقراطية والحركة العمالية العالمية. ولتخدع البرجوازية الشعب بأية برامج قومية "ايجابية". فالعامل الواعي سيجيبها: هناك حل واحد فقط لمسألة القوميات – اذ يمكن بوجه عام حلها في عالم الرأسمالية، عالم الثراء والتطاحن والاستغلال –، وهذا الحل هو الديمقراطية الثابتة على المبادئ"(16).

وذكر (لينين) انه في ظروف الرأسمالية لا يمكن ان تكون هناك ثقافة "واحدة" فوق الطبقات. "ففي كل ثقافة قومية هناك عناصر وان لم تكن غير متطورة، للثقافة الديمقراطية الاشتراكية لأنه يوجد في كل امة كادحون وجماهير يقع عليها الاستغلال تولد ظروف معيشتها ايديولوجية ديمقراطية واشتراكية حتما. ولكن يوجد لدى كل امة كذلك ثقافة برجوازية (ما زالت في اغلبيتها ثقافة المئة السود والثقافة الكنائسية). ومن الجدير بالذكر ان ذلك ليس على هيئة "عناصر" فقط، بل وعلى هيئة ثقافة متسيدة. ولذا فان "الثقافة القومية" بوجه عام هي ثقافة كبار ملاك العقارات والقساوسة والبرجوازية"(17).

وهكذا نجد ان دفاع الانتهازيين عن شعار "الثقافة القومية" قد عنى في واقع الامر الدفاع عن الثقافة البرجوازية المتسيدة.

ودعا لينين الاشتراكيين الديمقراطيين الى وضع الثقافة الاممية الديمقراطية والحركة العمالية العالمية في مقابل الثقافة القومية

البرجوازية. "اننا بطرح شعار "الثقافة الاممية للديمقراطية والحركة العمالية العالمية" نأخذ من كل ثقافة قومية عناصرها الديمقراطية والاشتراكية فقط ونأخذها وحدها حتما في نقيض الثقافة البرجوازية والقومية البرجوازية لكل امة. ولا ينفي أي ديمقراطي، وناهيك بالكلام عن كل ماركسي، التكافؤ في الحقوق بين اللغات أو ضرورة الجدل باللغة الأم مع البرجوازية "الام" وترويج الافكار المعادية للكنيسة والبرجوازية وسط طبقة الفلاحين أو أهل المدن "الام"[18].

وأبرز ان "القومية البرجوازية والأممية البروليتارية هما شعاران متعاديان عداءً لا هوادة فيه، تبعا للمعسكرين الطبقيين الكبيرين في العالم الرأسمالي كله، ويعبران عن سياستين (بل وعن عقيدتين) في مسألة القوميات"[19]. ولذا فان كل من تقبلوا شعار "الثقافة القومية" وبنوا عليه البرامج العملية "للاستقلالية الذاتية الثقافية القومية" هم في واقع الامر موصلو القومية البرجوازية المتطرفة الى وسط العمال. وكتب (لينين): "ان معنى شعار "الثقافة القومية" لا يتحدد من واقع الوعود أو النوايا الطيبة من جانب هذه البنية في تفسير هذا الشعار" بمعنى اجراء الثقافة الاممية من خلاله". ان النظر الى الامر على هذا النحو يكون رأيا ذاتيا طفوليا. ان معنى شعار الثقافة القومية يتحدد من واقع التناسب الموضوعي بين كافة طبقات البلد المعني وكل بلدان العالم"[20]. لقد أيدت الاحزاب البرجوازية والبرجوازية الصغيرة في روسيا برنامج الاستقلالية الذاتية القومية للثقافة.

ان مقابلة العملية الموضوعية لتحطيم العوائق القومية بالحفاظ عليها بشكل مصطنع يشهد على الطابع الطوباوي والرجعي لبرنامج الاستقلالية الذاتية الثقافية القومية. أضف الى ذلك ان البلاغ الطبقي في ما بين البروليتاريا والبرجوازية قد استبدل بفكرة خيالية عن التعاون الطبقي على اساس ثقافة قومية واحدة غير موجودة في المجتمع البرجوازي.

واذا اجزنا ان في المجتمع الرأسمالي يسود التكافؤ الفعلي في الحقوق بين الامم فان اية استقلالية ذاتية ثقافية قومية تعد زائدة لا حاجة لها. وكتب لينين: "هناك امتان في كل امة عصرية، هذا ما نقوله لكل الاشتراكيين القوميين. وهناك ثقافتان قوميتان في كل ثقافة قومية"[21]. ولكن في حالة عدم المساواة بين الامم والاقوام، فانها تظل طوباوية، وتكون الدعاية لها هي أكثر الاشكال دقة للدعاية للقومية المتطرفة.

وكتب (لينين): "ان مسألة الشعار الخاص بالثقافة القومية له أهمية كبيرة بالنسبة للماركسيين، ليس فقط لأنه يحدد المحتوى الفكري لدعايتنا كلها ودعوتنا في ما يتعلق بمسألة القوميات خلافا عن الدعاية البرجوازية، بل ولأن برنامجا كاملا من الاستقلالية الذاتية السيئة الصيت للثقافة القومية قد بنى على هذا الشعار"[22].

لقد استغل الانتهازيون برنامج الاستقلالية الذاتية للثقافة القومية كأساس نظري للبرهنة على ضرورة اجراء البنية التنظيمية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي لروسيا حسب المعيار القومي. ولقد عمل لينين بثبات ضد القومية المتطرفة والانتهازية في بناء الحزب أيضا.

---

* عن دار نشر وكالة "نوفوستي"، موسكو، عام 1987.

1 - فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 115. والمقصود بـ"الاشتراكيين الديمقراطيين" هي تلك التسمية التي اطلقها على انفسهم اعضاء الحزب الماركسي لروسيا حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي لروسيا. وأعلن تأسيس الحزب في عام 1898 على حين ان تأسيسه الفعلي قد حدث عام 1903 أثناء المؤتمر الثاني للحزب. وانقسم الحزب على الفور الى تيارين: تيار البلاشفة الثوار الثابتين على المبادئ (وكانوا هم الاغلبية في المؤتمر) وتيار الاصلاحيين المناشفة. وبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عام 1917 تم بناء على قرار المؤتمر السابع للحزب تغيير تسميته الى الحزب الشيوعي لروسيا.

2 - الاممية الثانية هي الاتحاد الدولي للأحزاب الاشتراكية الذي انشئ في ظروف انتقال الحركة العمالية الدولية الى درجة جديدة أعلى من التطور، وتتصف بتشكيل الأحزاب السياسية للطبقة العاملة في طائفة من بلدان أوربا والولايات المتحدة الأمريكية. وتأسس الاتحاد في باريس عام 1889. وكان مؤسسه وقائده الفكري هو فردريك أنجلز. وبعد وفاته تغلبت الاتجاهات والتيارات الانتهازية في الأممية.

3 - فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 124.

4- لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 127.

5- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 118.

6- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 116.

7- يجب الاطلاع ولو بايجاز على مقالة اخرى للينين بعنوان "هل الامر بحاجة الى لغة الزامية للدولة؟" (عام 1914) حتى يمكن فهم هذا الموضوع على نحو أفضل، حيث ان له أهمية مبدئية في ايامنا الراهنة ايضا.

8- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 117.

9- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 140.

10- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 142.

11- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 143.

12- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 145 – 146.

13- نفس المصدر، ص 149.

14- في 30 ديسمبر عام 1922 قام المؤتمر الاول للسوفيات لعموم روسيا بناء على الرغبة والارادة الحرة للشعوب باعلان قيام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وثبت الدستور السوفيتي الاول (عام 1924) تشريعا توحد الجمهوريات السوفيتية في دولة واحدة متعددة القوميات على أساس سيادتها والتكافؤ التام في الحقوق فيما بينها.

15- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 118 – 119.

16- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 118.

17- فلاديمير لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 24، ص 120 – 121.

18- نفس المصدر السابق، ص 121.

19- نفس المصدر، ص 123.

20- نفس المصدر، ص 121.

21- نفس المصدر، ص 129.

22- نفس المصدر، ص 130 – 131.

نصوص مترجمة

ثورة اكتوبر وعصر الثورة العالمية المضادة *

بقلم: فرانك ديب
ترجمة: رشيد غويلب

الدكتور فرانك ديب، من مواليد مدينة فرانكفورت في غرب المانيا، مفكر واستاذ للعلوم السياسية في جامعة ماربورغ الألمانية. كان احد كوادر الحركة الطلابية التي قادت اضرابات الطلبة في عام 1968. ونشط في العديد من الحملات والمبادرات اليسارية. عضو المجلس العلمي لحركة "اتاك" المناهضة للعولمة. عضو رئاسة مؤسسة روزا لوكسمبورغ للبحوث التابعة لحزب اليسار الألماني. عضو هيئة تحرير مجلة التجديد الماركسي التي نشرت هذه المقالة فيها لأول مرة، وعضو هيئة تحرير مجلة "الاشتراكية". صدرت له عشرات الكتب وله العديد من المقالات والمحاضرات في مجال العلوم السياسية وتاريخ الماركسية والحركات اليسارية.

1 – خلفية الأحداث [1]

في نيسان 1885 راسلت الثورية الروسية فيرا زاسوليتش [2] أنجلس المقيم في لندن. وكانت لا تزال تعيش، بعد محاولة اغتيال احد ممثلي القيصر في منفاها في جنيف. وهناك اسست مع جورجي بليخانوف وآخرين مجموعة "تحرير العمل". والآن ترسل الى أنجلس عمل جديد لبليخانوف طالبة منه التعليق عليه. عبّر انجلس عن سعادته لوجود حزب "بين الشبيبة الروسية (حينذاك) يعلن تبنيه علنا وبصراحة النظريات الاقتصادية والتاريخية لماركس، ويعلن القطيعة التامة مع جميع التقاليد الفوضوية والسلافوفيلن" بعدها تناول "الوضع في روسيا الذي "يقترب من 1789". الثورة يجب ان تندلع في وقتها المحدد، ويمكن ان تندلع في اي يوم. وفي ظل هذه الظروف، فان البلاد كلغم موقوت، يحتاج المرء الى اشعال فتيله فقط... وهذه هي احدى حالات الاستثناء، التي يمكن فيها لحفنة من الناس، صنع الثورة، وهذا يعني اسقاط نظام اكثر من متزعزع بالكامل بواسطة دفعة صغيرة... ومن خلال فعل غير مهم تنطلق القوى المتفجرة والتي لم يعد بالامكان ترويضها". (ماركس انجلس – الأعمال الكاملة المجلد 36 صفحة 340 [3]. في كتابه حول "حرب الفلاحين الالمانية" (1850) حذر أنجلس من "ثورة مبكرة" يواجه قادتها تناقضات عصية على الحل: "ان اسوأ ما يمكن ان يواجهه قائد حزب رايكالي، عندما يجبر، على استلام السلطة في مرحلة، تكون فيها الحركة غير ناضجة لقيادة سلطة الطبقة التي يمثلها، ولتنفيذ الإجراءات التي تتطلبها سلطة هذه الطبقة. ولا يتوقف ما يستطيع القيام به على رغباته، بل على درجة التباين الذي يحرك الطبقات المختلفة، ودرجة تطور الظروف المادية القائمة، وظروف الإنتاج

وحركة العلاقات، التي تعتمد عليها درجة تطور التناقضات الطبقية في كل حين... سيجد نفسه بالضرورة امام معضلة عصية على الحل: ما يمكن ان يفعله يتعارض مع كل مواقفه السابقة، مبادئه، ومصالح حزبه الانية، وما ينبغي ان يفعله غير قابل للتنفيذ... (ماركس انجلس – الأعمال الكاملة المجلد 7 صفحة 400/ 401).

عشية ثورة سياسية

لقد تنبأ أنجلس لروسيا بثورة سياسية، وليس ثورة اجتماعية (4)، وقد اتفق الكثير من معاصريه مع تقييمه لـ"الوضع في روسيا"، وخصوصا بين المثقفين الروس، الذين ينحدر الكثير منهم من اصول ارستقراطية. واعتبروا الإمبراطورية الروسية الكبيرة عملاقا رجعيا ومتخلفا – التي شكلت مع بروسيا وإمبراطورية هابسبورغ سلطة قائدة في اطار في "التحالف المقدس"، الذي كان تحالفا معاديا للثورة، والذي ثبت في مؤتمر فيينا بعد عام 1812 ميزان القوى في أوروبا لصالح الإقطاعية المتأخرة، والنظم الملكية المطلقة في روسيا، هابسبورغ، بروسيا.

سياسيا، امتدت سلطة القيصر من أوروبا الوسطى إلى المحيط الهادئ. وكان 80 – 85% من سكان الامبراطورية من الفلاحين، الذين تحرر الكثيرون منهم من القنانة في عام 1861. وكانت حالتهم الاقتصادية قد ساءت، وعاشوا حياة الفقر والجهل والقمع على ايدي الأرستقراطية والشرطة والمؤسسة العسكرية. وادى انحسار المحاصيل، وانتشار المجاعة في بداية تسعينات القرن التاسع عشر الى تفاقم الفقر في الارياف. وكانت القرى خاضعة لنظام الادارة الذاتية المحلية (مير) تحت اشراف موظفي القيصر. واجبر القصور في اقتصاد الكفاف الفلاحين على العمل كعمال موسميين في المزارع، او كعمال في مناجم الفحم والمصانع، على الرغم من ان حرية حركتهم كانت محدودة للغاية. وكان مستوى الغضب في الارياف عاليا جدا، وشكل بذلك عاملا مهما في اندلاع الاضرابات الثورية التي كانت تنتظرها البلاد في بداية القرن العشرين. وبدأ التصنيع في البلاد بمستوى منخفض بعد عام 1890 – وبدأت الآن الصناعات الثقيلة والهندسة الميكانيكية جنبا إلى جنب مع السكك الحديدية (5) – في كثير من الأحيان بالاعتماد على رأس المال الاجنبي. حتى عام 1917، بقيت الطبقة العاملة الصناعية، أقلية صغيرة على الرغم من أن فلاحين قد قرروا بعد إصلاحات 1906 الانتقال بشكل دائم، كعمال صناعيين، إلى المدن. وفي المناطق الصناعية القديمة كان 4 في المائة فقط من السكان في عام 1900 يعملون في المصانع (اندرسون 2010 ـ صفحة 55).

وكانت الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضي غير قادرة، على مواجهة القيصر، وعلى فرض الاصلاحات في النظام السياسي.

وكان "النبلاء طفيليين مجتمعيا... وجميع ملاك الأراضي تقريبا كانوا يعيشون خارج سقف امكانياتهم المادية: كانت البضائع مثقلة بالديون، وتحول قسم كبير من العبيد الى ضفة النبلاء، وكان سوق البضاعة محدود، بحيث كان هذا الواقع يزداد سوءا، وخصوصا عندما اصبح الفلاحون لا يدخلون السوق الحرة دون نصيبهم في الارض"، (Scheibert 1973 صفحة 122).

ووفرت الخدمة في الجيش ودوائر الدولة فرصة للصعود. وفي الوقت نفسه انحدر كثير

من ثوريي القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين من عوائل النبلاء الهابطة في السلم الاجتماعي. ولتغيير العلاقات المجتمعية والسياسية في روسيا لم يروا طريقا آخر غير العنف ضد المتسلطين. وارتباطا باستقرار القيصرية حتى بداية القرن العشرين، وقع الكثير منهم في مصيدة التشاؤم واللامبالاة.

تطور الرأسمالية في روسيا

في سجون القيصرية، في المنفى السيبيري، وفي منافي اوربا الغربية – لا سيما في سويسرا – تشكلت المجموعات القيادية للثورات التالية. وفي العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر اكتمل – ولا سيما في أوروبا الغربية – صعود الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية والاشتراكية والنقابات والمنظمات الثقافية التي تستند الى تعاليم ماركس وإنجلز. وعند تأسيس الأممية الثانية – 1889 في باريس – لعب الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان بقيادة أوغست بيبيل، والذين واجهوا بنجاح ملاحقة قوانين بسمارك "الاشتراكية"، دور القيادة والتوجيه. وابتعد الثوريون الروس عن الفوضوية، الباكونينية، وعن التركيز على الريف والفلاحين. افترضوا انه مع "تطور الرأسمالية في روسيا" (لينين 1899) فان الصراع بين رأس المال والعمل، وكذلك تطور الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا، سيصبح محور الصراعات السياسية والاجتماعية المستقبلية الحاسم، والتي سيتم التركيز فيها – كمرحلة اولى – على تدمير سلطة النظام القيصري، والسلطة السياسية للطبقة الأرستقراطية.
حتى قيام الثورة عام 1905 كان الثوار المستندون الى الماركسية يرون أن الثورة البرجوازية، في البداية، هي المطروحة على جدول العمل، والتي سيتم من خلالها تسريع تطور الرأسمالية. ومع ذلك نما بعد ثورة 1905 إدراك ان الإطاحة بالنظام القديم وبآفاق اشتراكية، تعتمد بشكل كبير على تحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء. وفي عام 1883 تأسست مجموعة "تحرير العمل" من قبل (جورجي بليخانوف) وآخرين بينهم (فيرا زاسوليتش) التي مر ذكرها. وفي عام 1898 تأسس الحزب الديمقراطي الإجتماعي الروسي (الاشتراكي الديمقراطي – في الترجمات القديمة)، في (منسك) من قبل 9 شخصيات يمثلون منظمات سرية متعددة. وانضم الى صفوف الأممية الثانية. وفي هذا الوقت كان لينين موجودا في منفاه السيبيري. وفي عام 1903، حدث في (لندن) الانشقاق الى البلاشفة (كتلة الأكثرية) بزعامة لينين والمناشفة (كان ليو تروتسكي حتى ذلك الوقت أحدهم). واكتمل الانشقاق التنظيمي في عام 1912. اطلق البلاشفة على انفسهم تسمية الحزب الديمقراطي الاجتماعي الروسي (البلاشفة). وتغيرت تسمية الحزب في عام 1918، بعد ثورة اكتوبر، الى الحزب الشيوعي الروسي (البلاشفة)، والذي غير اسمه في عام 1952 الى الحزب الشيوعي السوفيتي.

لينين: "ما العمل"؟

في روسيا عمل الحزب، باستثناء فترة 1905 القصيرة، بسرية صارمة، وتعرض اعضاؤه والمتعاطفون معه الى الملاحقة والإعتقال. وفي المهجر في اوربا الغربية شارك قادته في مناقشات الأممية الثانية، و(مناقشات الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان). دعا لينين في كتابه "ما العمل"؟ (1903) الى فكرة ان حزب البلاشفة يمتلك

كادرا سريا – وحزبيا (طليعة) يتكون من "ثوريين محترفين". وينبغي ان يقاد الحزب على وفق مبدأ "المركزية الديمقراطية". وقد انتقدت (روزا لوكسمبورغ) القادمة من بولندا الخاضعة للروسيا، انتقدت هذا الموقف بشدة. وشككت بفكرة قيادة شديدة المركزية للحزب من الأعلى، وكذلك بالمفهوم اللينيني عن "الوعي الطبقي" (على عكس "الوعي النقابي" للعمال) الذي ينبغي على "الثوريين المحترفين" تعلمه في المدارس الحزبية الماركسية النظرية. وبالضد من ذلك دعت روزا الى مفهوم حزب جماهيري ديمقراطي، ينبغي ان يكون قادرا على قيادة الحركات الطبقية الى هدف التغيير الثوري(6).

كان معظم المهاجرين "الروس" قد عاشوا مغامرات الفرار من السجون القيصيرية المحصنة، او المنفى السيبيري، احيانا ما يجدون زاوية مظلمة في احد مقاهي النمسا. وفي المانيا وسويسرا اسسوا دور نشر وصحفا. وبدوا بالنسبة لاعضاء مجلس النواب الديمقراطيين الاجتماعيين، ولمحترفي العمل في اتحاد النقابات، شخصيات مغامرة، غالبا ما يختلفون في ما بينهم، ويطلبون من "الألمان" لعب دور الوسيط، مثلا، عندما يختلف البلاشفة والمناشفة على مالية الحزب.

وفي مؤتمر الأممية في عام 1907 في مدينة شتوتغارت الألمانية، التي انشغلت باخطار الحرب التي تلوح في الأفق، تعاون لينين وروزا لوكسمبورغ مع المنشفي مارتوف في صياغة البيان الختامي، الذي ادى في السنوات اللاحقة – بتعبير ادق: لعب دورا استثنائيا في انشقاق الحركة العمالية العالمية في الحرب العالمية الأولى. لقد أقر البيان بالإجماع وتضمن ما يأتي: "خطر اندلاع الحرب يهددنا، ولهذا فالطبقات العاملة وممثليهم البرلمانيين في البلدان المشاركة مطالبين، وبدعم من مجمل نشاطات المكتب الأممي، ببذل كل جهد ممكن، واستخدام كل الوسائل التي تبدو مؤثرة، لمنع اندلاع الحرب، والتي تتغير طبيعتها تبعا لتكثيف النضال الطبقي وتفاقم الوضع السياسي العام. واذا ما اندلعت الحرب، فان الواجب انهاؤها بسرعة، والسعي بكل ما أوتينا من قوة لتوظيف الازمة الاقتصادية والسياسية الناجمة من الحرب، ولإثارة الشعب وبالتالي الإسراع في القضاء على حكم الطبقة الرأسمالية". (المجلد1 صفحة 344 .Zit N. Braunthal،).

الحروب مفجرة الثورات

ان الحرب هي من حددت في النهاية اندلاع الثورة في روسيا (Halliday 1999: 234 ff)، والثورات تقف دائما في سياق الصراعات الدولية وتوازن القوى. فثورة 1905 جاءت بعد الهزيمة في الحرب مع اليابان، ولكنها تفجرت بواسطة ما يسمى بـ"الأحد الدامي"، عندما شق 200 الف عامل طريقهم، بقيادة كاهن، الى قصر القيصر لتقديم مطالبيهم. هناك قام الجيش باطلاق النار عليهم.

وتفجرت ثورتا شباط واكتوبر 1917 في المرحلة النهائية من الحرب العالمية الأولى، عندما ادت الهزيمة العسكرية الى تسريع عملية انهيار الدولة وسلطة الاستبداد. وكانت القطعات العسكرية التي نقلت في شباط 1917 الى بطرسبورغ، لقمع الثورة، قد رفضت اطلاق النار على العمال المضربين، والكثير من الجنود انتقل الى صف المقاومين. وفي الوقت نفسه تنامت

الاضطرابات بسبب انتفاضة الفلاحين في الريف. وبطبيعة الحال أخذ العمال المبادرة في مدن بطرسبورغ وموسكو اللتين شكلتا المركز. وجاء تشكيل مجالس العمال – في عام 1917 من قبل العمال والفلاحين والجنود، نتيجة الإضرابات في المصانع وكذلك الحركات الجماهيرية السياسية التي طالبت بسقوط القيصر. ان سوفيت بتروغراد في عام 1905، الذي كان متحدثه الشاب ليون تروتسكي (Deutscher 1962: 128) والصفحات التي تليها) ألهم في نهاية الحرب العالمية الأولى حركة المجالس ليس في روسيا فقط، بل في العديد من البلدان الأوربية (7). وفي تورينو/ إيطاليا اضرب عمال شركة فيات في شباط 1917، تحت شعار "دعونا نفعلها مثل الروس!".

عند مقارنته لاسباب الثورات الثلاث الكبرى منذ 1789، اكتشف (Theda Skocpol، 1979: 99) انه – في جميع الحالات – كانت الأزمة الثورية ناضجة، لان البنية الزراعية اصطدمت بالتنظيم الاستبدادي والبيروقراطي للدولة. حيث حوصرت سياسات الاصلاح التي مارستها الدولة، والتي كانت ضرورية، لمواكبة المنافسة العسكرية، في عالم يخضع لحالات تحول متفاوتة في ظل الرأسمالية. "في روسيا كانت الارستقراطية الريفية عيفة، وغير قادرة على محاصرة الاصلاحات من الأعلى. ولكن الاقتصاد الزراعي والبنية الطبقية في الريف لعبت دور الكابح لعمليات التصنيع التي ابتدأتها الدولة. وبالتالي، كان من المستحيل بالنسبة لروسيا القيصرية، اقتصاديا وعسكريا، اللحاق بالرايخ الألماني، والعدو المحتمل الرئيسي في منظومة الدول الأوروبية... وكان التأثير النهائي لمحاصرة الإصلاحات التي تقودها الدولة تراجع الاستبداد الملكي وتفكك التنظيم الإداري والعسكري المركزي للدولة... واتسعت الانتفاضة من الأسفل، دون ان تستطيع الطبقات المتسلطة استخدام الاجراءات المعتادة لحماية الامبراطورية المستبدة. لقد بدأت الثورة الاجتماعية".

تناقضات استثنائية متصارعة

عندما يتم تحديد خلفيات الثورة بواسطة تناقضات استثنائية متصارعة، والتي تعود الى الهيكلية الاقتصادية، العلاقات الطبقية، واسلوب تنظيم الدولة، عندها لا يكفي التفسير البسيط، لازمة العالم القديم (التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج)، وتفعيل الصراع الطبقي. اندلعت ثورات العصر الحديث الكبيرة في دول (فرنسا القرن الثامن عشر، وكذلك روسيا والصين القرن العشرين) كانت يهيمن فيها القطاع الزراعي والفلاحون(8). وفي الوقت نفسه لعبت الدولة وموقعها في النظام الدولي دورا كبيرا بالنسبة لاسباب الثورة ومسارها (Halliday، 1999). وجاءت ثورات القرن العشرين بالترابط مع الحروب، الحربين العالميتين، والحرب الاهلية الوطنية. لقد جاءت الثورة الروسية 1917 في سياق الحرب، الهزيمة، وازمة الدولة، وكانت انتفاضة الريف حاسمة ايضا، فقد كانت مرتبطة بتوقع، ان ثورة الفلاحين سوف لا تجلب السلام فحسب، بل الحرية والأرض ايضا. تم تحديد الحراك السياسي للثورة بفعل النشاطات الجماهيرية للعمال في المدن، وبواسطة سلطة السوفيتات، وفي نهاية المطاف بواسطة سياسة البلاشفة.

وكان واضحا منذ البداية أن التحول إلى ثورة

اجتماعية يجب ان يكون دائما مرتبطا بحل "المسألة الزراعية" [9]. ان بناء الاشتراكية – وخصوصا التصنيع في نهاية العشرينيات (بداية سنوات الستالينية – المترجم)، والذي ترافق مع نشر التعاونيات الزراعية – حدد مساره تناقض اساسي، تمثل في ان نشر التعاونيات و"تحرير" الفلاحين، رافقه "استغلال" جديد واستخدام العنف لترويض الفلاحين [10]. ونتيجة لاجراءات القمع الواسعة، ميّز النظام الجديد نفسه بتناقضات موضوعية (مؤسسية) واخرى ذاتية (مثلا التوجيه عبر سلطات تخطيط مركزية، ضعف الانتاج الزراعي، او عدم مبالاة الكثيرين من العاملين في الاقتصاد الزراعي، وكذلك الادمان على الكحول)، الذي رافق الاتحاد السوفيتي حتى نهايته، واعاق تطوره.

مقارنة بين الثورتين الروسية والصينية

عند مقارنته بين ثورتي القرن العشرين الكبيرتين يثير (Perry Anderson، 2010: 55) الانتباه الى ان "ثورة اكتوبر كانت انتفاضة سريعة في المدن الكبرى شكلت قاعدتها الاجتماعية... العمال الروس الشباب". الثورة الصينية تطورت بعد انسحاب الشيوعيين من المدن الكبيرة (1927) الى الريف، او ما اطلق عليه الفلاحون "المناطق المحررة". والجيش الاحمر في الصين كان جيشا من الفلاحين. وكذلك تطور الاشتراكية بعد 1949 في الصين كانت مساهمة الريف فيها رئيسة. وحتى إصلاحات (دنغ سياو بينغ) بعد عام 1978 بدأت في الريف. وشعار الماوية في الستينيات، الذي كان ان ينبغي ان ينتقل الى السياسة العالمية هو: "القرى تسيطر على المدن". ولكن في برنامج الحزب الشيوعي الصيني وحتى اليوم يجرى التأكيد على "الدور القيادي للطبقة العاملة".

المسألة الزراعية في أزمنة متغيرة

بعد عام 1945، لعبت المسألة الزراعية في البلدان الاشتراكية في وسط وجنوب شرق أوروبا مجددا دورا هاما. في بولندا، على سبيل المثال، ظلت الملكية الصغيرة الريفية محافظا عليها بشكل أساسي، وتشكلت القاعدة الاجتماعية، ليس فقط من الكاثوليكية، بل ايضا من حركة معاداة الشيوعية، والتي تعززت ايضا في اوساط العمال (قارن الاضرابات في احواض السفن في آب 1980) التي بدأت تقوى منذ السبعينيات.

وفي المانيا الديمقراطية، ادت اقامة التعاونيات الزراعية، في بداية الخمسينيات، الى موجة هجرة الى المانيا الغربية. ولكنها تحولت في وقت لاحق الى احدى الركائز المستقرة في اقتصاد المانيا الديمقراطية. وكان الملف الزراعي مركزيا بالنسبة لثورات العالم الثالث، ليس فقط للتحرر من التبعية للمراكز الاقتصادية والسوق العالمية، بل ايضا لتجاوز الزراعة الاحادية (مثلا زراعة قصب السكر في كوبا)، والمصاعب التي تعاني منها كوبا في القطاع الزراعي، تشير الا ان هذه المشاكل لم تحل بشكل كامل.

كان بؤس اقتصاد الكفاف لغالبية سكان الريف عادة ما يكون نقطة انطلاق لموجات الهجرة، ولكن أيضا لاندلاع حركات احتجاجية. يصف (Hobsbawm 1998: 365 ff.) "تراجع دور الفلاحين" في النصف الثاني من القرن العشرين – ليس في البلدان الرأسمالية فقط، بل في اجزاء واسعة في ما يسمى بـ"العالم الثالث"،

وخصوصا في بلدان شرق وجنوب شرق آسيا حديثة التصنيع (مثل الصين)[12] – باعتباره تحولا "دراماتيكيا واسعا ...، فصلنا بشكل نهائي عن العالم القديم".

بعبارة اخرى: لا يمكن ان يلعب الفلاحون بالنسبة للحركة التقدمية المناهضة للرأسمالية في القرن الحادي والعشرين، دورا، كما حدث في ثورات الاطراف في القرن العشرين. ان إدارة الزراعة بواسطة التكنولوجيا المتقدمة والكيمياء وكذلك العادات الاستهلاكية لسكان المجتمعات الغنية، تخلق مشاكل يجب ان تحل عن طريق السياسات البيئية، واتباع نظام غذائي صحي، والحد من التجارة العالمية في المنتجات الزراعية.. الخ. الا ان موجات اللجوء منذ اواخر القرن العشرين – من وسط وجنوب امريكا الى شمالها، وكذلك من افريقيا ومنطقة الشرق الأوسط الى اوربا – لم تتميز، بان ازمة الاقتصاد الزراعي واقتصاد الكفاف لم تخلق حركة فلاحية تعمل مع عمال المدن من اجل اجراء تغيير جذري لعلاقات الملكية، ونزع سلطة الشركات فوق القومية، ومن اجل التحرر من التبعية للسوق العالمية. وفي الوقت الذي لعبت فيه تحالفات تقدمية، بعد الحرب العالمية الثانية، دورا هاما في النضال للتغلب على التبعية الاستعمارية. وفي هذه الاثناء تقود رغبة الكثيرين في البقاء على الحياة الى الهجرة الى اوربا. حيث تنمو في بلدانهم الصناعة وقطاع الخدمات، وتبدو ان هناك امكانية وجود زوايا للتأسيس، يهاجر "فائض السكان" من الارياف الى محيط المدن، حيث تتسع مناطق بؤس المدن الكبيرة والحواضر العملاقة (Davis 2006).

2 – انتصار البلاشفة: ثورة اكتوبر

لقد ادت ثورة شباط 1917 ليس فقط الى اسقاط النظام القيصري، بل الى الحل الكامل للنظام القديم. لقد حل الجيش وقوات الشرطة نفسهما، وبقي الجهاز البيروقراطي متحفظا. وعلى الصعيد المحلي اسست هيئات الحكم الذاتي (مجالس/ سوفيتات). أما الحكومة المؤقتة التي ضمت منذ ايار 1917 المناشفة وكذلك الاشتراكيين الثوريين، استلم رئاستها منذ تموز 1917 (ألكسندر كيرينسكي) (اشتراكي ثوري). لقد ازالت الثورة أشكال الاستبداد القيصري وضمنت الحقوق الديمقراطية والحريات. ولكنها لم تلب رغبة الجماهير في إنهاء الحرب والشروع في تنفيذ الإصلاح الزراعي. وهكذا نشأ نظام "ازدواجية السلطة": من جهة الحكومة المؤقتة، ومن جهة أخرى مجالس العمال والجنود، (السوفييتات)، وكان الأكثر أهمية وتأثيرا سياسيا بينها سوفييت بتروغراد لنواب العمال والجنود. وفي اذار 1917 اصدر سوفييت بتروغراد نداء الى "شعوب العالم"، دعا فيه الى النضال ضد سياسة السيطرة، ودعا البروليتاريا الأوربية للوقوف ضد الحرب. في حين استمرت الحكومة المؤقتة في الحرب، تحت ضغط شركائها من البلدان الغربية في التحالف المعادي للرايخ الالماني. وفي السابع من نيسان 1917 دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ضد المانيا. "وفي تموز فشل الهجوم الروسي على النمسا. وارتفع ضغط ثورة الفلاحين في القرى التي ينحدر منها الجنود، وتصاعد اكثر فاكثر اتهام الضباط بالثورة المضادة، وهو ما أكدته بعد وقت قصير محاولة انقلاب الجنرال كورنيلوف". (Skocpol 1979: 210).

"كل السلطة للسوفيتات"

بعد عودته إلى روسيا في نيسان 1917، حث لينين البلاشفة، في المرحلة الثانية من الثورة للنضال من أجل وضع قيام حكومة عمالية تحت شعار لوضع "كل السلطة للسوفييتات" في مركز اهتمامهم (13). ضغط الحركة الجماهيرية من أسفل – حيث لعبت المطالبة بإنهاء الحرب دورا مركزيا – ينبغي أن يعزز دور السوفيات في نظام "ازدواجية السلطة"، وبالتالي دفع النضال من أجل نظام المجالس، لبناء سلطة الدولة على غرار كومونة باريس (14). "طالب البلاشفة بالانهاء الفوري للحرب، وتوزيع ممتلكات النبلاء على الفلاحين، ورقابة العمال على الإنتاج الصناعي وتقرير المصير لجميع القوميات غير الروسية. ان الشعارات بسيطة الصياغة والمعبأة: سلام، ارض، خبز، حرية، عكست بالضبط مصالح السكان، وكسبت باستمرار المزيد من المؤيدين..". (Lorenz 1972: 273/3) وكانت مطالب لينين بالطبع مثيرة للجدل بين البلاشفة الأوائل. ولكن سير الأحداث صحح اعتراضاتهم (15).

ثلاث حركات اجتماعية كبيرة

في بداية صيف 1917، تشكلت ثلاث حركات اجتماعية كبيرة، ضغطت بقوة على الحكومة المؤقتة وادت الى توسع نفوذ البلاشفة. السأم من الحرب انتج التمرد في الجيش، الأمر الذي أدى إلى تشكيل مجالس الجنود، وكذلك ادى الى موجات هروب واسعة النطاق. وفي الريف اتسع تمرد الفلاحين، الذين طالبوا بتوزيع ممتلكات النبلاء، مقابل تعويض عام. وبما ان اكثرية الجنود كانوا من الفلاحين، نشأ تعاون وثيق بين هاتين الحركتين. "عندما حاولت الحكومة المؤقتة في حزيران 1917 دفع الجيش إلى هجوم عسكري جديد، ضاق الجنود الفلاحين ذرعا. وعادوا إلى قراهم للمشاركة مع أسرهم في توزيع الأراضي" (Hobsbawm 1998: 86).

في وقت مبكر من ايار 1917 انعقد في بتروغراد، المؤتمر الروسي العام لنواب الفلاحين، والذي دعا إلى إلغاء الملكية الخاصة للأرض ومصادرة املاك الملاكين الكبار بدون تعويض. لقد تطورت، حتى قبل استلام البلاشفة للسلطة، حرب فلاحين حقيقية مع تحول جذري في العلاقات الزراعية. (Lorenz 1972: 278/9).

وفي الوقت نفسه تجذرت نضالات العمال للسيطرة على المصانع. من جهة جرى التركيز على المطالب النقابية التقليدية (الزيادات في الأجور، يوم العمل من ثماني ساعات)، ومن جهة اخرى اثارة ملف أشكال الرقابة العمالية. بالإضافة إلى نواب مجالس العمال، تم تشكيل النقابات وخاصة لجان المصانع، والتي تم انتخابها مباشرة من قبل العمال. واخذت الاخيرة على عاتقها مهمة استمرار الإنتاج، بالضد من إرادة مالكي المصانع، واعاقة عمليات تسريح العمال الجماعي. "ولغرض استمرار الحياة كان عمال المصانع مصرين على أن تستمر المصانع في الإنتاج، وذلك لضمان الحد الأدنى من الأمن، وتواصل التبادل بين المنتجين والمستهلكين، وبين المدينة والريف. وعندما توسعت الفوضى، كان لديهم مصلحه متزايدة في التعاون مع أي قوة ثورية منظمة من شأنها أن تحل هذه المشاكل". (Skocpol 1979: 211). وبحلول صيف عام 1917، ارتفع عدد أعضاء الحزب البلشفي إلى ربع مليون. ان عبقرية لينين والبلاشفة كمنت بالاساس "في ادراك الوضع القائم"،

وما كانت الجماهير تريده. وان فن القيادة بتجسد "في القدرة على ان تتبع الجماهير" (هوبسباوم 1998: 86).

الفوضى واضمحلال الحكومة المؤقتة

ونظرا لهذا الزخم في المرحلة الثانية من الثورة، أصبحت الحكومة المؤقتة، بشكل متزايد، في موقف دفاعي، لا سيما وأنها لم تستطع ان تتخذ قرار إنهاء الحرب عبر اتفاق سلام منفصل. وبعد تظاهرات تموز الحاشدة التي رفعت شعارات البلاشفة، جرت حملة اعتقالات وملاحقات لقوى اليسار – انتقل لينين الى المنفى الفنلندي، حيث كتب "الدولة والثورة". وفي ايلول نفذ الجنرال القيصري (كورنيلوف) انقلابا عسكريا ضد الحكومة المؤقتة والسوفييتات. وبهذا تم الاعلان لاول مرة عن امكانيات عنف ثورة مضادة للسلطة القديمة – مصدرها قيادة الجيش القديم. وبالطبع، كانت قوة الحركات الشعبية الثورية واضحة أيضا، وكمن السبب الرئيسي لانهيار الانقلاب بسرعة في مقاومة الحرس الأحمر الهائلة، وفي انضمام الجنود الى السوفيات. وعلى سبيل المثال سلحت نقابة عمال السكك اعضاءها، وكلفتهم بحماية شبكة السكك والجسور. وبحلول اكتوبر، ازدادت الفوضى وتراجعت سلطة الحكومة المؤقتة.

وبعد حصول البلاشفة على الأغلبية في سوفييت بتروغراد، أخذوا زمام المبادرة ليحددوا مسار التطورات. وهنا تزايد اضطرار لينين للتهيئة لاستلام السلطة من خلال انتفاضة مسلحة (16). وفي مقالات ورسائل الى اللجنة المركزية، حلل لينين الوضع، مع اعطاء اولوية للظروف الدولية المحيطة. وكانت مؤشرات ووقائع صحوة البروليتاريا الأوربية، على خلفية نتائج الحرب، دليلا لا جدال فيه، على ان التهديد المباشر للثورة الروسية من قبل قوى الامبريالية الاجنبية سينخفض اكثر فأكثر. ان اعتقال الاشتراكيين في إيطاليا، وانتفاضة الأسطول الألماني (17) كانت وراء إعلانه تحولا هائلا في الوضع العالمي بأسره: "نحن نقف على اعتاب ثورة بروليتارية عالمية" (تروتسكي 1960: 587). وجرت التهيئة للانتفاضة المسلحة وتنفيذها من قبل سوفيت بتروغراد بقيادة ليون تروتسكي (قارنff Trotzki 1960: 568).

اقتحام قصر الشتاء ونتائجه

في 25 تشرين الأول (أي في 7 تشرين الثاني، وفقا للتقويم الميلادي) حوصر مقر الحكومة في قصر الشتاء من قبل القوات الحمراء. وفي المساء وجه إنذار الى اعضاء الحكومة الموجودين داخل البناية. وفي الوقت نفسه، بدأ المؤتمر الثاني لسوفيتات عموم لروسيا اعماله في (سمولني). بلغ عدد المندوبين 649، يمثلون 400 مجلس، منهم 390 بلشفيا غالبيتهم من المناطق الصناعية الكبرى والمراكز السياسية في البلاد. وفي ساعات الصباح الأولى من 8 تشرين الثاني، تم اعتقال جميع اعضاء الحكومة (ما عدا كيرينسكي الذي تمكن من الهرب)، واقتيدوا إلى قلعة بطرس – بولس. وبعد ذلك بقليل أعلن البلاشفة استلامهم للسلطة. وشكل مؤتمر السوفيتات حكومة مجلس مفوضي الشعب الثورية برئاسة فلاديمير ايليتش لينين. واصدر المجلس ثلاثة مراسيم، معلنة بداية عهد جديد:

– مرسوم السلام: وعد بالسعي الى سلام بلا ضم وتعويضات. واعلن استعداد السلطة

الجديدة لانهاء الحرب مع الرايخ الألماني من خلال معاهدة سلام من جانب واحد.
– مرسوم الأرض: الذي حول مطالبة الفلاحين لجعل ملكية الارض ملكية اجتماعية، والتي طالب فيها سوفيت الفلاحين لعموم روسيا في 17 آب، الى قانون.
– وأخيرا، جاء مرسوم حقوق شعوب روسيا، الذي تبناه مجلس مفوضي الشعب كسياسة وطنية. وتضمن المرسوم، بين أمور أخرى: 1. المساواة والسيادة لشعوب روسيا. 2. حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها، بما في ذلك انفصال وتكوين الدولة مستقلة. 3. إلغاء الامتيازات القومية الدينية و4. التطور الحر للأقليات القومية والجماعات الإثنوغرافية التي تقطن مناطق روسيا. ووقّع نيابة عن مجلس مفوضي الشعب (لينين) باعتباره رئيسا للمجلس، و(ستالين) باعتباره مفوض الشعب لشؤون القوميات.

عشرة أيام هزت العالم

الكاتب الأمريكي جون ريد [18]، الذي شارك في الأحداث الثورية في بتروغراد – نشر في عام 1919 كتابا بعنوان "10 ايام هزت العالم". وفي كتابه يعيد الاشتراكي ريد، المتوفى في عام 1920، الايام العشرة بعد 7 تشرين الثاني كـ "قطعه مركزة من التاريخ". ويتحدث عن "ثورة عظيمة حصل فيها 160 مليون انسان من اكثر المضطهدين في العالم، فجأة على حريتهم". وفي مواجهة النقاد يرى ان "الثورة الروسية احدى اكبر المآثر في تاريخ البشرية". وان "صعود البلاشفة" بالنسبة له "حدث ذا اهمية عالمية". وفي المقدمة التي كتبها في الأول من كانون الثاني 1919، يذكر انه يعمل على كتاب جديد بعنوان "من كورنيلوف إلى بريست ليتوفسك" (ريد 1957). ويشير الى التطور اللاحق للثورة، ولاستمرار سلطة السوفيتات، فان الصراع مع الثورة المضادة سيكون التحدي الحاسم، ويحدد بدوره طبيعة تعامل القوى الفاعلة في التركيبة التاريخية الملموسة [19].

وتقرر ايضا مصير الجمعية التأسيسية، التي انتخبت في 25 تشرين الثاني، واجتمعت بتاريخ 18 كانون الثاني 1918 في سياق الصراعات المتصاعدة، للحفاظ على استمرار الحكومة السوفيتية. وامتلك البلاشفة – مع حلفائهم قرابة 25 في المائة من المقاعد. لكن كان لديهم بين جنود الجبهة الغربية أغلبية واضحة. وكان الحزب الاشتراكي الثوري قد حقق أغلبية في الريف. ولكن مجموعة من اليسار الثوري الاشتراكي تعاونت مع البلاشفة. وقدمت كتلة البلاشفة مشروع قرار "إعلان حقوق الكادحين والمستغلين". ووصف المشروع روسيا بـ"جمهورية السوفيتات" باعتبارها "أمة حرة أمم حرة" وطالب بالاعتراف بانجازات ثورة اكتوبر: إلغاء الديون الخارجية، وتأميم الأراضي، وتأميم البنوك وسيطرة العمال على المصانع والمعامل تمهيدا لاضفاء الطابع الاجتماعي على الملكية. وعندما رفضت الأكثرية غير البلشفية المشروع، غادر البلاشفة الاجتماع الذي انحل في نفس اليوم .(Boffa 1978: 492 ff.) وفي 25 تشرين الثاني تمكن البلاشفة من اقرار المشروع في المؤتمر الثالث للسوفيتات. وضمن نص القرار في الباب الاول من اول دستور اقر في تموز 1918. ومن الآن تجمع خصوم البلاشفة في المناطق والتحالفات التي تشكلت في جبهات الحرب الأهلية. واصبح بالنسبة

لانصار الجمعية التأسيسية، وخصوصا خصوم الثورة، اسقاط السلطة السوفيتية قضية منتهية.

قوانين الثورة

لا شك ان "قوانين الثورة" (Crane Brinton) تكون في الانتقال من المرحلة الأولى للثورة السياسية، اسقاط النظام القديم، وفي مرحلة الثورة الثانية، التي يتوجب فيها على الثورة الدفاع ضد الثورة المضادة، وينشطر فيها "معسكر الثورة" (الى "جذرين" و"دستورين"، "يعاقبه" و"جيروندين"، لا تحدد ابدا بواسطة نتائج انتخابات. ويمكن ان يكون هذا في احسن الاحوال لحظة لتسجيل المزاج، ولا تعكس بأي حال من الأحوال التطور السريع وتغيير توازن القوة الحقيقية على أرض واسعة بين فلاديفوستوك ومينسك. والثورات تتميز بانهيار النظام القديم والنضال من أجل إقامة نظام جديد – والنضال من اجل الحفاظ على السلطة الثورية يتبع نموذج الحرب، حيث نتائج المعارك يحددها في نهاية المطاف توفر الموارد: أ) الشرعية ("التأييد من الأسفل"). وب) القوة المادية ("المال، السلاح، والناس")، وفي النهاية ايضا. ج) تقرره نوعية القيادة السياسية – الإستراتيجية. وميزة اخرى للأوضاع الثورية – ولفترات قصيرة – ارتباك وفوضى نتيجة لانهيار النظام القديم، وخصوصا في نهاية حرب وفي سياق الهزيمة وحل جيوش السلطة القديمة. حركة جبهات القتال، تبادل النصر والهزيمة، تفكك التحالفات، وظهور اعداء جدد، ايجاد حلول لاحتياجات السكان وكذلك الجيش، النقل.. الخ. تتابع سريع من التحديات غير المتوقعة التي تواجه قيادة الثورة، وتتطلب قرارات سريعة.

كانت (روزا لوكسبورغ) (1968 :113) قد اشارت في بداية 1918، في مخطوطتها التي كتبتها في السجن حول "الثورة الروسية"، الى ان كل ثورة "بعد بضعة اشهر، موضوعيا سيكون البديل اما انتصار الثورة المضادة او دكتاتورية البروليتاريا". "ان الدرس الأساسي لكل ثورة كبير، وقانون حياتها هو: اما يجب عليها الاقتحام السريع والحاسم الى امام، وتضرب بيد من حديد كل العقبات وتحقق اهدافها باستمرار، او سيلقى بها قريبا، من قبل الثورة المضادة خلف نقطة انطلاقها الضعيفة".

3. ثورة في تناقض

في تموز 1918 اقر المؤتمر الخامس للسوفيتات أول دستور لـ"جمهورية سوفييتات نواب العمال، والجنود والفلاحين". وتضمن في القسم الثاني منه اجزاء من المرسوم الذي اقره المؤتمر الثالث للسوفيتات في كانون الثاني 1918. وفي هذه المواد تم تحديد اهداف ثورة اكتوبر: "وتتمثل المهمة في لحظة الانتقال الراهنة لدستور جمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية في اقامة دكتاتورية بروليتاريا الحواضر والأرياف وفقراء الفلاحين، في شكل سلطة السوفيتات القوية لعموم روسيا، والقمع الكامل للبرجوازية، والغاء استغلال الانسان للانسان، واقامة الاشتراكية، التي سوف لا يكون في ظلها تقسيم للطبقات او سلطة للدولة" (المادة 9).

اهداف الثورة

"لتحقيق تشريك الارض، سيتم الغاء الملكية الخاصة للارض. وتعتبر كل الأرض ملكا

لكل الشعب، وتنتقل ملكيتها الى الشعب العامل، بدون اي تعويض على اساس حيازة الأرض وفق اسس المساواة. ستعتبر كل الغابات والثروة المعدنية والمياه ذات الأهمية الوطنية، وكل الحيوانات الموجودات العينيية والمشاريع الزراعية ملكا وطنيا".

"المصادقة على القوانين السوفيتية بشأن رقابة العمال والمجلس الأعلى للاقتصاد، من اجل ضمان سلطة الشعب العامل، على المستغلين، كخطوة اولى نحو التحويل الكامل للمصانع، المناجم، السكك الحديد، ووسائل الانتاج الأخرى والنقل الى ملكية جمهورية العمال والفلاحين السوفيتية".

"و... القانون السوفياتي لإلغاء السندات التي اصدرتها حكومات القيصر والملاكين العقاريين والبرجوازية، هي الضربة الأولى ضد المصارف العالمية ورأس المال المالي".

"تأكيد انتقال جميع البنوك الى ملكية دولة العمال والفلاحين، واحد من الشروط المسبقة لتحرير الجماهير الكادحة من نير رأس المال".

"للقضاء على الطبقات الطفيلية في المجتمع وتنظيم الاقتصاد، سيجري العمل بمبدأ الزامية العمل".

"لتأمين سلطة الشعب العامل اللامحدودة ولاستبعاد اية امكانية لعودة سلطة المستغلين فقد رسمنا تسليح الشعب العامل، تشكيل الجيش الأحمر الاشتراكي للعمال والفلاحين وتجريد الطبقات المالكة من السلاح تجريدا كاملا".

الفصل الثالث يبدأ بالمادة 4: "يعرب المؤتمر الثالث العام للسوفيتات عن تصميمه الحازم على انقاذ البشرية من براثن رأس المال المالي والإمبريالية، اللذين اغراقا الأرض في هذه الحرب الأشد اجراما، ويعلن اتفاقه مع السياسة المنفذة من السلطة السوفيتية في تمزيق المعاهدات السرية وتنظيم اوسع تآخي مع عمال وفلاحي الجيوش المتحاربة، والعمل في جميع الظروف بوسائل ثورية على تحقيق سلام ديمقراطي للشعب العامل، سلام بدون الحاقات وتعويضات، على اساس الحق في حرية تقرير المصير". المادة 5: ومن اجل الهدف نفسه، يصر المؤتمر الثالث العام للسوفيتات الروسية على القطيعة مع السياسة البربرية للحضارة البرجوازية، التي بنت رفاه المستغلين في أمم مختارة قليلة على استعباد مئات الملايين من الشعب العامل من سكان اسيا، والمستعمرات بصفة عامة، وفي البلدان الصغيرة".

لقد تأسست هيكلية الدولة وفقا لمفهوم "جمهورية سوفياتية" [20]. وفسر (لينين) في كتابه "الدولة والثورة" في تموز 1917 الاعمال السياسية لماركس وانجلس حول الثورات الفرنسية في 1848 و1871. ان المهمة السياسية الأولى للثورة هي "تحطيم جهاز الدولة القديم"، ثم إنشاء "ديكتاتورية للبروليتاريا"، التي اعتبرت حكومة انتقالية. وهذه الديكتاتورية ضرورية لصد مقاومة الثورة المضادة ولفرض التدابير الأولى للحكومة الثورية.

نظام المجالس

اعتمد البلاشفة على تجربة السوفيات لثورة 1905 وبعد ثورة شباط 1917. وبانتصار الثورة وهزيمة الحكومة المؤقتة كان ينبغي أن تشكل المجالس الهيكل الداخلي للدولة الاشتراكية. نظام المجالس اعلن القطيعة مع الديمقراطية التمثيلية، والتي بموجبها (كقاعدة عامة ينتخب كل اربع سنوات) مجلس النواب (البرلمان)، والذي يشكل الحكومة ويراقب عملها،

ويمثل السلطة التشريعية في قلب النظام السياسي. وسبق لماركس ان انتقد الفصل بين الناخبين والمنتخبين، واشار الى أن الطبقات الثانوية (التابعة) لا تمثل عادة في البرلمان (21).

كتب لينين في "الدولة والثورة": "ديمقراطية لاقلية ضئيلة، ديمقراطية للاغنياء، هكذا تبدو ديمقراطية المجتمع الرأسمالي". وأشار إلى القيود المفروضة على الحق في التصويت، وإلى "التنظيم الرأسمالي البحت للصحف اليومية" .(LAW II: 390) لقد كان (لينين) مقتنعا ان "دكتاتورية البروليتارية ستحقق لاول مرة ديمقراطية للشعب، للاكثرية"، والتي "بالضرورة ستقمع الأقلية المستغلة" (المصدر نفسه: 392). في "الشيوعية" ستكون الدولة كذلك – هكذا جادل مستندا الى ماركس وانجلس – "ستموت من تلقاء نفسها" (المصدر نفسه: 392). ولكن لينين لم يتناول في "الدولة والثورة" دور الأحزاب، او دور الحزب في نظام المجالس. وفي ما يسمى بكتابات – فرنسا لكارل ماركس لم يأت ذكر الحزب، بشكله السائد في نهاية القرن التاسع عشر، اطلاقا. ربما كان يتفق مع رأي منظرين آخرين لنظام المجالس، في انه مع ارساء دستور المجالس، تستنفذ مهام الحزب، ان جاز التعبير، وتصبح زائدة عن الحاجة. ان نظام المجالس سيجعل البرلمانات ومعها الأحزاب زائدة عن الحاجة، خاصة أن الأحزاب البرجوازية ستختفي، على أي حال، مع إلغاء نظام الملكية الخاصة.

إن مسار ثورة أكتوبر يناقض، على أي حال، هذه الأفكار بشكل جذري. وفي نهاية المطاف، تم فرض نظام الحزب الواحد مع "ديكتاتورية البروليتاريا" التي اندمجت مع جهاز الدولة، وأخضعت المجالس لها. وفي النهاية اصبح "الحزب" (ومؤقتا قيادته) "الإله الجديد" للنظام الاشتراكي. وفي وقت مبكر اقر المؤتمر العاشر في 1921، منع تشكيل الكتل داخل الحزب. وهكذا نشأت بقيام ثورة اكتوبر والصراعات اللاحقة ظاهرة "الثورية الشيوعية – تأهلت في سياق التعامل السياسي، والخبرة المتولدة من ضرورة ممارسة العنف السياسي، الذي بنى دولة جديدة، بنيت على اساس الحزب". (Gerwarth/Horne 2012) الحزب يختار "الكادر" كطبقة سياسية، في الدولة والجيش والاقتصاد المؤمم، ويكافئهم حسب كفاءتهم، ووفق درجتهم في الهرم السياسي (ثقافة النخبة). ولكن على هذه الطبقة ان تكون ملتزمة دائما بتحقيق الاهداف التي حددها الحزب، في بناء وتطوير وانجاز الاشتراكية.

بعد وفاة (لينين) في عام 1924، وضعه (ستالين) في خانة "الكلاسيكيين" (22). وبهذا لم يكرم ستالين لينين لدوره في ثورة اكتوبر، بل اضفى القداسة، بشكل خاص، على نظريته حول الحزب، التي كتبها (لينين) في بداية القرن العشرين في "ما العمل؟". واعتبر حزب الطليعة شديد المركزية، المكون من ثوريين محترفين، من الآن فصاعدا الضمانة للتنفيذ الناجح للثورة. واصبح الانشقاق في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي نموذجا للسياسة اليسارية، وللاحزاب الاشتراكية في الأممية الثانية. ولكن بالنسبة للينين كان واضحا ضرورة ألا تفقد تلك الطليعة الصلة بالطبقة العاملة والحركات الشعبية. وكان يدرك جيدا، ان ما طوره في "ما العمل؟" لا يمثل نظرية لحزب جماهيري اشتراكي، يعمل في ظروف العلنية في بلد رأسمالي متطور (23).

كانت ديمقراطية المجالس نموذجا لديمقراطية "مباشرة"، ونقيضا للديمقراطية التمثيلية، ديمقراطية مصممة بشكل يفترض أن يلغي فصل الناخبين والمنتخبين، وكذلك الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية. وبموجبها يجري تنظيم الناخبين في وحدات أساسية (في المصانع والبلديات والمقاطعات ووحدات الجيش، وما إلى ذلك). يقومون بانتخاب مجالس تتولى مهام التشريع والتنفيذ والقضاء في وحدة واحدة. وعلى اساس هذه القاعدة التنظيمية يبنى نظام المجالس في المستويات الاعلى (البلديات، المناطق، القطاعات الاقتصادية، مقاطعة، وعلى الصعيد المركزي).

وقد لعبت مثل هذه "المجالس" دورا في جميع ثورات العصر الحديث بوصفها أجهزة شكلت بعفوية من جماهير الشعب الثورية. وانتشرت في نهاية الحرب العالمية الأولى حركة ديمقراطية المجالس (في المانيا وايطاليا وغيرهما)، وفي هذا الإطار لم تكن هناك تجارب لمجالس دستورية تعمل حتى بنصف فعاليتها. وتعكس المجالس أيضا المصالح المتناقضة لمختلف الفئات الاجتماعية (المجموعات المهنية والاتجاهات الأيديولوجية). وفي الوقت نفسه، أصبح الصراع بين التنظيم القاعدي والحاجة الماسة إلى قرارات مركزية في العملية الثورية مشكلة متكررة. النماذج المعقدة للمجالس (على سبيل المثال في ثورة نوفمبر الألمانية) لم تستطع ان تفرض نفسها في مواجهة نظام الأحزاب، وما تبقى فقط هو شكل للديمقراطية الاقتصادية (قانون مجالس المصانع في الرايخ الألماني 1921).

فكرة المجالس والواقع

مع الجمهورية السوفياتية، اعتقد البلاشفة في الاتحاد السوفييتي حديث التشكيل، أنهم توصلوا الى الشكل السياسي المناسب لدكتاتورية البروليتاريا. وكان ينبغي أن يتغير ذلك بسرعة تحت ضغط التحديات الداخلية والخارجية. ولكنه تم انشاء نظام "دكتاتورية البروليتاريا" بواسطة هيمنة الحزب، واجهزة الدولة المركزية الاقتصادية والسياسية، مع الاحتفاظ الشكلي بالمجالس كتنظيمات قاعدية. واعتبر الحزب نفسه أداة لضمان "الدور القيادي للطبقة العاملة" في الدولة والاقتصاد والمجتمع. وعلى اية حال اطلقت الدولة التي انحلت في عام 1991، منذ عام 1922 على نفسها تسمية "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية". وكان "كوادر" الحزب، بطبيعة الحال، اساسيين في تنفيذ قرارات الحزب المركزية "على القاعدة" – في البلديات والمناطق، في الشركات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، في الجيش (24). وبرز هذا المعنى دائما في "المبادرات الكبرى" – بناء الجيش الأحمر، والكهربة، ومكافحة الجوع، والتصنيع منذ نهاية العشرينات، وجعل الزراعة تعاونية، ومكافحة الفاشية، غيرها – وتم وضعها دعائيا في المقدمة.

آمال على الثورة البروليتارية العالمية

في أول دستور سوفياتي من 1918 وصفت "اللحظة الحالية" باعتبارها "انتقالية". وكان البلاشفة مقتنعين، بان الثورة في روسيا يمكن أن تمتلك فرصة البقاء والنجاح فقط باعتبارها مقدمة أو سبباً للتغيرات الثورية في الغرب، في أوروبا، وخاصة

في ألمانيا. كان ينبغي لـ"اكتوبر الأحمر" ان يكون جزءاً من "الثورة البروليتارية العالمية" – ولكن ايضا ما كان يمكن لطريق الاتحاد السوفيتي، نتيجة للدمار الناجم عن الحرب والثورة والتخلف في البلاد وأهمية الفلاحين والطبيعة الزراعية، ان يكون موجها نحو الدول الرأسمالية المتقدمة جدا في الغرب وتقاليدها الديمقراطية.

استقلال العنف

في كانون الأول 1917، قبل البلاشفة، مثل اليعاقبة في 1793، باستخدام أداة "الإرهاب" ضد الثورة المضادة، وبالتالي تم انشاء جهاز المخابرات، الذي كان مسؤولا عن "أمن الدولة". وكانوا يعتقدون في البداية أن مهام هذه الأجهزة ستتقلص وتتلاشى مع انتصار الثورة وتثبيت نتائجها. وقد بررت باستمرار الاستقلالية اللاحقة لهذه المؤسسات وممارساتها بالضغط المستمر على الثورة المضادة داخليا وخارجيا. ولكنها شوهت في الوقت نفسه طابع النظام باكمله.

وفي الغرب، انطلق الماركسيون من أنه في الاشتراكية، تكون الثروة التي تنتجها البروليتاريا الصناعية، وبسبب إلغاء الملكية الخاصة لنتائج الإنتاج من قبل الرأسماليين – ستوزع وفقا لخطة اجتماعية موضوعة من قبل حكومة العمال، لصالح المهام الاجتماعية، ولصالح توفير الأمن، وتمويل الدولة، وأخيرا لصالح الاستهلاك الفردي. وبالمقابل كان من الضروري في روسيا السوفيتية رفع إنتاج الثروة الاجتماعية إلى مستوى يجعل المجاعة مستحيلة لجزء كبير من سكان المدن والارياف. وبما أن الاقتصاد لم يعد محكوما بالمنافسة والربح، فكانت هناك حاجة إلى بطولات أخلاقية وبدنية كبيرة للتعامل مع هذه المهام. وقد حدث الشيء ذاته في جميع الثورات السابقة – التي انتصرت بشكل مؤقت، وواجهت مسألة بناء النظام الجديد والتعامل مع المشاكل اليومية للسكان.

وطبعا كان قادة البلاشفة يدركون هذه التناقضات. ولكن لم يكن لديهم الوقت الكافي للتعامل بشكل كامل مع الحلول الممكنة والبدائل، بسبب قسرية الأحداث، وخصوصا مكافحة الثورة المضادة، حرمتهم من استراحة قصيرة لتجريب البدائل. وبحلول نهاية العشرينيات من القرن العشرين، كانت دكتاتورية ستالين قد ترسخت في الحزب؛ وقد جاءت بعد صراعات حزبية داخلية، قدم خلالها قادة بلاشفة (وخاصة بوخارين وتروتسكي) مقترحات بشأن مسارات أخرى للثورة لم تجد آذانا صاغية. وقد أدى القمع العنيف المتزايد لهذه المفاهيم البديلة، وأخيرا تدمير "الكادر البلشفي القديم"، إلى أن النظام السياسي (وأيضا جهاز الحزب نفسه) اصبح تحت هيمنة الأجهزة القمعية لسلطة الدولة.

الجمود والتراجع

وقد أدى قمع المحاولات المتبعة في إصلاح النظام و/ أو مسارات التنمية البديلة في المنظومة في نهاية المطاف، إلى خلق حالة من الجمود قوضت، إلى جانب سوء ادارة الاقتصاد المخطط، شرعية النظام بين أوساط الشعب. معظم الشيوعيين ومؤيدي الاتحاد السوفياتي كانوا مقتنعين، حتى قبل وقت قصير من انهياره، من ان تجاوزات السلطة، وعنف الستالينية، واشكال الاستبداد الأخرى، يمكن التخلص منها بنفس القدر الذي استطاع به الاتحاد

السوفيتي التحرر من اغلال التخلف، وضغط الثورة المضادة في الداخل والخارج. وبعد موت ستالين، وخصوصا بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي تحدث كثير من المحللين عن نهاية سلطة العنف الستالينية مثلا (Hofmann 1967). وجرى مرارا وتكرارا التقليل من شأن قوة العلاقات الموضوعية التي تم دمجها في النظام السياسي والاجتماعي لأنظمة اشتراكية الدولة، والتي كان من شأنها أن تشل قدرتها على تجاوز الأزمات ومواجهة التحديات من خلال اجراء إصلاحات في النظام. وفي عمليات التحديث (من خلال التنمية الصناعية والتقنية، من خلال رفع المستوى الثقافي، والمستوى التعليمي للسكان.. الخ)، غالبا ما تنشأ "عينات اختبار"، والتي غالبا ما تسببها أزمات داخلية، انتقادات من داخل النظام، اشكال من المقاومة (مثلا اضراب)، ولكن ايضا الضغط من الخارج (ليس فقط سياسيا – عسكريا، بل ايضا بواسطة وسائل الاتصالات الجماهيرية العابرة للحدود). وبهذا الخصوص يطرح عالما الاجتماع الفرنسيان بولتانسكي وشايبلو (2003: 74) موضوعة انه "يمكن تعريف مجتمع (او وضع مجتمعي) من خلال طبيعة عينات الاختبار التي قام بتسبيبها، والتي يتم من خلالها الاختيار الاجتماعي للاشخاص، وكذلك من خلال الصراعات التي تتفجر بشأن نزاهة هذه الاختبارات". ان الأزمات، التي تظهر باستمرار في النظم الاجتماعية والسياسية – وفي تطورها – يمكن أن يكون لها "وظيفة تنظيف". وبهذا المعنى، على سبيل المثال، يصف (ماركس) في "رأس المال" الأزمات الاقتصادية الدورية المرتبطة بـ"الإفراط في تراكم رأس المال" بأزمات تنظيف، تمنح الرأسمالية، فرصا جديدة للنمو والازدهار.

بعبارة اخرى: واجه تطور الاتحاد السوفياتي، حتى نهايته، باستمرار مثل عينات الاختبار هذه (ذات طابع مختلف تماما). حتى عام 1945 تم تأمين بقاء النظام وانجازاته، عبر النضال في الاستمرار بواسطة مبادرات وتوافق القاعدة وكذلك بواسطة ممارسة عنف هائل من الأعلى – وصولا الى استبداد الثلاثينيات. وحتى النهاية استند الحاكمون على (لينين)، على اهداف ثورة اكتوبر، وعلى المنجزات الرئيسة للنظام (اقتصاديا، ثقافيا، سياسيا). وفي الوقت نفسه، تم في فترات النضال من اجل البقاء تحديد علاقات السلطة الداخلية، والتمايز الاجتماعي، وأجهزة التحكم في المجتمع، والأشكال السلوكية للتكيف، السلبية والبدائية، التي اثرت في مراحل التطور المتأخرة، عندما تضاءل الضغط الداخلي، ووصل المجتمع ككل الى مستوى أعلى من التطور الحضاري، كعوامل كابحة للتغلب على عينات الاختبار. بالاضافة الى ذلك جاء فعل الظروف التي خلقتها الثورة المضادة العالمية. وفي عقود الحرب الباردة، وظفت الاخيرة باستمرار من قبل اجهزة السلطة، لاضفاء الشرعية على الريبة ازاء عينات الاختبار (الأزمات)، وكذلك قمعها بالعنف داخل مجال سلطتها. ولكن وبالتحليل الدقيق هناك فترات في الحركة الشيوعية وأيضا في الاتحاد الوفيتي يجرى فيها الاعتراف بعينات الاختبار لتحقيق تغيير او اصلاح في النظام، وخصوصا في خلال الأزمات والصراعات المكشوفة. ولم ينجح ذلك، على سبيل المثال، في تجاوز نقاط الضعف الهيكلية في "الاقتصاد الاشتراكي" ونظام التخطيط، واستقلال "أمن الدولة" (المخابرات)، فضلا

عن أشكال العنف السياسي والتعسف التي تقيد الحرية الشخصية وتنتج الخوف واللامبالاة والسخرية لدى الشعب.

استمر الضغط المضاد للثورة من الخارج حتى نهاية الحرب الباردة والاتحاد السوفياتي من جهة؛ ومن جهة أخرى، فإن الهياكل الاستبدادية لجهاز السلطة السياسية، فضلا عن الثقافات الأحادية السياسية والأيديولوجية، كان لها أثر في إبقاء مخاطر عينات الاختبار، وجعل تأثير الاصلاحات ضئيلا. وبقدر ما تم قمع عينات الاختبار (على سبيل المثال، في الأزمات المفتوحة في السنوات اللاحقة: 1953 و1956 و1968 و1980)، ادت الى تعزيز الديالكتيك السلبي، الذي اثر بقوة في عناصر السلطة الاشتراكية، وادت بالضرورة في النهاية الى الفشل. وقد تحول الافراط في التدخل في سياسة الدولة الداخلية، وبدرجة اكبر في السياسة الخارجية الى عامل ادى الى:

أ. إعاقة النمو الاقتصادي الداخلي وقوة الابتكار؛

ب. الحد من مستوى الاستهلاك لدى الاسكان؛

ج. ضمان زيادة هائلة للقطاع العسكري، كذلك في الاقتصاد.

لم يتحقق "تراجع الدولة" في المجتمع، الذي اعتبره (ماركس) و(انجلس) نتيجة ضرورية لتغيير علاقات الملكية و"دكتاتورية البروليتاريا"، (بما في ذلك الشكل الذي طرحه لينين في "الدولة والثورة" في عام 1917)! وعلى الرغم من ذلك، كما أكد إريك هوبسباوم، فان القرن العشرين القصير تميز بثورة اكتوبر، التي لم تصمد فقط بوجه الثورة المضادة القوية، بل ترسخت بعد الانتصار على الفاشية في الحرب العالمية الثانية كقائدة لمنظومة البلدان الاشتراكية. لقد كانت منطلقا ومرجعية، ليس فقط للثورة في الصين في عشرينات القرن العشرين، بل كانت كذلك أيضا لحركات التحرر المناهضة للاستعمار والإمبريالية بعد الحرب العالمية الثانية. وحتى النجاحات التي حققتها الاحزاب الديمقراطية الاجتماعية في الغرب، بعد عام 1945، في تنفيذ الديمقراطية ودولة الرفاه، كانت "اشد عزما" بسبب وجود سياسات الاتحاد السوفيتي: من خلال انتصار "الائتلاف المناهض لهتلر" في عام 1945، ومن ثم المنافسة بين النظامين، التي لم تنحصر بالمنافسة العسكرية والجيوسياسية، بل امتدت أيضا للتنافس على ظروف العمل والمعيشة للسكان المعالين بأجر.

---

* Frank Deppe, Der Oktober 1917 und das Zeitalter der globalen Gegenrevolution, Z. Zeitschrift Marxistische Erneuerung, Nr. 109, März 2017.

الهوامش

1- الفقرات الأولى تعتمد، ضمن مصادر اخرى، على المجلد الأول من الكتاب الصادر باربعة اجزاء في ايطاليا 1966/ 1978، والموسوم "تاريخ الثورات في القرن العشرين" الذي كتبه غويزيبي بوفا وصدر عام 1978، وكتب مقدمته المؤرخ الماركسي البريطاني اريك هوبسباوم. وكانت دار نشر "ريونيتي" عائدة للحزب الشيوعي الايطالي. ومن الواضح ان هذه المجلدات صدرت استعدادا للاحتفال بالذكرى الخمسين لثورة اكتوبر. إن التقييم الإيجابي للأهمية التاريخية لثورة أكتوبر في هذا العمل يتناقض مع الحكم السلبي للمؤرخ الإيطالي سيلفيو بونس (الثورة العالمية.

تاريخ الشيوعية الأممية 1917 – 1991 اكسفورد 2014)، الذي أكد مرارا أن ثورة أكتوبر كان يجب ان تفشل: أ) بسبب اهدافها غير الواقعية. وب) بسبب الاساليب الاجرامية للبلاشفة. سيلفيو بونس هو مدير معهد غرامشي في روما. ولم يكن غرامشي نفسه ان يقبل هذا الحكم مطلقا. ان التناقض بين العملين يوفر أيضا معرفة عن تراجع وتفكك الحزب الشيوعي الإيطالي. ولكن غويزيبي بوفا المولود 1923 اصدر في عام 1976 والسنوات اللاحقة كتابا باربعة مجلدات "تاريخ الاتحاد الوفيتي"، اعتبره الحزب الشيوعي السوفيتي "معاديا للسوفيت". ووصف غورباتشوف هذا الكتاب لاحقا بأنه مصدر هام لسياسة الإصلاح. وتمسك بوفا، حتى وفاته (1998)، بقناعته بأن الشيوعية قابلة للإصلاح الديمقراطي.

2 – ترجمت فيرا ساسوليتش "البيان الشيوعي" لماركس وإنجلز إلى الروسية في عام 1882. وفي آذار 1882 اتفقت مع ماركس بشأن أهمية مجتمع القرية الروسية "مير"، لانبعاث روسيا الاجتماعي (MEW 19: 243).

3 – في عام 1875 كتب انجلس (MEW 18: 567): "ليس هناك شك في أن روسيا تقف في عشية ثورة... وهنا تتجمع كل شروط الثورة، ثورة بدأت من قبل الحكومة نفسها، والتي يجب أن تدفع من قبل الفلاحين، بعد المرحلة الدستورية الأولى، بسرعة؛ وستكون ثورة ذات أهمية قصوى بالنسبة لأوروبا بأسرها، لأنها تدمر آخر احتياطي سلبي لرد الفعل الأوروبي كله. وهذه الثورة في حلة آمنة".

4– ميز ماركس وإنجلس في القرن التاسع عشر بين الثورة السياسية (سقوط النظام القديم) للبرجوازية والثورة الاجتماعية للبروليتاريا.

5– وهكذا مضت الدولة قدما، بعد عام 1890، ببناء السكك الحديد عبر سيبيريا.

6– في كتابه: "ما العمل؟" اكد لينين صراحة، ان رؤيته التنظيمية لعمل الحزب ينبغي ان تكون صالحة للعمل السري في روسيا. وبشأن العمل العلني لحزب جماهيري، اشار الى نموذج الديمقراطية الاجتماعية الألمانية. وكانت روزا لوكسمبورغ قد كتبت في جريدة "الأزمنة الجديدة" مقالا بشأن "قضايا التنظيم في الديمقراطية الاجتماعية الروسية"، انتقدت فيه بشدة "المركزية" في مفهوم لينين للحزب.

7– في كتابها حول ثورة 1905 الروسية "الاضراب الجماهيري، الحزب والنقابات" الصادر في عام 1906، الذي لا تشير فيه الى سوفيت بيتروغراد، شددت روزا لوكسمبورغ (1966 : 203) على جاذبية حركات الاضراب الروسية: "ان هذا البلد الأكثر تخلفا، وبالتحديد بسبب تأخر ثورته البرجوازية الذي لا يغتفر، يشير الى سبل وطرق مواصلة نضال البروليتاريا الطبقي في المانيا والدول الرأسمالية الاكثر تقدما".

8– يستند Theda Skocpol (1979: 6) ضمن مصادر اخرى، على الدراسة المؤثرة لـ Barrington Moore ، الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية. اللورد والفلاحين في صنع العالم الحديث، نيويورك 1966.

9– لعبت المسألة الزراعية الى حد ما دورا غير منظم عند ماركس وانجلس. لقد حلل ماركس، في الفصل الرابع والعشرين من المجلد الأول من "رأس المال"، ما يسمى بـ"التراكم الاولي"، وهذا يعني تهجير الفلاحين من الريف بواسطة "الحصار" ورسملة الاقتصاد الزراعي (الانتاج للسوق)، باعتباره مقدمة لتكوّن رأس المال من جهة، وتشكل طبقة العمال الأُجراء الحديثة فاقدة الملكية من جهة اخرى. وكتب فريدريش إنجلس، قبل وفاته بفترة قصيرة في عام 1894، نصا عن "المسألة الفلاحية في فرنسا وألمانيا" (MEW 22: 483 – 507). ونشر كارل كاوتسكي، كبير منظري الأممية الثانية، في عام 1899 عمل مكثف حول "المسألة الزراعية" وموقف الديمقراطية الاجتماعية. وقد ألغيت الحيازات الصغيرة للفلاحين الصغار في الرأسمالية المتقدمة عن طريق المكننة والتصنيع، وفي الاشتراكية عن طريق تشكيل التعاونيات، والسلع الحكومية. وكان منظرو الاشتراكية يدركون بطبيعة الحال حقيقة أن صغار المزارعين وبروليتاريا الريف الذين يعارضون كبار ملاك الأراضي من جهة أخرى، وبقدر ما يكونوا معرضين لتأثير الدين، يكونون معبئين كحملة افكار محافظة، والسياسة والأيديولوجية المضادة للثورة. النص الشهير في رسالة من ماركس إلى إنجلز في عام 1856 (MEW 29: 47): "كل شيء في ألمانيا سيعتمد على إمكانية، عودة الثورة البروليتارية بنسخة ثانية من ثورة الفلاحين "يشير إلى قضية تحالف الفلاحين الفقراء من الطبقة العاملة، التي عالجها لينين لاحقا بشكل واسع، ومسألة الهيمنة المرتبطة بها. في عام 1926، وصف أنطونيو غرامشي في نص حول "بعض جوانب المسألة الجنوبية"، انقسام البلاد (ايطاليا – المترجم) إلى الشمال (الصناعي) والجنوب (الزراعي) باعتباره تحديا استراتيجيا مركزيا لسياسة تحالف الحزب الشيوعي. وفي الوقت نفسه، بين كيف يتم استخدام فلاحي الجنوب الشباب في الجيش لقمع إضرابات العمال في تورينو (آب 1917).

ويقوم المتنفذون بتأجيج الاستياء ضد المدن الكبيرة وسكانها .(Gramsci 1980: 196 / 197)

10- حتى قبل اتخاذ قرار بشأن جماعية الاقتصاد الزراعي (التعاونيات) في عام 1928 توجب استخدام اساليب قسرية لتزويد سكان المناطق الحضرية، بما في ذلك العمال، بالمنتجات الزراعية.

11- قارن لين بياو، عاش النصر في الحرب الشعبية، بكين، 1965؛ كورت ستينهاوس، في نظرية الصراع الطبقي الاممي، فرانكفورت، 1967.

12- وفي البرازيل ايضا عاش في عام 2003، 83 في المائة من السكان في المدن.

13- الموضوعة الثانية من "موضوعات نيسان" تقول: "إن الشيء الأصيل في الوضع الراهن في روسيا، إنما هو الانتقال من المرحلة الأولى للثورة، التي أعطت الحكم للبرجوازية نتيجة لعدم كفاية الوعي والتنظيم لدى البروليتاريا، إلى المرحلة الثانية للثورة، التي يجب أن تعطي الحكم للبروليتاريا، وللفئات الفقيرة من الفلاحين" (LAW II 1964: 40).

14- في آب/ أيلول 1917 كتب لينين "الدولة والثورة – تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا" (LAW II 1964: 315 – 420)، الذي طور فيه مفهوم الجمهورية السوفياتية و"ديكتاتورية البروليتاريا". وتبنى فيه "ان ديكتاتورية البروليتاريا (على النقيض من الديمقراطية التمثيلية وفق القواعد الرأسمالية – الكاتب) ستجلب للمرة الأولى الديمقراطية للشعب، للاكثرية، ولكنها في الوقت نفسه وبالضرورة ستُخضِع اقلية المستغلين. الشيوعية فقط قادرة على تقديم ديمقراطية كاملة حقا، وكلما كانت اكثر اكتمالا، سرعان ما يتم الاستغناء عنها، وستموت من تلقاء نفسها". (ebd. 392) لم يستطع لينين عشية الثورة تصور المسارات التي يمكن أن تتخذها الثورة تحت ضغط التناقضات الداخلية، وكذلك التحديات والضغوط الخارجية للثورة المضادة.

15- "وصف بودغدانوف" موضوعات نيسان "بأنها هذيان لرجل مجنون"، وتوصلت نادجدا كروبسكايا الى نفس النتيجة: "أخشى أن الأمر يبدو كما لو ان لينين جن" (Zizek 2002: 10).

16- في هذه الأسابيع – منذ ايلول – كتب لينين، بين أمور أخرى: "يجب على البلاشفة الاستيلاء على السلطة"، "الماركسية والانتفاضة"، "هل سيحتفظ البلاشفة بالسلطة؟" "لقد نضجت الأزمة" (LAW II: 421 – 485).

17- تتعلق هذه الاشارة باضطرابات البحارة في ميناء فيلهلمهافن في آب/ أيلول 1917؛ وفي ايلول 1917 تم إعدام اثنين من البحارة (ألبين كوبيس وماكس رايتشبايتش) باعتبارهما قادة التمرد. وبعد عام قامت انتفاضة البحارة في مدينة كييل، التي مثلت انطلاقة ثورة نوفمبر الالمانية في عام 1918.

18- الأمريكي جون ريد (1887 – 1920) درس في جامعة النخبة في هارفارد، وأسس مع صديقه الشاب والتر ليبمان النادي الاشتراكي. رافق كصحفي حركات الإضراب في الولايات المتحدة والثورة المكسيكية. وعندما عاد من روسيا إلى نيويورك في عام 1918، صودرت مخطوطة كتابه عدة مرات من قبل القضاء الأمريكي. وسرعان ما شارك في تأسيس حزب العمال الشيوعي، وأصبح رئيس تحرير صحيفة "صوت العمل". اعتقل عدة مرات. وفي عام 1919 طلب منه القدوم إلى موسكو للعمل في الأممية الشيوعية. توفي في 17 تشرين الأول 1920 لاصابته بمرض التيفوس ودفن في جدار الكرملين.

19- كان كتاب جون ريد من أكثر الكتب قراءة في القرن العشرين. ولكن، بعد وفاة لينين في عام 1923، وفي ظل قيادة ستالين، الذي انهى في العشرينات دور (كامينيف، زينوفيف، بوخارين وفي نهاية المطاف تروتسكي)، اشير الى "أخطاء"، التي تشير على وجه الخصوص الى تقييم تروتسكي (Reed 1957: 499 ff.). وقد انعكس ذلك أيضا في التناقض الأساسي للثورة الروسية: وكان الادعاء بالثورة مرتبطا ارتباطا متزايدا بأشكال العنف والقمع – وكذلك بالتلاعب بالحقيقة التاريخية.

20- كلمة "مجلس" بالروسية تعني "سوفيت".

21- ويعود ذلك إلى حقيقة أن حق التصويت العام لم يكن معمولا به في حياة ماركس. منذ نهاية الحرب العالمية الأولى – أي بعد الثورة الروسية في تشرين الأول – انتشر حق التصويت العام على نطاق واسع في البلدان المبنية على اساس دستور ديمقراطي. غير أن الليبرالية السياسية، التي تمثل مفهوم الديمقراطية التمثيلية، غطت في وقت نفسه في أزمة عميقة. حكومات الاستبداد اليميني رسخت الدكتاتوريات، والتفت على حق التصويت والبرلمانات (Barth 2016). ألقى لينين نظرة مراجعة في عام 1917 على الفترة منذ بداية القرن العشرين، الذي حققت فيه الأحزاب الاشتراكية في الأممية الثانية – وفي المقدمة منها الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان – نجاحات انتخابية، وكانت

ممثلة بكتل كبيرة في البرلمانات. ولكن كانت الكتل البرلمانية للديمقراطيين الاجتماعيين باكثريتها الكبيرة مهتمة، منذ عام 1914، بسياسة دعم الحرب. وبالتالي كانوا في تراجع، ومساهمين في شق الأممية الثانية، التي كان ينبغي لها في اعقاب ثورة اكتوبر، تحديد مسارات تاريخ الحركة العمالية في العقود التالية.

22- قارن ستالين، حول قضايا اللينينية، 1926.

23- أكد جوب سكليفستين، "كم كان بلا معنى، وضد روحية لينين بالكامل، اعتماد شكل تنظيمي شبه دائم، ابدي للحزب السياسي، وبمبادئ تنظيمية راسخة تماما". و"كان تصوره لتنظيم الحزب تطور على اساس الظروف والمهام السابقة، كانت مشروطة ومحددة تاريخيا".

J. Schleifstein، „Lenins Auffassung der Parteiorganisation“ (1990/1991)، in: Schleifstein 2015: 226، 248.

24- قال ستالين في خطاب أمام خريجي أكاديمية الجيش الأحمر في عام 1935: "ولهذا، ايها الرفاق إذا أردنا النجاح في التغلب على فقر الناس، وعندما نكون قادرين على تزويد بلدنا بما يكفي من الكوادر القادرة على دفع التكنولوجيا وإطلاقها، يجب علينا أولا أن نتعلم أن نقدر الناس، أن نقدر الكوادر، ونقدر كل عامل قادر على دفع قضيتنا المشتركة الى امام. لقد آن الأوان لأن ندرك أن من رأس المال الثمين الذي يملكه العالم، يشكل الشعب والكوادر رأس المال الأكثر قيمة. وعلينا أن نتخذ القرار، في ظل الظروف الراهنة، بأن يقرر الكادر كل شيء" .(Stalin 1947: 595)

المراجع

Anderson، Perry (2010)، Zwei Revolution. Zur historischen Bilanz der Umwälzungen in China und der Sowjetunion، in: Lettre International، 89، Sommer 2010، S. 54– 65.

Barth، Boris (2016)، Europa nach dem Großen Krieg. Die Krise der Demokratie zwischen 1918 und 1938، Frankfurt/New York.

Biao، Lin (1965)، Es lebe der Sieg im Volkskrieg، Peking.

Boffa، Guiseppe (1978)، La Rivoluzione Russa، Roma (1966)، Band 1 von: Bonchio، Roberto (1978)، Hrsg.، Storia delle Rivoluzioni del XX Secolo، Introduzione die Eric Hobsbawm (1966)، 4 Bände، Roma

Boltanski، Luc / Chiapello، Eve (2003)، Der neue Geist des Kapitali – mus، Konstanz.

Braunthal، Julius (1974/1978)، Geschichte der Internationale، 2 Bände، Berlin/Bonn.

Brinton، Crane (1959)، Die Revolution und ihre Gesetze (1938)، Fran – furt/Main.

Davis، Mike (2006)، Planet of Slums، London – New York.

Deppe، Frank (2003)، Politisches Denken zwischen den Weltkriegen، Hamburg.

Deutscher، Isaac (1962)، Trotzki I: Der bewaffnete Prophet 1879 bis 1921، Stuttgart.

Gerwarth، Robert / Horne، John (2012)، Eds.، War in Peace. Paramil – tary Violence in Europa after the Great War، Oxford.

Gramsci، Antonio (1980)، Einige Gesichtspunkt der Frage des Südens (1926)، in: ders.، Zu Politik، Geschichte und Kultur. Ausgewählte Schri – ten، Frankfurt/Main، S. 188 – 208.

Halliday، Fred (1999). Revolution and World Politics. The Rise and Fall of the Sixth Great Power، London.
Hobsbawm، Eric (1998). Zeitalter der Extreme. Weltgeschichte des 20. Jah – hunderts، München.
Hofmann، Werner (1967). Stalinismus und Antikommunismus، Frankfurt/Main.
Lenin، W. I. (1964). Ausgewählte Werke in drei Bänden، Berlin.
Lorenz، Richard (1972). Die Sowjetunion (1917 – 1941)، in: Russland. Fischer Weltgeschichte Band 31، Frankfurt/Main 1972، S. 271 – 353.
Luxemburg، Rosa (1966); Massenstreik، Partei und Gewerkschaften (1906)، in: Dies.، Politische Schriften I، hrsgg. Von O. K. Flechtheim، Frankfurt/Wien، S. 135–228.
Luxemburg، Rosa (1968). Die Russische Revolution، in: Dies.، Politische Schriften، Band III، hrsgg. von O. K. Flechtheim، Frankfurt/Wien، S. 106 – 141.
Marx، Karl / Engels، Friedrich، Werke (MEW)، Berlin (DDR) 1957 ff.
Meyer، Gert (Hrsg.)، (1980). Das politische und gesellschaftliche System der UdSSR. Ein Quellenband، Köln.
Moore، Barrington (1966). Social Origins of Dictatorship and Democracy. Lord and Peasant in the Making of the Modern World، New York.
Pons، Silvio (2014). The Global Revolution. A History of International Co – munism، 1917 – 1991، Oxford.
Reed، John (1957). Zehn Tage، die die Welt erschütterten (1919/1927)، Be – lin.
Scheibert، Peter (1972). Das petrinische Kaiserreich، in: Russland. Fischer Weltgeschichte، Band 31، Frankfurt/Main، S. 175 – 270.
Skocpol، Theda (1979). States and Social Revolutions. A Comparative Ana – ysis of France، Russia and China، Cambridge.
Schleifstein، Josef (2015). Reale Geschichte als Lehrmeister، Essen.
Stalin، J. W. (1947). Fragen des Leninismus، Berlin.
Steinhaus، Kurt (1967). Zur Theorie des internationalen Klassenkampfes، Frankfurt/M.
Trotzki، Leo (1957). Die verratene Revolution (1936)، Zürich.
Trotzki، Leo (1960). Geschichte der russischen Revolution (1931)، Fran – furt/Main.
Zizek، Slavoyj (2002). Die Revolution steht bevor. Dreizehn Versuche über Lenin، Frankfurt/Main.

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور أخصائي الطب النفسي وقضايا الهجرة الدكتور رياض البلداوي

اجرى الحوار: الكاتب والإعلامي طالب عبد الأمير

الدكتور رياض البلداوي (الى اليمين) مع الزميل طالب عبد الأمير

منذ وصوله الى السويد العام 1986، قادماً من (الإتحاد السوفيتي) حيث أنجز دراسته الجامعية هناك وحصل على شهادة الدكتوراه في الجراحة، إهتم الدكتور رياض البلداوي، المولود في بغداد العام 1950، وأكمل دراسته الجامعية فيها، بقضايا المهاجرين في ما يخص مواجهة التغيرات الناشئة عن وجودهم في بيئة ومجتمع جديدين، وكيفية التعامل معها، وما ينجم عنه الوضع الجديد من تداعيات تنعكس على تفاصيل حياتهم اليومية. وخلال تخصصه في مجال الطب النفسي، أسس البلداوي، في العام 1990 سوية مع زميله السويدي غوندي غابريلسون، منظمة "سيمون" لمحاربة الإدمان على المخدرات بين صفوف السويديين والمهاجرين، شملت كل انحاء السويد. عمل البلداوي كأخصائي

ومن ثم استشاري الطب النفسي في عدد من مستشفيات العاصمة ستوكهولم. حصل على دبلوم في الطب النفسي الثقافي والاجتماعي من جامعة (Mc Gill) في كندا عام 1995، وفي نفس العام قام بتأسيس (مركز الشرق للطب والتأهيل النفسي) والذي ما زال يديره حتى اليوم. كما أسس وترأس في العام 1998 أول مركز للطب النفسي الثقافي في السويد. في العام 2002 عمل مستشاراً في الدولة السويدية لموضوعة الهجرة والاندماج والحد من جرائم الشرف، واصبح في العام 2012 عضوا في الهيئة الإدارية لمجلس محافظي الجمعية الدولية للطب النفسي الثقافي. وهو عضو في الجمعية الطبية السويدية وجمعية الطب النفسي السويدية. وكذلك في العديد من المنظمات الدولية، ومؤخرا اختير لعضوية مجلس إدارة الرابطة العالمية الثقافية للطب النفسي (WACP) ومجلس إدارة الجمعية الطبية العراقية الدولية (IIMA) وكان واحدا من مؤسسيها. أصدر البلداوي ثلاثة كتب، اثنان منها ادرجا ضمن المناهج التدريسية في عدة جامعات سويدية، وهما "الهجرة والتأقلم - الرحلة المجهولة" و"العائلة في المنفى" كما شارك في تأليف تسعة كتب مع باحثين آخرين.

*** د. رياض أنت طبيب نفسي وفي نفس الوقت خبير في قضايا الهجرة، كيف تجد العلاقه بين الطب النفسي والهجرة؟**

– هناك علاقة مباشرة بين الاثنين؛ اذ يقف المهاجر أمام تحديات كبيرة، نتيجة التغيرات التي يواجهها في البيئة والثقافة والمجتمع، مما تنعكس في النهاية على وضعه النفسي. لكن هذا لا يعني أبداً ان الهجرة دائماً سلبية، بحيث يعاني المهاجر، على الدوام، من وضع نفسي سيئ. ابداً، من الممكن ان تكون الهجرة عامل زخم تدفع الانسان لتطوير امكانياته. لكن بالتأكيد التغيرات التي تطرأ على حياة المهاجر من ناحية العادات والتقاليد وغيرها تضعه امام تحديات كبيرة. يرافقها قلق واجهاد عصبي "ستريس" وهذا يمكن ان ينعكس بعدئذ على الوضع النفسي. ومن هنا فالعلاقة قائمة بين الطب النفسي والإهتمام في موضوع دراسة الهجرة وتأثيرها على الانسان.

*** ذكرت أن هناك تحديات كبيرة؟ ما هي أبرز هذه التحديات التي يواجهها المهاجر، وقد تؤثر على وضعه النفسي، إذا لم يحسن مواجهتها والتعامل معها؟**

– سؤال مهم! أهم هذه التحديات هي مسألة التأقلم مع الظرف الجديد، فهنا ثقافة جديدة، عادات جديدة، ولكن ايضاً أن يجد الانسان نفسه في هذه الوضعية الجديدة، التي تختلف عما كان عليه الأمر سابقاً، في موطنه الأصلي، بمعنى وضع اجتماعي جديد، يكون المرء مجبراً على هذا التأقلم؛ فالتحديات كبيرة جدا، لأنك عندما تنتقل للعيش في بلد آخر، تتغير ملامح علاقتك مع الثقافة بما تحفل به من مفاهيم مختلفة في البلد الجديد. فالمهاجر يأتي الى البيئة الأخرى محملاً بمفاهيم الثقافة السائدة في بلده الأصل، التي يصطلح عليها مفهوم (البيئة الكبرى).Mega Environment في الهجرة أول ما يتفكك مفهوم هذه البيئة الخلفية الواسعة، لأنك تنتقل الى بيئة تختلف اختلافا جذرياً عما أنت معتاد عليه. وحتى تستطيع التعايش مع البيئة الجديدة عليك ان تتكيف، وهذا التكيف بحد ذاته يضع المهاجر امام تحديات كبيرة، سواء على المستوى الشخصي أو العائلي. تحديات على المستوى الثقافي والإقتصادي، كل هذه التحديات تضعها الهجرة أمام القادم الجديد، بشكل مباشر وسريع، وتتطلب الحلول. اعطيك مثالاً، لو أنت طبيب وتأتي الى هذا البلد الجديد، فبالإضافة الى تغير البيئة الثقافية

عليك، انت مطالب باثبات نفسك، كطبيب، عليك معادلة شهادتك، وليس هذا فحسب، بل وعليك أن تعيد مركزك الاجتماعي، ولكن في ظل مجتمع ظروفه غير مألوفة بالنسبة لك، تضعك أمام محاور إجتماعية تحتلف عن تلك التي نشأت عليها في بلدك. الطبيب في الشرق الاوسط له محور إجتماعي معين للعلاقات الاجتماعية، عندما يأتي الى السويد يوضع في محور آخر. هذا إن نجح في العمل كطبيب هنا. فإذا لم ينجح نتيجة – معوقات كثيرة – يقع في إشكالات أخرى وهكذا.

*** ولكن ألم يكن المهاجر مهيئاً للحالة التي سيواجهها في المجتمع الجديد؟**

– نعم، هم مهيئون لها، ولكن درجة الاستعداد تختلف من شخص لآخر. كما أن الانسان مهما كانت تصوراته عن الهجرة، فلن تكون لديه معرفة كافية، إلا بعد ان يدخل في عالمها، إذ تنشأ ظروف اجتماعية، ثقافية، قد تخلق في سياق صيرورتها حالات نفسية. أن لكل انسان مصادر قوة وضعف، وإستخدام هذه المصادر يختلف بين شخص وآخر؛ فهناك من يستخدمها في معالجة الحالات الجديدة بوتيرة سريعة، وآخر يصاب بخيبة الأمل فيتراجع، ويتنازل حتى عن المكانة التي كان يمتلكها، فتصبح عندها الهجرة نقمة بالنسبة له.

*** كثيراً ما يطرح في العلاقة ما بين المهاجرين والمجتمع الجديد مفهوم الاندماج، هذا على الأقل ما يرد في أدبيات الأحزاب السياسية والباحثين والمشتغلين في هذا المجال في المجتمع السويدي.. لكنك تؤكد على مسألة التأقلم وإمكانية التعايش مع المجتمع الجديد.**

– بالنسبة لي التأقلم خطوة أولى تسبق الاندماج، لأنني أتصور أن عملية الاندماج أكثر تعقيداً من التأقلم، الذي هو بمثابة حالة انسانية طبيعية من أجل ان يستطيع المهاجر إستخدام ما يملكه من امكانية للتعايش مع المجتمع الجديد. بينما الإندماج له شروطه الخاصة، وهو يمثل المرحلة الأعمق في عملية الهجرة، فالامر يتعلق بالتغيرات التي تنشأ داخل المهاجر في ما يخص العادات والثقافة والسلوك والأفكار التي تختلف طبيعتها عما ألفه سابقاً. والاندماج عملية تعتمد على قابليات المهاجر والظروف التي يمر بها، ومستوى الاستقبال الذي يلاقيه من المجتمع الجديد، وإمكانيات العمل.. الخ. إذاً هي مراحل، تبدأ بالتأقلم ومن ثم الاستعداد الى مرحلة الاندماج؛ فمرحلة الشعور بتفهم المجتمع بمقاييس المجتمع ذاته وليس بما يحمله المهاجر من افكار ومقايس تتعلق بالثقافة التي يحملها المهاجر معه.

*** في مرحلة التأقلم، نجد أن بعض المهاجرين يتمكنون من الدخول الى المجتمع، وآخرون لم يستطيعوا ذلك. فهل يتعلق الأمر بالمهاجر ذاته أم المجتمع ايضاً عليه جزء من المسؤولية؟**

– اعتقد أن من الصعب تحميل المهاجر فقط مسألة التأقلم او الاندماج او ما شابه. على الفرد تقع مسؤولية، فالمهاجر الذي يأتي الى مجتمع يجب ان يعرف بأن هناك تحديات عليه التعامل معها، لكي يتمكن من العيش، فرداً ام عائلة. ولكن الافراد القادمون ذوو قدرات متباينة، وخلفيات مختلفة تعليمية وغيرها، ومن هنا على المجتمع دراسة كل حالة على حدة، وتقديم ما يلزم، وفق ما يملكه الفرد من امكانيات.

*** هذا جانب، ولكن في ما يتعلق بمسؤولية الفرد ذاته، أين تكمن الاسباب التي تعرقل تأقلمه او اندماجه بالمجتمع. أنت درست، من خلال عملك**

مع المهاجرين في ما يتعلق بأوضاعهم النفسية، بعضاً من هذه الاسباب، هل لك أن تذكرها لنا:

– طبعاً الأسباب كثيرة ولكن يمكن ايجازها في الآتي: يتعلق الأمر بمدى استعداد الفرد للتغيير، وهذا في الشكل العام، اي تغيير كان، وبمدى قدرته وامتلاكه للمؤهلات التي يستطيع استخدامها في مواجهة التحديات التي تحدثنا عنها، وايضاً مدى درجة المرونة التي يملكها في التعامل مع المتغيرات. جملة الشروط هذه تخص الفرد كحالة شخصية تختلف من انسان الى آخر، تبعاً لما يملكه من خبرات وتجارب حياتية سابقة، أو نتيجة لحالة مرَّ بها أثرت في نفسيته وامكانية تفاعله مع الجديد. لكن الفرد ليس منعزلاً عن محيطه أو الوسط الذي يعيش فيه، فيتأثر به، بمستويات مختلفة، وتختلف تبعاً لها درجة تأقلمه مع المجتمع الجديد. وما نقصده بالوسط والبيئة هو مجموعة العلاقات القريبة، كأن تكون عائلة الشخص أو اقارب له يعيشون في هذا البلد، فترة من الزمن قبله، ربما يعيشون منعزلين اجتماعياً. ولديهم موقف سلبي من التأقلم مع المجتمع، مما تنقل موقفها هذا الى قريبها المهاجر الجديد، فيصاب بعدوى مقاومة التأقلم وتعيق من استخدامه للمرونة في التعامل مع المجتمع الجديد، أو العكس.

هناك ايضاً، أسبابا أخرى تقف عائقاً امام التأقلم، وتتعلق بكيفية انفتاح المجتمع ذاته على المهاجر الجديد واستيعاب الحالة التي مرَّ بها المهاجر خلال رحلته للوصول الى هنا. ربما واجه حالات قاسية، فثمة حاجة الى الثقة، لكي يستطيع تجاوز الازمة وتيسير عملية التأقلم.

*** من خلال حالات لعائلات عربية وعراقية قمت بدراستها، تخرج بإستنتاج مفاده بأن الهجرة والمنفي يؤثران على بنية العائلة، خاصة تلك التي لديها أطفال، كيف؟**

– التغيرات التي تطرأ على العائلة المهاجرة تختلف باختلاف خلفية العائلة وطبيعتها في البلد الأم، إن كانت قادمة من مجتمع حضري، او قرية، من جنوب، او وسط، او شمال.. الخ. ولكن حتى لو جاءت من مكان واحد، لكنها تختلف في ما بينها، في كثير من القضايا، كالعلاقات الاجتماعية والمستوى التعليمي.... الخ. وهذا الاختلاف موجود حتى بين العائلات السويدية. فالعائلة التي تأتي الى بلد جديد تتعرض الى تغيرات في ادوار افراد العائلة، بسبب العلاقة مع المجتمع الجديد. اذ لا يكفي ان كان الشخص أبا أو أما في البلد الاصلي، لكي يستمر بذلك الدور الذي دأب عليه، فالمجتمع هنا يعيد تقييم دور الأب والأم في العائلة، من زاوية نظر أخرى، تحتمها شروط المجتمع الجديد. وهذه المسألة لا يفهمها الكثير من العائلات القادمة من الشرق الاوسط. فالأطفال ينشأون على طبيعة أخرى من العلاقات، بينما الآباء والأمهات ينظرون الى اطفالهم ويتعاملون معهم، من منطلقات مجتمعهم الأصلي. وهذه الاشكالية، يمكن أن تصل حد التصادم. فالمجتمع هنا ينظر للعلاقة بين الأطفال ووالديهم، باعتبارهم افراد لهم استقلالية، بينما العائلة القادمة تعتبر الاطفال ملكاً للوالدين. ومن هنا فالعائلات التي تحمل ثقافة مرنة وتفهما للحالة الجديدة تستطيع التغلب على هذه الاشكالية، وتسير في طريق التأقلم، وبعكسها يمكن أن تسوء الحالة الى حد كبير، مما قد يؤدي الى تمزق العائلة. هناك اشكالية اخرى، وهي التغيرات التي تطرأ على اختلاف الوظائف بين الرجل والمرأة داخل العائلة. المرأة تجد نفسها في المجتمع الجديد، أمام امكانيات لم تكن متوفرة لها في السابق، في الاستقلالية والتعلم والعمل والتأقلم ...الخ، بعض النساء يوظفن هذه الامكانيات لتأقلم العائلة مع المجتمع الجديد. لكن هناك من تندفع الى تعويض ما كانت تفتقر اليه، بطريقة

تقود الى التصادم، الذي يؤدي في بعض الحالات الى الطلاق والانفصال وتفكك العائلة. ونحن نعرف ان الرجل الشرقي بطبعه اتكالي، فالمجتمع في البلد الاصل كان يوفر له ذلك فتقوم الاخت أو الأم أو الزوجة، بتلبية متطلباته، بينما دوره هو العمل وتأمين اقتصاد العائلة. ولكن عند المجيء للعيش في المجتمع الجديد تجد العائلة نفسها امام تحديات، أحيانا تتجاوزها المرأة بصورة اسرع من الرجل، في تعلم اللغة، الحصول على عمل، التأقلم مع المجتمع ..الخ، اما الرجال فالكثير منهم دون عمل يقضون اوقاتهم في النوادي الاجتماعية لبلدانهم، منغلقين في بيئتهم القديمة، يجترون هموم البلد.

*** تتحدث في كتابك الجديد الذي يمكن ترجمة عنوانه "العائلة والمنفى" عن النموذج السويدي للعائلة، ما هي طبيعة هذا النموذج؟ وبماذا يختلف عن غيره؟**

– هذا سؤال جميل جداً، العائلة السويدية عبارة عن مؤسسة يشترك في بنائها اثنان لديهما نفس الحقوق والواجبات، وكلاهما يمثلان العائلة في علاقاتها الداخلية والخارجية، وهذا ما يسمى بالعائلة النواة. وتتكون من أب وأم، (رجل – امرأة)، إضافة الى اطفالهما، من صلب الأب أو الأم، أو المتبنيْن. بالنسبة لنا نحن القادمين من الشرق، توصف العائلة بالسلطة الأبوية. وهي غالباً ما لا تتكون من اثنين يشتركان في تأسيسها، بل بناءً على اتفاق بين عائلتين (عامل خارجي)، طبعاً ليس كل العائلات على هذه الشاكلة، بل الحديث يجري عن العائلة ذات السلطة الابوية والتي تُعرَّف كونها "تكليفا اجتماعيا لرجل أن يتملك عائلة"، ففيها الزوجة والأبناء والبنات ملك الأب، وليسوا باعتبارهم افرادا لهم حقوق وعليهم واجبات. بل هو، أي الأب، من يملك المادي والمعنوي في العائلة. والعائلة الشرق أوسطية لا تتكون من الزوج والزوجة والأطفال فحسب، بل هي واسعة، يضاف لها الجد والجدة والعم والخال والعمة والخالة... الخ، وفي ما يتعلق بالسلطة الابوية فمن المفيد ذكره، من الناحية القانونية بأن العراق من أوائل الدول التي قضت على السلطة البطرياركية، الأبوية في قانون الاحوال المدنية لعام 1959. لكن حديثنا يتعلق بالأنموذج العائلي بشكل عام، ومقارنته بالأنموذج السويدي.

*** طيب، لمعالجة هذا الأمر يتطلب فهما من كلا الجانبين، من المهاجرين لمعرفة ماهية النظام الإجتماعي في البلد الجديد، ومن عناصر المجتمع الجديد الذين يتعاملون بشكل مباشر مع القادمين من بلدان أخرى، كموظفي دوائر الهجرة، العاملين في الشؤون الإجتماعية، المدارس، البلديات..الخ. والسؤال هو هل هناك إدراك لهذه المسألة؟**

– طبعاً، هذا سؤال جوهري! هذا الإختلاف بالنموذج العائلي، وقوانين المجتمع، يجب أن توضح للمهاجرين، ونحن هنا في السويد لدينا اشكالية في هذا الأمر، السلطات المعنية عليها مسؤولية في هذا، لكنها لا تهتم بتقديم مثل هذه المعلومات المهمة للمهاجرين. يجب أن يوضح للمهاجر أن استخدام العنف ضد الأطفال ممنوع ويعاقب عليه القانون، وأن هذا القانون لم يأت هذا من فراغ، بل ولد بعد صراع متواصل، ونقاشات مستفيضة في البرلمان السويدي، دامت اربع سنوات، إذ كان هناك ايضا من عارض الفكرة التي اصبحت في ما بعد قانوناً، منذ فترة ليست بالبعيدة جداً، بل قبل اربعين عاماً فقط. ولا يكفي أن تقول أن استخدام العنف ضد الطفل ممنوع، يعاقب مرتكبه بالسجن، وأخذ الطفل لتربيته بعيداً عنه، بل يجب توضيح الأسباب. لماذا هذا الفعل ممنوع؟ وهذا ما نحاول إفهامه الى

المعنيين في المجتمع السويدي. والأهم من كل هذا يجب افهامه البديل عن ضرب الطفل، بداعي تربيته. وهذا هو الأهم.

*** ما دمنا نتحدث عن العائلات المهاجرة، كثيراً ما يشار الى العنف الأسري بين العائلات المهاجرة، ترى ما هي أسبابه وكيفية معالجته؟**

للأسف الشديد، أن ظاهرة العنف موجودة في كل المجتمعات وفي جميع البلدان، غالباً ما تؤكد عليه نتائج التحليلات والبحوث على أن العنف في الأسرة ينشأ حينما يريد أحد أطراف العلاقة الزوجية فرض سيطرته على الطرف الآخر في العلاقة أو على بقية اطراف العائلة. هذا العنف يأخذ طابعاً تشريعياً ويكون أكثر مقنناً في البلدان التي تمارس مفهوم السلطة الأبوية، لأن في هذه المجتمعات الأب يعتبر مالكا للعائلة. ومن هنا تعطيه الملكية الحق في تقويم العائلة ـ افراد العائلة ـ اذا ما أرادوا السير باتجاه لا يراه هو صحيحاً. في البلدان الليبرالية جرى وضع قوانين تؤكد على المساواة بين أعضاء الأسرة، وتجرِّم العنف بكل أنواعه، الجسدي والنفسي والجنسي... الخ. وفي بلدان الشرق الأوسط، هناك أيضاً قوانين تجرِّم العنف الأسري، لكن في تلك البلدان اعراف إجتماعية تعطي الحق للأب دون تبعات قانونية. ثم يأتي مفهوم العيب الذي يمنع المتضرر في العائلة كالزوجة او الابن أو الابنة من أن يكون في الواجهة، في اقامة دعوى وما شابه. إضافة الى ذلك فإن هذه المجتمعات تفتقر الى المؤسسات التي تحمي المعنفين. وعندما تنتقل هذه الأسرة الى مجتمع آخر يرى في هذا العنف قضية قانونية واجتماعية مهمة جداً، هنا تنشأ المشكلة، لان هذه المفاهيم والسلوكيات التي تنقلها الأسرة معها الى المجتمع الجديد يجعلها في مأزق. تبدأ تتعارض مع القوانين والأعراف المغايرة في هذا البلد، حتى وإن كان هذا البلد، كما هو السويد، فأن حالات العنف موجودة ايضاً داخل الأسرة السويدية. فمسألة العنف اكثر تعقيداً وتأتي نتيجة خللٍ في العلاقة داخل الاسرة، يستخدم فيها المُعَنِّف القوة في فرض شروطه والسيطرة على العائلة.

وفي كتابي الأخير "العائلة والمنفى" تحدثت عن هذه الظاهرة، من خلال المعاينات الكلينيكية، والحالات التي تعاملت معها في العيادة، وخرجت بإقتراح أن يأخذ الآباء والأمهات القادمين من الشرق الأوسط دورات تشرح ماهية القوانين في المجتمع وفاعليتها، وما هي البدائل لتربية الأطفال، عما دأبوا عليهم في المجتمعات التي قدموا منها بإستخدام الضرب والتعنيف.. الخ.

*** من خلال كتابيك "الهجرة والتأقلم" و"العائلة في المنفى"، مالذي تستخلصه من تناول هذين الموضوعين الكبيرين والحساسين في ذات الوقت؟**

باختصار، في ما يتعلق بالكتاب الأول، أردت توصيل فكرة مفادها أن الهجرة كعملية وكذلك التأقلم مع المجتمع الجديد، لهما تأثيرات كبيرة على الحالة النفسية للمهاجر كفرد ـ صغيراً أم كبيراً، أمرأة أم رجلا ـ فهو يتحدث عن الرحلة المجهولة كما هو العنوان الفرعي للكتاب للقادم للعيش في المجتمع الجديد. إذ أن واحدة من أهم الصعوبات التي تواجه المهاجر، او اللاجئ هو أن لا يجد تفهماً من الشخص المقابل لوضعه، والحالة او الحالات التي عايشها، خلال رحلته التي مر بها، ربما، بمناطق عديدة من العالم، وواجه تحديات قاسية، قبل ان يصل الى محطته الأخيرة، ليكون بمقدوره التعامل الصحيح مع كل حالة على حدة، وزيادة المعرفة والوعي بهذه المسألة، هو ما يسعى اليه هذا الكتاب. اننا في السويد بحاجة الى عمل طويل ومثابر للوصول

الى هذا الهدف؛ فمؤسسات الرعاية الصحية والاجتماعية كثيراً ما لا تفرق بين اعراض الاجهاد النفسي التي تطرأ على المهاجر او المنفي، بصيغة اعتيادية، بسبب ضغوطات العمل والحياة اليومية، وهذه مسألة يمكن ان يتعرض لها الجميع ـ مهاجرون وسكان البلد الاصليون على حد سواء ـ وتلك التي تبرز بسبب ظروف الهجرة نفسها ومعاناة المهاجر، والتي تجيء كصدى للازمات والصدمات التي واجهها، سواء في بلده الاصل او خلال رحلته الى المهجر.

اعطيك مثالاً على ذلك: حدثني لاجئ من بلد عربي، من انه لم يكن يشعر بالتعب يوماً عندما كان يعمل في ثلاثة امكنة في اليوم الواحد في بلده الأصلي المضطرب بالاحداث، لكنه يشعر الأن بإعياء كبير، وهو يعيش في بلد آمن ومستقر، دون ان يعمل شيئاً جسدياً، سوى الذهاب الى مركز تعلم اللغة السويدية للمهاجرين.

أما الكتاب الثاني، فهو يتحدث عن وضع العائلة المهاجرة والتحديات التي تواجهها كتركيبة اجتماعية ذات ابعاد مختلفة، فعالعائلات المهاجرة تواجه، خلال مسيرة الهجرة والمنفى تحديات كبيرة. وأننا من خلال عملنا مع العائلات المهاجرة كمعالجين، ننطلق من الفكرة التي أشرت اليها في بداية الكتاب، وهي اقتباس من رواية ليو تولستوي "آنا كارانينا"، وهو "كل العائلات السعيدة تبدو متشابهة؛ لكن لكل عائلة تعيسة طريقتها الخاصة في التعاسة"، فالكتابان يكملان بعضهما.

*** بالإضافة الى عملك كطبيب ومستشار في الطب النفسي، أن تقوم بالتدريس في الجامعة حول قضايا الهجرة وعلاقتها بالوضع النفسي للمهاجر. كيف وجدت مسألة تدريس مثل هذه الموضوعة الحساسة والمهمة، في ما يتعلق بالمتلقين، سواء أكانوا طلبة أم عاملين في المؤسسات الاجتماعية والصحية والتعليمية التي هي في تماس مع المهاجرين؟**

– بسبب كوني مهاجرا، تركت بلدي العراق منذ أكثر من ست واربعين سنة، وما تحملته من معاناة، جعلني هذا أن أكون أكثر اهتماماً بواقع التحديات التي تواجه عملية الهجرة. والتدريس في هذه الموضوعة يعتبر بالنسبة لي أحد المنافذ التي اردت أن أوصل بها رسالة الى المجتمع السويدي حول واقع الانسان المهاجر القادم من الشرق الاوسط، من مجتمعات أخرى، الى نظام اجتماعي مختلف وعلاقات اجتماعية جديدة، هم غير مطلعين على حيثياتها، في أن يأخذ الطلبة وزملائي الأطباء والعاملون في القطاع الصحي والدوائر الاجتماعية والهجرة وغيرها، مسألة التعامل مع القادمين الجدد بعمق وخاصية. لكن التدريس في هذه الموضوعة ليس بالشيء اليسير؛ اذ يتطلب الدقة في الطرح، الشفافية والوضوح، وفي نفس الوقت الاحترام للعادات والتقاليد والثقافة التي يحملها الشخص معه، من أجل فهمها وتطوير عناصرها الايجابية. ولذلك فأن ما أقوم به لا أخاطب السويديين المعنيين، فحسب، بل وأيضاً المهاجرين أنفسهم.

التدريس الجامعي بالنسبة لي، مسألة جميلة جداً، مطورة، يكتسب من خلالها الإنسان خبرات جديدة، وعن طريق الالتقاء المتواصل مع دارسين وباحثين جدد يودون معرفة المزيد في هذه الموضوعة. فهي بالنسبة لي تعتبر تحديا لنفسي ولمعلوماتي وتطبيق يومي لها، ولكن أيضاً مسؤولية كبيرة، خاصة في مجال التبادل الثقافي وقضايا الهجرة والتأقلم.. فهناك سلسلة من الامور المتعلقة بهذه المسألة، كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والدين وغيرها. والتوازن بين طرح الاشكاليات واحترام الخصوصيات الفردية للافراد والعائلات.

أدب
و
فن

المثقف هو من يحسن التصرف

حسين الجاف

الملكة عالية بنت الملك علي (1911 – 1950) زوجة ملك العراق غازي بن فيصل الثاني (1913 – 1939)، ووالدة ابنه الوحيد الملك فيصل الثاني (1935 – 1958)، بعد بلوغ ابنها فيصل سن الثانية عشرة تداول مع معلميه الذين كانوا يقومون بتعليمه مبادئ القراءة والحساب والقرآن الكريم ومبادئ الجغرافية والتاريخ واللغة العربية في القصر الملكي بصورة خصوصية وهم الاساتذة الاجلاء عالم الدين المعروف عبدالله محمد الشيخلي أحد كبار علماء الدين الاسلامي المعروفين (ت 1975) ود.ناصر الحاني (1920 – 1968) اول وزير خارجية بعد انقلاب 17 تموز البعثي عام 1968 الذي تولى الوزارة لمدة اسبوعين ثم أعفي في 30 تموز على اثر ازاحة حكومة عبد الرزاق النايف، وبعد فترة قصيرة قتل الحاني أمام داره (من قبل رجال الامن) لتقيد عملية اغتياله ضد مجهول كالعادة في زمن العفالقة المجرمين، كما وتداولت الملكة عالية (عدا الشيخلي والحاني) مع الدكتور مصطفى جواد (1909 – 1969) أيضا بخصوص إنطلاق تعليم إبنها من بين جدران القصر الملكي الى فضاء تعليمي أرحب كي يختلط بأبناء الشعب الذي سيصبح عليهم بعد حين ملكا.. فتقدم أحدهم بفكرة جميلة إستحسنتها الملكة عالية وبقية معلمي فيصل الثاني وهي فتح مدرسة بإسم كلية الملك فيصل الثاني (كلية بغداد فيما بعد) على أن يكون المنخرطون فيها من أوائل خريجي المرحلة الابتدائية من أبناء المتصرفيات (المحافظات) العراقية كافة كي يختلط ملك المستقبل بهم ويؤسس علاقات اجتماعية معهم ومن خلالهم يتعرف على شؤون وشجون ابناء شعبه ووطنه.

وهكذا كان، اذ تمت تهيئة كافة مستلزمات تأسيس مدرسة حديثة بإدارة الاباء اليسوعيين القادمين من امريكا وبريطانيا وبكادر تدريسي عراقي متميز وبوشر بالتدريس فهي مدرسة حديثة وبمستلزمات متكاملة وفضاءات خضر وقسم داخلي ممتاز علاوة على تكسية التلاميذ واطعامهم على حساب الملكة عالية أو من نثريات البلاط الملكي.

ومن بين هؤلاء التلاميذ نذكر شمال صائب (ت 1984) المطرب الكوردي الشهير فيما بعد، وزاهد محمد زهدي (الشاعر الشعبي والخبير الاقتصادي لاحقا (ت 2002) صاحب اغاني (هه برزى كورد وعرب رمز النضال لاحمد الخليل) و(مروا عليّ الحلوين لناظم الغزالي) و(كلما أمر عالدرب عيني على الباب لمائدة نزهت) و(مربع تحية للجزائر ولحكومتها للمنولوجست فاضل رشيد) وعشرات الاغاني الجميلة الاخرى، وكان من بين التلاميذ ايضا الصحفي الخمسيني عبد الستار الهماوندي والصحفي الاديب احمد شبيب البصري (ت 2004) الذي صار فيما بعد مديرا لمطبعة جريدة التآخي ومشرفا على صفحة (النافذة الثقافية) لجريدة العراق، وعلى أية حال فقد كان من زملاء فيصل الثاني في تلك المدرسة الوليدة مجموعة من الفطاحل

الذين صاروا فيما بعد رموزا للثقافة والنضال والفن، ويظهر انه كان من بين التلاميذ من هو منحدر من عائلة شيوعية مناضلة فقام ببث المفاهيم والافكار الاشتراكية واليسارية التي سرت سريان النار في الهشيم بينهم وعندما وقعت حكومة صالح جبر معاهدة بورتسموث الجائرة مع الحكومة البريطانية عام 1948 هبّ الشعب العراقي كله بكرده وعربه وبقية مكوناته لقبر هذه المعاهدة الاستعمارية المكبلة لحرية الشعب العراقي فانطلقت مظاهرة وثبة كانون الثاني عام 1948 حيث تجمع عشرات الالوف من المواطنين في شارع الرشيد من طلبة وفلاحين وعمال وشرائح اجتماعية اخرى وبالمقابل عبأت حكومة صالح جبر كل قواها القمعية من شرطة وأمن لمواجهة المنتفضين الذين واجهوا بصدور عارية النار والحديد لقبر تلك المعاهدة فأستشهد جعفر الجواهري (شقيق شاعر العرب الاكبر محمد مهدي الجواهري) وكذلك (قيس الالوسي) شقيق عالم الدين الشهيد الشيخ فؤاد الالوسي (إمام وخطيب جامع مرجان) بالقرب من الشورجة،، ثم إنتقل المتظاهرون الى الجسر العتيق (جسر المأمون) باتجاه جامع حنان بالكرخ المقابل لمديرية التقاعد العامة حاليا وهناك اشتد الاشتباك بين عملاء السلطة ورافضي المعاهدة الجائرة فأصيب واستشهد العديد من المتظاهرين حتى واجهت احدى المتظاهرات الشرطة الملكية بكل جرأة وشجاعة وهي التي اطلق عليها فيما بعد (فتاة الجسر) التي تحدت الشرطة لأنهم ارادوا قطع الطريق على المتظاهرين ومنعهم من عبور الجسر باتجاه جامع حنان حيث التجمع الرئيس واللقاء بعمال السكك الذين استجابوا لنداء الوثوب وإلتحقوا بالتظاهرة الكبرى التي قبرت بتضحيات الشباب تلك المعاهدة المشؤومة، فقامت الشرطة ورجال الأمن بإلقاء القبض على مجموعة من المتظاهرين ومن بينهم بعض تلاميذ كلية بغداد الذين سيّرتهم الشرطة الى سجن (نقرة السلمان) الرهيب في صحراء السماوة.

وعندما جنّ الليل إستنكر المعتقلون الشباب والصغار من تلاميذ كلية بغداد طبيعة السكن والطعام المقدم لهم والفراش البالي الذي زودتهم به إدارة المعتقل الرهيب ومن بينهم الشاعر (زاهد محمد) الذي طالب السجانين بتهيئة فراش نظيف وموائد وصحون نظيفة وملاعق وسكاكين وشوكات لتناول الطعام على غرار ما تعلموه في كلية بغداد.

وكان من بين نزلاء المعتقل المناضل الشيوعي الكبير هاشم جلاب أبو نزار (1920 – 2010) فاستغرب من طلبات الشاب الشيوعي صغير السن فكتب رسالة الى مؤسس الحزب الشيوعي العراقي وسكرتير اللجنة المركزية الشهيد فهد (1901 – 1949) أعاب على جيل الحزب الجديد مثل هذه الطلبات (البرجوازية) ! في سجن لا ينتظر الداخلون إليه أي بشارة للخروج منه سالمين ثم تساءل هاشم جلاب مستغربا: كيف سيقود مثقفوكم الشباب هذا الحزب العريق في قابلات الايام وهم يهذه العقلية؟

فأجاب الرفيق يوسف سلمان يوسف (فهد) على تساؤل الرفيق هاشم جلاب رادّا بجواب مقتضب مكثف على سخرية الرفيق المخضرم من الجيل الصاعد قائلا:

(المثقف هو من يحسن التصرف).

فاختصر القائد الكبير ردّه بهذه الكلمات الخمس ومما يجدر ذكره هنا ـ من باب الطرفة ـ بأن معظم الذين درسوا مع الملك فيصل الثاني (1935–1958) في المدرسة النموذجية التي تأسست على شرفه وتنعموا بظروف معيشية جيدة في كنفها صاروا – فيما بعد – شيوعيين معروفين معادين لنظام الحكم الملكي السائر في ركاب الغرب.

اتحاد الأدباء:
نحاول أن نمحو بعضاً من كمّ السواد والظلام والظلم

نصّ كلمة الامين العام لاتحاد أدباء العراق الشاعر ابراهيم الخياط التي ألقاها في افتتاح مهرجان (قصيدة النثر) الثالث المنعقد أيام 14/ 15/ 16 أيلول 2017 في البصرة - فندق مناوي الباشا:

زميلاتي العزيزات
زملائي الاعزاء
أساتذتي الأجلاء الاكارم
السلام عليكم وعلى البصرة أهلاً ونخلاً وأدباً ومدينةً حبيبةً ومحبوبة، وحاضنةً كريمة لشتى المهرجانات وعن شتى الابداعات، فمرةً عن القصة، ومرة عن الرواية، ومرة عن الجندر الادبي، ومرات عن العموم.. وأقصد المربدَ الحميم.
أيها الحضور الكريم..

هذه البصرة، وهذا اتحاد أدبائها المثابر رئيساً وهيأةً وعامة، ومَنْ غير البصرة تستطيع أن تتصدى لمحاور ملتهبة مثل قصيدة النثر، هذه القصيدة الثائرة التي وقفت مع العمود والحرّ والتفعيلات، وصارت تغرد ليس خارج السرب بل اتخذت لنفسها – وبجدارة – سرباً ومساراً وتغريدةً وسياقاً ونسقاً معارضاً للهيمنة.

ونحن في اتحاد الادباء نرعى ونهتم ونحتضن ونؤازر وندعم ونحتفي بالأجناس الأدبية كلّها وبكلّ تفرعاتها وتمظهراتها وأنواعها، ونطبع الاشكال كلّها، ولا نميلُ لشكل في مضاددة شكل آخر، ولكن نباركُ ونشدّ على أيدي الأدباء الثائرين على الشكل والمثوّرين للمتن.

أيها الملتقى الأثير..

إننا نرى في مهرجاننا هذا تتمةً لمعركة قواتنا المسلحة البطلة ضد الارهابيين الوحوش من الدواعش وبقايا البعث، ففي كلّ قصيدة نحاول أن نمحو بعضاً من كمّ السواد والظلام والظلم الذي يحاولون أن يلطخوا الحياة به، وسننتصر، لأن الشعر أمضى من الرصاص، وأقوى من البارود، وأعلى من الخلافة.

أيها الحضور الكريم..

ونحن نعقدُ ملتقانا هذا، نرى ونسمع طبولَ الحرب وهي تقرعُ، فنقول للكتل المتنفذة: كفى كذباً على الناس، كفى ادعاءً بأنّ التناحرَ لمصلحة العراق، فأنتم جميعا وليس غيركم مَنْ وقعتم معاً اتفاق أربيل عام 2010 وتقاسمتم الكعكةَ، والان تريدون أن تخدعوننا باستحالة الحوار، أم أنّه التحاصصُ ما يُقرِّبُ.

وهنا نخاطبكم يا مَنْ في المركز والاقليم، ونقول: إنّنا وبدماء بناتنا وأبنائنا طوينا الحرب الطائفية المقيتة عامي 2006 – 2007، وبثقافتنا الوطنية متعددة الرؤى والاطياف انتصرنا، والان نحن محفلُ الشعر والادب والثقافة في بصرة الشعر والأدب والثقافة، نقول لكم:

الحربُ قذرةٌ ولا يفكرُ بها الّا المجنون..

فلا وألف لا للحرب الاهلية..

ونقول لكم:

لقد فشلتم في إدارة البلاد، فعليكم أنتم أن تدفعوا الثمن أما أبناء شعبنا فهم قُرّة أعيننا، ونحميهم بأصواتنا وقصائدنا وقبلاتنا ودعائنا.

ومن بعيد، يأتينا أنينُ العمّ جاك بريڤيير:

آه بربارا

أيَةُ حماقة هي الحرب

أيةُ حزمةً من الاخطاء، تحلّ بنا !!

كيف أصبحتِ الان؟

.....

.....

فنردُ بعده:

آه. يا عراق...

كيَف أصبحتَ الان؟

.....

وفي الختام، أدعوكم الى الابتعاد عن الصخب لأن (وزارة الثقافة) نائمةٌ، ولعنَ الله من أيقظها.

والسلام عليكم..

الدلالات الآيديولوجية والسياسية في (النخلة والجيران) و(روايات جهاد مجيد)

د.صبيح الجابر*

القسم الاول :

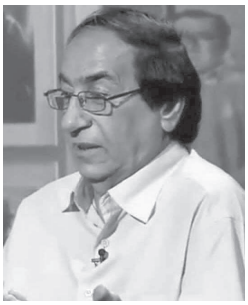

الأيديولوجيا: المفهوم والوظيفة

الايديولوجيا، من المفاهيم أو المصطلحات الحديثة التي ظهرت في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر، رغم أن ظاهرة الايديولوجيا، ظاهرة قديمة قدم الإنسان، لكنها لأتحمل توصيفاً اصطلاحياً واحداً، أو دلالياً محدداً أو ثابتاً، فقد تغيرت المفاهيم والمصطلحات، وتطورت مئات المرات عبر العصور، والمراحل التاريخية التي مرت بها البشرية.

والايديولوجيا كانت على الدوام تمثل بنيات فوقية متعاقبة، بما في ذلك الصراعات الفكرية والدينية والحضارية، ومختلف الظواهر الفوقية العقدية ،وبالتالي، فهي خطاب، وهي سياسة، وهي معتقدات دينية أو فكرية، أو وعي بقضية ما، أو وعي سائد يحظى بمزاج اجتماعي في عصر من العصور، أو رغبة دفينة عند الإنسان أو التزام.

وقد رأى بعض الدارسين العرب، ومنهم محمد مزوز، إنه بالإمكان وضع الايديولوجيا في أربع خانات، أو تعريفات، كالتعريفات النشوئية، والتعريفات الوظيفية، والتعريفات البنيوية، والتعريفات الماهوية. وكل هذه التعريفات يمكن اختصارها في مسارين اثنين، الاول: مسار الظواهر السياسية، والثاني: مسار يميل نحو توسيع مفهوم الايديولوجيا ليشمل كل مظاهر الثقافة في المجتمع. فتصبح الايديولوجيا رديفه للثقافة (1).

والايديولوجيا، شأنها شأن المصطلحات والنظريات الأدبية والنقدية الحديثة، والمناهج النقدية والمذاهب الأدبية، التي لا تقتصر على الأدب وحده، وإنما تتسع لتشمل مجالات الحياة الإبداعية الأخرى، التي تخضع للتطور والتجاوز لما هو سائد ومألوف.

فالتناص، كنظرية أدبية حديثة ظهرت في الستينات من القرن الماضي في اوربا، كمصطلح وكمفهوم، لكن جذورها الوظيفية، وتطورها التاريخي يعود إلى بدايات الوعي الاجتماعي، والوعي الفني، والوعي الفكري، الذي تميزت به البنيات الاجتماعية على مر العصور التاريخية.

وفي بيئاتنا العربية منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحاضر ظهرت مصطلحات ومفاهيم كثيرة في مختلف جوانب الحياة فقد ظهر مفهوم أو مصطلح الصعلكة، أو الصعلوك، الذي يعني الفقير، والصعاليك، الفقراء الذين عاشوا في العصر الجاهلي. لكن هذا المفهوم تغيرت دلالته، وانقلبت إلى غير ما وضعت له، فقد صار (شتيمة) تطلق على

المشردين، وقطاع الطرق، في حين أن الجوع والقهر والتهميش والإذلال الاجتماعي، وقوانين القبيلة الجائرة، ووصمهم بالرذيلة هو ما دفعهم إلى الثورة على واقعهم الاجتماعي، والتمرد على قوانين وعادات وتقاليد القبيلة، التي مارست ضدهم أشد أنواع القهر والاذلال.

والصعاليك هم فقراء دفعهم جوعهم إلى أن يثوروا على واقعهم، واقع الشقاء ليوفروا قوتهم اليومي، شأنهم شأن القبائل العربية الأخرى، التي منعتهم من المشاركة في الغزوات، والنهب والسلب، بحجة أنهم (عبيد) أو مولدون، من أمهات غير عربيات، هكذا هي المفاهيم في سيرورة التاريخ، فصعاليك الأمس (الجائعون) يمثلون اليوم (ثورة الجياع) أو الحراك الجماهيري من اجل الخبز والحريات، ومحاسبة الفاسدين والسراق.

وفي دراسة محمد مزوز حول الايديولوجيا نجد أن لفظ الايديولوجيا يطلق بشكل واسع على كل الظواهر العقدية قديماً وحديثاً، آذ يتحدث الكثيرون عن الصراع الايديولوجي في الإسلام والمسيحية، وعن الصراع الايديولوجي في الثقافة والحضارة الاغريقية (2).

والبعد الاجتماعي للتفكير الذي تجلى في مفهوم الايديولوجيا لن يتبلور ألا مع ماركس – كما يرى مزوز– الذي استعار هذا المفهوم من الأوساط الاشتراكية في باريس واستعمله على نطاق واسع.

ويرى الدارسون للايديولوجيا بأنها لاتتغير الابثقافة جديدة نقدية، تحملها وتدافع عنها طبقات ثورية، وتسعى لتسويدها (أي جعلها سائدة) أيديولوجيا، كمقدمة للسيطرة على القرار السياسي... لذلك يستخدم مفهوم الايديولوجيا في المجال السياسي للدفاع عن المعتقدات الخاصة بطبقة أو حزب أو فئة أو امة (3).

إن الايديولوجيا السائدة اليوم، والتي ما أن تقع عليها عينا القارئ أو يسمعها المتلقي سرعان ما ترسم في ذهنه تلك الصورة المالوفة للايديولوجيا السياسية أو الايديولوجيا الحزبية – المنظمة، ونادراً ما يتصور المرء في اللحظة الراهنة، ان المفاهيم الدينية، والخطابات الأدبية، والخطابات الثقافية، والخطابات السياسية هي أيديولوجيا، كما أنه لايتصور أن اللغة هي ايديولوجيا ايضاً.

والشيء المهم في بحثنا هذا، هو أن الخطاب الروائي هو خطاب أيديولوجي، وهو خطاب شامل لكل صنوف المعرفة، والاتجاهات الفكرية... فقد ذكر الكاتب البريطاني (د.هـ. لورنس) ذات مرة، ما معناه أن القسيس يتحدث عن الفردوس، والفيلسوف على اللانهائية، والواعظ يتحدث عن الوعظ، ويوم القيامة، والسياسي يتحدث عن التعبئة الجماهيرية تجاه قضية سياسية ما.. أما الروائي فانه يتحدث عن هذه الأمور جميعها في وقت واحد.. والسبب في ذلك هو أن جميع مظاهر الحياة في خيرها وشرها موجودة في الرواية، وهي التي تعيننا على قراءة الايديولوجيا المحيطة بنا قراءة واقعية، ذلك أن ما يصدر عن الروائي لابد وان يستند إلى قاعدة ايديواوجية، سواء في الوعي الاجتماعي أو الوعي الفني أو التبني أو الالتزام بشكل مأمن الالتزام الايديولوجي، فكل مأتاتي به الرواية لابد وان يغطي جانباً ما من الجوانب الايديولوجية المختلفة، التي تعج بها الحياة اليومية في تناقضاتها وصراعاتها، وفي خيرها وشرها آذ أن الفصل بين المضامين الاجتماعية الواقعية للرواية، وما يجري في واقع الحياة من تفاصيل يومية

أمر في غاية الصعوبة، كما انه لايمكن الفصل في الواقع بين الحياة الاجتماعية والحياة الأدبية – الروائية والسياسية، كذلك لايمكن الفصل بين الأدب الروائي والمضامين الايديولوجية والسياسية.

وقد بلغ الصراع الايديولوجي ذروته في القرن السابع عشر في أوربا بين ايديولوجيا الكنيسة، وأيديولوجيا العلوم الأكاديمية، والثقافة الأدبية والفنية الإبداعية، وتكلل هذا الصراع الايديولوجي بانتصار ثقافة العلوم الأكاديمية والثقافة الأدبية ليبتدئ عصر الحداثة والعلوم والتقدم والتطور من خلال سد الفراغ الايديولوجي الذي تركته الكنيسة وامتلائه بأيديولوجيا الحداثة المنتصرة.

لكن بعض المنظرين– كما يقول ايغلتون – يقدم الأدب بوصفه أيديولوجيا واعية من اجل إعادة بناء النظام الاجتماعي، وذلك في سنوات التمزق الاجتماعي والانهيار الاقتصادي، والاضطراب السياسي التي تلت الحرب العالمية الثانية(4).

وينقل ايغلتون رؤية انجلز الى الايديولوجيا، التي يقول فيها: ((بان الايديولوجيا ليست طقماً من المعتقدات المذهبية بل أنها تشير إلى الطرائق التي يحيا بها البشر ادوارهم في المجتمع الطبقي، والى القيم والأفكار والصور التي تربطهم بوظائفهم الاجتماعية، وتمنعهم من المعرفة الحقيقية لمجتمعهم ككل.

ويستنتج ايغلتون، ((أن انجلز يقترح علاقة معقدة بين الايديولوجيا والفن، علاقة اكثر تعقيداً من تلك التي تربط الايديولوجيا بالقانون او النظرية السياسية، لان الحقلين الاخيرين يجسدان بصورة شفافة اهتمامات الطبقة الحاكمة، وانشغالاتها)) (5).

غير أن الأدب ظل دائماً هو الوسيلة المثقلة بهموم الايديولوجيا، وعادة ما يحمل فن الأدب سر الايديولوجيا، ولا يبوح به بشكل مباشر، إلا أن هذا السر يظل على الدوام يمثل قطرات الماء المتساقطة على جذور النبته الإبداعية النظرة، في الوقت الذي يمثل فيه الأدب ومايزل غلاف السكر، الذي تغلف به قساوة الفلسفة أو السياسة أو الايديولوجيا، مر الطعم.

أيديولوجيا الرواية وأيدولوجيا الكاتب

وضع منظرو الأدب ونقاده بعض الفواصل العازلة بين الأدب والايديولوجيا، أو بين أيديولوجية الكاتب والنص الأدبي، ومن هؤلاء (تيري إيغلتون) الذي عبرَّ عن وجهة نظره في قوله: ((لا ينبغي دمج أيديولوجية المؤلف مع الايديولوجيا العامة، ولا ينبغي مطابقة ايديولوجية المؤلف مع أيديولوجية النص، إذ أن أيديولوجية النص ليست تعبيراً عن أيديولوجية المؤلف، أنها نتاج العمل الجمالي على الايديولوجيا العامة، كما أن الأخيرة أي الايديولوجيا المنتجة، والمشتغل عليها بوساطة تحتيم عوامل تاليفية.. سيرية. إن ايديولوجية المؤلف أذن هي الايديولوجية العامة، كما عيشت واشتغل عليها ومثلت من قبل وجهة نظر معينة محتمة داخلها)) (6).

فأيديولوجية نجيب محفوظ في الثلاثية (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية) والمعبرَّ عنها من خلال الشخصيات وماجرى بينها من صراع على مدى ثلاثة عقود تقريباً من عام (1917 وحتى نهاية عام 1944) وتجلى مثل هذا الصراع بشكله البسيط بين كمال التلميذ – آنذاك – ابن الجيل الثاني وأمه أمينة، ربة البيت، المؤمنة بالأفكار التقليدية، التي تربت عليها، ومنها مثلاً إيمانها بأن الأرض يحملها (قرن ثور) وكمال

الذي يوضح لها كروية الأرض ودورانها حول نفسها، وحول الشمس، أي ما يتعلمه في المدرسة الحديثة، النظامية.. وكذلك تجلت أيديولوجية الكاتب الناطقة بلسان (كمال) الابن الثالث في عائلة السيد احمد عبد الجواد (ياسين، وفهمي، وكمال) والبنتان (خديجة وعائشة) الذين يمثلون الجيل الثاني، وهو جيل بدأ يتشرب العلم وصنوف المعرفة، وخاض صراعاً مع الجيل الأول، أو بين أبناء الجيل الثاني أنفسهم.

وقد تلقى السيد احمد عبد الجواد، رمز الجيل الأول أعنف صدمة في حياته.. هذه الصدمة هزّت كيانه، وخلخلت توازنه وتفكيره، حين علم بان ابنه (كمال) قد نشر مقالاً في مجلة (العلوم) عن (نظرية النشوء والارتقاء وصاحبها داروِن) وتبين له بان أصل الإنسان حيوان. هذا الكلام زلزل كل معتقداته، وانهارت على أثره سلطته الأسرية وجبروتها، القائمة على ازدواجية مفضوحة بين أصدقائه، ازدواجية يميزها الكتمان، وتحاط بسرية، ولا يمارسها ألا ليلاً من خلال سلوكين: الأول يستند إلى التقوى والتمسك بالعادات والتقاليد. والثاني: ممارسة السكر والتهتك، واشباع رغباته الجنسية في العوامات، ومع (العوالم).

وبعد هذه الصدمة تراجعت قوته، وسلطته الأسرية، ليعيش وسط صراع آخر، صراع أيديولوجي سياسي بين أحفاده، أبناء الجيل الثالث وأصدقائهم (ورفاقهم) أو (إخوانهم) في تنظيمات الأحزاب السياسية – الايديولوجية، كحفيدة احمد بن خديجة الشيوعي، وزميلته الشيوعية، المحررة في مجلة (الحياة الجديدة) سوسن حماد، التي أصبحت زوجته في ما بعد، وما حصل بينه وبين شقيقه المنتمي إلى (حزب الإخوان المسلمين) وما يدور بين الايديولوجيتين من صراع، تميل كفته لصالح طرف على طرف أخر من خلال ما يطرحه كل طرف من حجج وأفكار، وما يمارسه من سلوك وهذا ما يشخصه القارئ بعد متابعته حوارات الشخصيات، وما يجري بينهما من جدل. وبالتالي فان النتيجة التي يخرج بها القارئ تؤكد بأن تأييد القارئ لهذا الطرف أو ذاك كان قد خلقه الكاتب من خلال تربيته للشخصية على هذه الأفكار والمعتقدات.. فما تنطق به الشخصية من آراء ومعتقدات مؤثرة، عادة ما تكون منسجمة مع مايريده الكاتب، ويروج له أيديولوجيا بواسطة الجوهر الموضوعي، الذي تبنى عليه الرواية بناءً فنياً وفكرياً، وما تحتوي عليه من قيم جمالية تنتمي إلى أيديولوجية الرواية في بنائها الفني.

ما تقدم إذن يؤشر على دلالات أيديولوجية وسياسية تبنتها شخصيات روائية مثلت ظل الكاتب وروحه على الورق.. وهذه الشخصيات شغلت الزمن الداخلي للرواية وأحداثها، التي وقعت ورصدتها الرواية، أي زمن وقوع الأحداث على الأرض، الذي يختلف عن الزمن الخارجي، ممثلاً بزمن الكتابة والطباعة والقراءة. وهكذا فان: ((وضع النص في سياق بنيته الثقافية والاجتماعية والتاريخية، التي أبدع فيها يمكنه الكشف عن خصوصيته من خلال استخلاص رؤياته وأصواته وشخصياته المهيمنة))(7).

ومن الأمور الأخرى، التي أكد عليها منظرو الأدب، هي أن الواجب يحتم إرجاع المنظور الايديولوجي إلى الرواية وليس إلى الكاتب، فقد يختار الكاتب أصواتاً مخالفة لصوته، مثلما جعل محفوظ صوت أمينة مخالفاً لصوته، فقد كانت أمينة تتشبث بمعتقداتها التقليدية في رؤية الأشياء المحيطة بها،

وفي تشبثها بموقفها المتعاطف مع الجنود الانجليز المحتلين لبلدها.

إن الدلالات الأيديولوجية والسياسية في الثلاثية كانت صريحة، وناطقة بصوت عال في زمن مثّل بدايات الخروج من شرنقة الفكر المتكلس في فترة مابين الحربين العالميتين، كما كشفت الثلاثية عن ايديولوجية القوى الوطنية المناهضة للاحتلال البريطاني وحركة الجنود الانجليز في شوارع القاهرة، وقمعها للمتظاهرين.

وفي مدن المستعمرة البريطانية، التي احتلتها بريطانيا العظمى عام 1839، وتحررت في عام 1967 في الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) صدرت أولى الروايات النقدية الفنية عام 1948 للكاتب عبد الله محمد الطيب(أرسلان) بعنوان (يوميات مبرشت) وهي عبارة عن يوميات روائي في مجتمع يعيش تحت ظل ايديولوجية استعمارية قائمة على التجويع والغلاء وتهريب البضائع، ويذكر (معرّف) الرواية عبد الرحيم لقمان بأنَّ في الرواية نقداً كثيراً لمظاهر الحياة اليومية لمجتمع عدن في أربعينات القرن الماضي، وكذلك منها نقد للقات، ونقد للنساء والحياة الزوجية وللمعاملات بين الناس، ونقد للنظام العالمي والمحلي، الذي خلقته ظروف الاحتلال حيث تنقل الثروة من أيد إلى أيد أخرى دون استحقاق، سوى في المهارة في التهريب، والقدرة على توسيع الرشوة، وهي ظواهر تكاد تكون متشابهة في القاهرة في عهد الاستعمار البريطاني في رواية نجيب محفوظ (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية) أو في بغداد في عهد الاحتلال البريطاني، كما وصفته رواية (النخلة والجيران) لغائب طعمة فرمان، التي كشفت واقع المجتمع العراقي في فترة ما بين الحربين العالميتين، أو في عدن في عهد الاستعمار، الذي دام أكثر من 128 عاماً، فقد كشفت (يوميات مبرشت) ما كان سائداً في عدن أواخر الأربعينيات، حيث أطلقت كلمة (البرشات) للدلالة على التهريب، وسبب ذلك أن احد رجال بوليس سلاح الطيران البريطاني كان في دار الأمير يفتش على بعض الأدوات المسروقة، فراعه ما رأى من كثرة البضائع المكدسة هناك، فقال لمرافقه وهو يظهر الاندهاش: لابد أن هذه البضائع قد أنزلت بالبرشوت، وإلا كيف أتت والبوليس المدني مرابط في كل مركز، فانتشر ما قال بين الناس، ورافقت كلمة (البرشوت) هوى في نفوسهم، فأطلقوها معنى على التهريب في عدن منذ ذلك اليوم (8).

وفي العراق ظهر مصطلح (الحواسم) بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 وهو يعني السيطرة على الأرض والعقارات والأموال والمحلات التجارية بصورة غير مشروعة وبدون وجه حق وقد أصبح المصطلح مألوفاً وشائعاً بين الناس.

وفي هذا المعنى يرى غولدمان، أن النص الأدبي يستمد معناه و(بنيته الدلالية) من رؤية العالم، التي يعبر عنها، وهو يقول: ((إننا لانستطيع أن نفهم (البنية الدلالية) ألا أذا ربطناها ببنى أوسع: كالبنى الذهنية، ورؤى الطبقات الاجتماعية للعالم، والبنيه الاقتصادية – الاجتماعية، التي تفرزها حقبة تاريخية معينة)) (9). فإذا كان الكاتب يأخذ عن مجتمعه المكونات الثقافية والأدبية والفنية، فانه يأخذ ضمناً أيديولوجية هذا المجتمع، ليدخلها في نصه الروائي، ومع أن الذات المبدعة لها هامش غير قليل من الإبداع الفردي، فان المجتمع له الدور الأكبر في عملية الإبداع الفني(10).

من هنا وجدنا بعض المنظرين ممن يرون بان الرواية ذاتها هي ايديولوجيا مادامت

قد عبرت عن صراع ايديولوجيات عديدة في المجتمع، أو أنهم يرون بان الرواية تتعاطف مع ايديولوجية من هذه الايديولوجيات المتصارعة والتعبير عنها من خلال البطل، الذي ينطقه الكاتب بالايديولوجية التي يتعاطف معها، وهذا ما كان واضحاً عند نجيب محفوظ، وعند غائب طعمه فرحان، وكذلك عند جهاد مجيد.

وقد وسع محمود أمين العالم من مفهوم الايديولوجيا، فهو يرى بان ايديولوجية الخطاب الروائي لا تتمثل فحسب في الموضوع السياسي او الاجتماعي المباشر الذي يعالجه هذا الخطاب، او حتى في ما يوحي إليه من دلالة سياسية او اجتماعية مباشرة، فالايديولوجيا لاتتجلى في المواقف السياسية والاجتماعية فحسب، بل قد تبرز بشكل او باخر في قضية حب او في رؤية للطبيعة أو في حكاية أسطورية مجردة(11).

ويبدو هذا واضحاً في البنية الموضوعية للرواية، التي تسعى لتمثل حياة مجتمع بأسره، وبتنوعه الثقافي والفكري والسياسي، وبتعدد أصواته وصراعاته، وما فيه من خير او شر، وكذلك ما فيه من حب أو كره، أي أن الرواية تمثل حياة المجتمع في حقبة زمنية محددة، وفي بيئة مكانية معلومة.

آيديولوجيا الواقع في (النخلة والجيران)

عاشت رواية (النخلة والجيران) تفاصيل واقع حياة الناس المهمشين في بعض أحياء بغداد الشعبية، الملتصق بزمن الفعل الداخلي للرواية، الذي يغطي فترة الأربعينيات تحديداً، فترة الحرب العالمية الثانية، التي تجري – آنذاك– في مواقع بعيدة عن العراق، إلا أن أصداء معاركها، وأصوات مدافعها كانت تدوي في شوارع بغداد وازقتها، وتتردد على السنة الفقراء والمهمشين والمكتوين بنارها.

وقد كان الخطاب العام الشائع في بغداد، هو خطاب وأيديولوجية الحرب العالمية الثانية، وأصداؤها، وفضائعها ومآسيها، وما صاحبها من شحه للمواد الغذائية الضرورية من دقيق وسكر وخام (قماش) وما يعانية المواطن الفقير من السوق السوداء والتهريب، والرشاوي والنصب والاحتيال، وكل ما هو سيئ ورد إلى بغداد مصاحباً لجنود الاحتلال الانجليزي، الذين مررنا عليهم في سياق البحث في أحياء القاهرة الشعبية في (ثلاثية نجيب محفوظ) وفي أزقة عدن وضواحيها في رواية (يوميات مبرشت) وفي زمن واحد تقريباً، هو أربيعينيات القرن الماضي، زمن الحرب العالمية الثانية.

إن رواية (النخلة والجيران) قد ألقت حزمة من الضوء على واقع الحياة، ووفرت رؤية مقربة لتفاصيل طبيعة الحياة اليومية في إحياء بغداد الشعبية في فترة قصيرة هي فترة الأربعينيات، فترة كان يتحرك فيها جنود الاحتلال في شوارع بغداد وإحيائها.

وقد شكلت (النخلة والجيران) امتداداً فنياً لذلك النشاط الروائي والقصصي، المقيَّم فنياً من قبل كتاب وأساتذة النقد العراقيين وغير العراقيين، كعلي جواد الطاهر، ومحمود العبطة، وعبدالاله احمد، ومحمود تيمور وغيرهم، ذلك النشاط الذي قام به احد رواد هذا الفن، الكاتب والصحفي العراقي محمود احمد السيد، الذي ظهر نتاجه الروائي في عام 1921 عندما نشر رواية (في سبيل الزواج) وفي عام 1922 صدرت له رواية أخرى بعنوان (مصير الضعفاء) وكذلك مجموعه (النكبات) في عام 1922، وإذا كانت هذه البدايات لم تعد بدايات فنية للقصة القصيرة والرواية، فان ما كتبه من مقالات

صحفية ينتقد فيها الواقع المتخلف بعد ثلاث سنوات على انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد حرصت تلك الكتابات على ان لا تبقى زواية من زوايا الحياة اليومية الا ووجهت نحوها حزمة ضوء كاشفاً ما فيها من عيوب وتخلف وامية وجهل.

ورغم توقف السيد عن كتابة القصة القصيرة والرواية إلا انه عاد عقب أربع سنوات من التوقف بعد أن هيأ أدواته الفنية، واطلع على ماترجم من الروايات الروسية إلى اللغة التركية، التي كان يجيدها، أو ماترجم منها في مصر عن الانجليز أو الفرنسية إلى العربية، عاد واصدر رواية (جلال خالد) عام 1928، التي عدت أول رواية فنية عراقية، وكذلك اصدر مجموعتين قصصيتين الأولى (في ساع من الزمن) والثانية (الطلائع) وكانت قصة (بداي الفائز) من مجموعة (في ساع من الزمن) وقصة (انقلاب) من مجموعة (الطلائع) ابرز قصتين قصيرتين حظيتا بكتابات نقدية في مصر وسوريا، وكانت هاتان المجموعتان قد صدرتا في عام 1932.

وهكذا استطاع هذا الكاتب ان يشغل فترة مابين الحربين العالميتين، رغم انه كان قد توفى في عام 1937، ولم يكمل الثامنة والثلاثين من عمره، فقد أوصل الواقع التاريخي للمجتمع العراقي خلال الفترة الممتدة من (1921 - 1937) أوصله بفترة الأربعينيات حيث غائب طعمه فرحان، وتوفى قبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية بسنتين [12].

بعد محمود احمد السيد يأتي غائب طعمة فرمان، والذي ولد في عام 1927 بعد عام من ولادة بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب ألبياتي، وبلند الحيدري، الذين ولدوا في عام 1926، وكانت نازك الملائكة قد ولدت قبلهم بسنوات قليلة.

إن رواية (النخلة والجيران) لاتبتعد كثيراً عن رؤية هيغل وماركس ولوكاش وكوفلر الى الرواية الواقعية، فقد أكد لويس غولدمان على أن هؤلاء قد ربطوا بين الواقع المعاش، وفهمنا لهذا الواقع، فهيغل – كما يقول غولدمان – ركز على البعد الشمولي للواقع، وإمكانية وعيه او وعي أجزاء منه وربط هذه الأجزاء بالكل، وتكلم ماركس عن النمطية، التي هي بمثابة وسيلة للكشف عن جوهر الواقع الاجتماعي[13].

وفي ذلك لا يبتعد (هنري جيمس) الانجليزي في رؤيته الى الرواية عن رؤية سابقيه، فهو يرى بأن الرواية هي صورة وتاريخ وفن، ويرى أن تكون إحداثها كأحداث التاريخ حقيقية.. إن الرواية حرة وصادقة في آن واحد، مثلها في ذلك مثل أي فرع أخر من فروع الأدب.. وهي أي الرواية ليست عملاً آلياً يكتب تبعاً لهذه المواصفات [14].

ربما أراد غائب طعمه فرحان في رواية (النخلة والجيران) أن يقول لنا ما قاله ذات مرة (هنري جيمس) عندما صرح بوضوح: ((أن مهمتي التي أحاول الاضطلاع بها، هي ان أجعلكم ترون... فاذا نجحت في هذه المهمة فستجدون في عملي بقدر ما تستحقون: التشجيع والمواساة والخوف والفتنة، وكل ما تطالبون به، بل قد تجدون علاوة على ذلك – تلك النظرة الخاطفة للحقيقة، التي نسيتم أن تطلبوها))[15].

ففي أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات برزت دعوات جديدة في ميدان الأدب، ومنها ما ذهب إليه سلامة موسى، الذي دعا الى أن يتجه الأدب لمعالجة مشكلات المجتمع، والى ان يتصدى لمهمة الإصلاح الاجتماعي والدفاع عن الحريات، والمطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة، ونبذ أن يكون الأدب للذه الذهنية أو الترف الذهني.. وخلال هذه

الفترة، أي في أواخر الأربعينيات 1947 وبداية الخمسينيات كان غائب طعمه فرحان موجوداً في مصر، وأتاحت فرصة وجوده ان يعمل في مجلة (العالم العربي) التي كان مراسلاً لها في بغداد، وبمساعدة زكي مبارك اتصل بجريدة (البلاغ) ثم اشتغل في جريدة (الثقافة) التي كان يراس تحريرها احمد أمين(16).

أن الفترة الزمنية الأنفة الذكر كانت فترة حاسمة في الأطروحات السياسية والفكرية والأيديولوجية والأدبية أتاحت لشاب طموح مثل غائب ان يدخل معتركاً ثقافياً جديداً يخوض فيه تجارب جديدة.

وفي هذه الفترة الزمنية ذاتها سرى في العراق ما كان يسري في مصر، فقد شهد العراق ولادة أولى قصائد الشعر الحر أو شعر التفعيلة، ففي أواخر عام 1947 نشرت نازك الملائكة قصيدة (الكوليرا) في مصر، وقد كتبتها بطريقة الشعر الحر، وفي بداية عام 1948 صدر ديوان (أزهار ذابلة) بدر شاكر السياب وفيه قصيدة (هل كان حباً) وبأسلوب الشعر الحر ايضاً.

من هنا كانت بداية القصيدة الحرة أو قصيدة التفعيلة بعد ثلاث سنوات ايضاً على إيقاف الحرب العالمية الثانية 1945، والحال كذلك بالنسبة لصدور أول رواية في العراق (في سبيل الزواج) علم 1921 لمحمود احمد السيد بعد ثلاث سنوات على إيقاف الحرب العالمية الأولى 1918.

هذا التواصل الفني والفكري والأيديولوجي يكاد يكون مترابطاً وحركياً بين البيئات الثقافية العربية في الزمان والمكان. فقد تابع غائب طعمة فرحان الندوات الثقافية والأدبية في القاهرة، وواظب على حضور ندوات سلامة موس، وهو طالب في كلية الآداب، وقد أسهمت هذه البيئة في بلورة توجهه السياسي، المرتكز على رؤية اشتراكية منحازة للدفاع عن الطبقات الفقيرة في سياق وعي قائم على الاحتكام الى العقل، معززاً هذا التراكم الثقافي والمعرفي من خلال اطلاعه على الأدب الروسي، والأدب الأوربي بشكل عام، وكانت الرواية والقصة منطلقاً لعالمه الإبداعي، واداة للتعبير عن أفكاره وإيديولوجيته الفكرية والسياسية، متأثرا بفضاءات غوركي في تعامله مع العمال والفقراء، وفي وصفه للأحياء الشعبية، كما أن إقامته في موسكو منذ عام 1960، وما يمتلك من لغات انجليزية وروسية وعربية أتاحت له فرصة الاطلاع على أهم النتاجات الأدبية في العالم.

ومن رحم تراكمات غائب المعرفية والفنية ولدت رواية (النخلة والجيران) عام 1966، وقد كانت هذه الرواية عبارة عن رصد شعبي بأدوات فنية، تحركت بين أوساط الفقراء في فترة من أصعب فترات المجتمع العراقي في أواخر النصف الأول من القرن العشرين واستطاعت ان تعيش بين أوساط الفقراء، والمهمشين، وتصور بتلقائية بسيطة طبيعة حياه هؤلاء الناس، وهمومهم اليومية، وأقصى غايات ما يطمحون إليه، هو العيش الكريم، والشعور بانهم بشر ينتمون إلى مجتمع متقارب في وسائل عيشه، لا أن يقسم المجتمع إلى أغنياء متخمين، وفقراء محرومين، والأغنياء تطلق عليهم (سليمة الخبازة) الشخصية الرئيسة في الرواية (العوائل المحتمشة) التي تأكل الصمون الأبيض، في حين تعاني الطبقات الفقيرة من الانتظار الطويل للتموين والطحين الأسود. إذ أن فترة الحرب العالمية الثانية كانت قد عمقت المأساة الاقتصادية، فازدادت طبقات المجتمع العراقي الفقيرة فقراً، كما كانت الحرب ذات اثر كبير على حياة غائب، وعلى

وعيه وثقافته وإبداعاته السردية، آذ عمقت في داخله مكامن المأساة الاجتماعية.
أن غائب طعمة فرمان كان قد أنشأ رواية الايديولوجيا الجمالية بفضاءات رمزية وفنية لفن الواقعية الحديثة، ونصوصه تفصح عن ذلك جلياً، ويمثل التطور الفني للرواية العراقية – العربية المعاصرة خير تمثيل.
وهذه الفضاءات للايديولوجيا الجمالية، التي استطاع فرمان أن يبني نصه السردي في أجوائها يمكن أن نطلق عليها بالايديولوجيا المتوارية، أي الايديولوجيا المذابة في النص السردي، أو المتوارية خلف النص السردي، وهي الايديولوجيا المنسجمة مع طبيعة الواقع التاريخي للمجتمع العراقي في اربيعينيات القرن الماضي، وهي ايديولوجيا محدودة التأثير على الشخصيات الروائية أساسية كانت أم ثانوية، وهي لاتبرز كما تبرز الايديولوجيا المتباينة، تلك التي ظهرت في روايتي جهاد مجيد، والتي غطت فترة السبعينات وتداعيات هزيمة حزيران عام 1967، وهي ايديولوجيا ظلت حبيسة زمن وقوع أحداثها الداخلية وخاصة رواية جهاد مجيد الثانية (تحت سماء داكنة)، ولم تظهر الأبعد أن توارت ايديولوجية الدم بعد عام 2003، زمن الكتابة والقراءة، أي زمن الرواية الخارجي.

الآيديولوجيا المتوارية في (النخلة والجيران)

يعتقد باختين بأنه ليس هناك شيئ في الرواية يكون محايداً بالنسبة للأطروحة الايديولوجية (17)، أي أن ما تريد الرواية البوح به من الأهداف والأيديولوجيات لابد أن يتستر خلف دلالات او رموز لبعض الايديولوجيات السائدة في المجتمع، وهي لاتبرز إلامن خلال صراعها الجدلي على ألسنة الشخصيات في مجتمع الرواية المتباين القناعات والأهداف، ومنطلقات الوعي الفردي والجماعي.
لقد عمل فرمان في (النخلة والجيران) على أن يكون منسجماً مع ما كان يطلبه (هيغل) من الفنان، إذ أن هيغل لا يعد الفنان فناناً الابقدر ما يعرف من (الحقيقة) ويعرف كيف يضعها تحت أنظارنا في الشكل الأنسب لها، لذلك ينبغي عليه – كما يقول هيغل– أن يأخذ بعين الاعتبار في التعبير عنها، مستوى حضارة عصره، ولغته(18).
الأمر الذي فعله (فرمان) حقاً في (النخلة والجيران) إذ أنه عرض علينا الحقيقة كاملة، سواء من خلال سكان الخان أو من خلال (طولة) خيول مرهون العربنجي، أو من خلال معاناة ألخبازة (سليمة) أو من خلال (حيَل)مصطفى (القفاص) في لغتنا الشعبية الشائعة اليوم.
وفي هذا السياق ترى الناقدة يمنى العيد، بأن قراءة الروايات لكاتب ما وفق تاريخ كتابتها الزمني تساعد على تتبع حركة نموها في بنائها الفني وفق الموقف والرؤيا عند شخصياتها، كما تسهل امكانية تقصي ميزات واسلوب الرواية عند الاديب في تارجحه بين الرمزية والواقعية، التي لم تكن على بساطتها احياناً لتخلو من بعد رمزي يغني ماهو عادي ويرتفع به الى مستوى ماهية القضية، وذلك ضمن بعدين: هما الواقع التأريخي لهذه القضية، ورؤية الكاتب لها(19).
وروايات فرمان تتسم بالصدق الحقيقي لا لمجرد مطابقة التفاصيل فوتوغرافياً بل يعني كذلك المشاعر والتجربة الشخصية، وأفكار العصر ورغم أن (النخلة والجيران) كانت البداية الفنية الأولى للروائي، لكنها وضعت

الأسس الحقيقية لفن الرواية العراقية، بوعي فني يعتمد على تلقائية الشخصيات في سلوكها وحواراتها وطموحها في تغيير واقع الحال المتردي... فمنذ مطلع رواية (النخلة والجيران)، أو ما تسمى بالافتتاحية يطرق مصطفى باب بيت (سليمة الخبازة) وبعد تردد وأسئلة تعريفية بسيطة فتحت الباب، وأعقبه حوار بسيط، رفعت الفانوس قليلاً، فكشف الضوء عن هيئة مصطفى: ((نحيل فوق رأسه الصغير سدارة، وفي يده مسبحة، لم يتركها تفكر، بل عاجلها بالسؤال عن صحتها في ملاطفة، وكأنما يعرفها منذ زمن طويل))(20).

وبعد ذلك ذكرها ب (عليوي) الله يرحمه عندما يأتي معه، كما ذكّرها بيوم الأربعين بعد وفاته، وكيف أن قلبه ينحصر كلما يمر بالقرب من البيت، ثم رأت رقبته الطويلة الهزيلة، وحنجرته الناتئة، واخبرها بأنه ترك أصدقاءه في القهوة، وجاء يسأل ((على أم حسين))، و((صحبته الى الحوش، ووضعت الفانوس على التنور، وفرشت له مندراً على ظهر (الجاون) فجلس، وبركت هي على بعد خطوات منه، ملفوفه بعباءتها، وبعد ان استقر في جلسته سالها:

– وصحتج اشلونها ؟ الله يسلم صحتك، وحسين اشلونه، بعده بالمدرسة ؟

– من زمان بطل.. المدرسة متوكل خبز)) (21).

من هنا بدأت أحداث الرواية، المرمّزة أيديولوجيا، ومن هنا نحاول رصد الرموز الايديولوجية سواء من حيث هيئة مصطفى وسدارته ومسبحته، ويوم اربعينية المرحوم عليوي، أو من خلال أسلوبه في الحركة أو الحوار أو من خلال طرح الأسئلة.. انه هنا يرسم هيئة الايديولوجيا السائدة (والمقدَّرة والمكتوبة) ايديولوجيا تتحدث عن (تقوى ملفقة) و(تراحم مزيف)، والسؤال عن المكتوب على الإنسان وما قدر له في الحياة.. والرمز الأخر (المدرسة متوكل خبز) كما جاء على لسان مصطفى، معبراً عن النظرة الدونية والموقف من العلم ومستقبله، ومستقبل التعليم والتدريس، وهو موقف معاد للعلم والتقدم وتطور الحياة، وإلغاء أي أمل بالتحول، تحول حياة الإنسان من البؤس والشقاء إلى حالة أخرى تحمل سمات التحرر من الشقاء والظلم والشعور بشيء من السعادة والاطمئنان.

بهذه الرمزية الايديولوجية، المتوارية خلف اللغة البسيطة، المتداولة على السنة المتحاورين ممن خبروا الحياة، وتأكدوا من صواب طريق حياتهم التي يعيشونها تتشكل أولى ركيزة ايديولوجية متوارية تتحكم بمصير الغالبية العظمى من مجتمع الرواية، وفضائها الفني الواقعي، ألا وهي ايديولوجية الجهل والفقر والتخلف، ومعاداة العلم والمعرفة، وهي ايديولوجية متوارية في فضاء لغة الرواية وحديث شخصياتها. وهنا يؤكد انجلز على انه: ((كلما اختفت أراء المؤلف السياسية أفاد هذا الاختفاء العمل الفني))(22).

وفي هذا السياق ايضاً يشير –صلاح فضل– إلى أن العمل الفني ليس بالضرورة ان يصور الشعارات الحالية للصراع، ولكنه هو الذي يعطي الإنسان أسمى درجة من الوعي، ويعطيه القدرة على تغيير الطبيعة والمجتمع، وحتى تغيير نفسه(23).

وفي حديث آخر لمصطفى مع (سليمة الخبازة) حول الحرب وحركة الجنود الانجليز في بغداد، إذ قال مرة: الحرب بلاء من الله... قالت باستسلامها الموروث: أرادته!! ويواصل حديثه عن الحرب مع سليمة قائلاً: مصائب قوم عند قوم

فؤائد... واستمعت إليه في حذر، وهو يتابع قوله: ((الحرب شر وخير، شر هو هذا الغلاء الأسود، وصمون السجون، والجاي والشكر والخام بالبطايق، وميدري واحد اش وكت تجي قنبلة وتموته.. والخير للي عنده مخ... قالت: والواحد منين يجيب مخ)) ؟ وبعد أحاديث أخرى في الموضوع، صمت عن قصد، ومسح طرف فمه بسبابته.. وقال جامعاً إصبعه الوسطى مع ألسبابة والإبهام: ((اكو ناس عدهم قبضة مخ، تشوفيهم يطلعون ذهب، تشوفيهم ميعرفون شيء إلا شلون يطلعون فلوس: والدنيا ما بيها غير الفلوس.. اللي ماعنده عانة ميسوه عشر فلوس))[24].

ومصطفى متابع لتطور بغداد، وتطور الحياة فيها في فترة مابين الحربين العالميتين، وهو يتذكر ان أباه كان: ((يروح لسلمان باك على دابة، اليوم ديركبون سيارات وطيارات وباجر مَنْ يدري ايش راح يصير، يمكن يصعدون لسابع سما.. اهتزت لهذا الكفر فقالت مستغفرة: اعوذ بالله، لا عيني هذولة كفار)) [25].

* جامعة بغداد / مركز احياء التراث العلمي العربي

الهوامش:

1 - انظر : محمد مزوز: مجلة (الوحدة) العدد -75ك 1 - 1990/27.
2 - المصدر السابق : ص27.
3 - احمد الجباعي / الايديولوجيا والوعي المطابق / مجلة (الوحدة) ع75/ ك 1 - 1990/ 37 - 38.
4- نظرية الادب : تيري ايغلتون: 78 - 79.
5- النقد والايديولوجيا : تيري ايغلتون: 10 - 11
6- المصدر نفسه : 76.
7- مقدمة فضاء النص الروائي (مقارنة بنيوية تكوينية): محمد عزام : 5.
8- مقدمة رواية (يوميات مبرشت) :4.
9- فضاء النص الروائي : 45.
10- المصدر نفسه : 145.
11- الرواية العربية (بين الواقع والايديولوجيا): 20.
12- انظر : محمود احمد السيد والبداية الفنية للأدب القصصي في العراق / مجلة زانكو/ جامعة صلاح الدين – اربيل / العدد 28لسنة 2006 / د.صبيح مزعل جابر.
13- في البنوية التركيبية: جمال شحيد : 37.
14- نظرية الرواية في الادب الانجليزي : 29.
15- المصدر نفسه : 51.
16- غائب طعمة فرمان (حركة المجتمع وتحولات النص) : 23 - 25.
17- الخطاب الروائي : باختين : 349.
18- فكرة الجمال : هيغل : 287.
19- ممارسات في النقد الادبي : يمنى العيد : 37.
20- (النخلة والجيران) : 10.
21- المصدر نفسه : 10 - 11.
22- منهج الواقعية في الابداع الادبي : صلاح فضل : 99.
23- المصدر نفسه : 102 .
24- النخلة والجيران : 12 - 13.
25- المصدر نفسه : 15 - 16.

تشكلات البنى الاجتماعية والتقابلات والأنساق السردية في رواية "الذباب والزمرد"

د .سلمان كاصد *

المقدمة

يعتمد عدد من النظريات الأدبية على بحث العلاقة بين الأثر الأدبي والطبقات الاجتماعية التي ينتمي إليها، وفي ضوء ذلك تتم قراءة الأثر وتحليله بسياقاته السوسيولوجية التي وجد فيها، ومن تلك النظريات ما أطلق عليها بـ (البنيوية التكوينية)، تلك النظرية التي تسعى إلى إيجاد واكتشاف أوجه التشاكل بين البنية النصية والبنية الذهنية للطبقة او الفئة الاجتماعية التي يتمثلها النص.

تتشكل البنيوية التكوينية من دعامتين أساسيتين وهما: التعرف والتحليل (التفسير والتأويل) حيث يعنى المصطلح الأول "التعرف" بالبنية النصية، أي دراسة النص بنيوياً من داخل العمل النصي بما يعني "التحليل الداخلي" اما المصطلح الثاني "التحليل" فيربط استنتاجاتنا حول البنية الدالة الكلية بما هو اجتماعي يتمظهر في النص نفسه بما يعني "التحليل الخارجي"، وكأننا نصوغ العمليتين "الدعامتين" بالطريقة الآتية:

التعرف داخل نصي بنية دالة

التحليل خارج نصي رؤية العالم

و"رؤية العالم" هو المصطلح الأساس الذي يشير إلى أن الرواية تحديداً، لا تعتبر الوقائع فعلاً فردياً، منفرداً وخاصاً، بل هي تشكيلات لحركة المجتمع ورؤيته الدلالية على مستوى التماثل بين النص ورؤى الفئة أو الطبقة التي يمثلها ذلك النص، وبذلك لابد لأي قراءة بنيوية تكوينية أن تربط النص بالمستوى الايديولوجي للممارسة الاجتماعية".

كل ذلك لا يعني إهمال تشكلات القوانين الداخلية للنص الأدبي، مادامت هي مجموعة من الإشارات بمفهومها الواسع.

وكما يبدو أن البنية الاجتماعية تخلق تماثلاً بينها وبين شكل النص الأدبي الممثل لها، لكونه "تعبيرا عن رؤيتها للعالم، وهي بهذا المفهوم تستعين به كوسيلة للاتصال أولاً، وكصنف سردي يمتلك بلاغيته وأسلوبه عن طريق العرض والاحتجاج والوصف والسرد".

ومن الضروري أن نفهم أن الروائي " لا يعي أبداً أنه فرد ينتمي إلى طبقة اجتماعية أو يعتمد عليها، ومع ذلك فهو يضمن الوعي الطبقي في متن الرواية كلها، وهذا الوعي

الطبقي وما يصاحبه من تناقضات (يدركها الكاتب، لكن قد لا يميزها دائما) وهو الذي يمكنه من رؤية الحقائق الاجتماعية بل تقبلها والتنبه إليها ، تلك التي هو بنفسه لايعيها".

كل ذلك يؤشر إلى أن العلاقة الجوهرية بين الإبداع القصصي والحياة الاجتماعية ماهي إلا نتيجة للبنى الذهنية التي تؤسس الصلة بين الجماعة الاجتماعية (سواء أكانت فئة أو طبقة) والعالم التمثيلي لهذا الإبداع، وفي ضوء ذلك كانت " رؤية العالم" التي أكد لوسيان كولدمان من خلالها "المعنى الذي يعطيه باختين للبطل بوصفه وجهه نظر محدودة عن العالم وعن الذات معاً، وأهم ما يطبع عالم الأبطال من هذا النوع هو التناقض بين الرغبة والواقع"، وبذلك هيمنت الرموز والمفردات الدالة على بنية التدهور، في أي عمل روائي مادامت الرواية حسب تعريف كولدمان بأنها " قصة بحث متدهور عن قيم أصيلة بصيغة متدهورة في مجتمع متدهور"، وبتعبير آخر " إن البطل يصارع قيما منهارة وفي نفسه قيم أصيلة من الماضي".

جاءت البنيوية التكوينية بمجموعة من المصطلحات من مثل التعرف، والتحليل، والرؤية للعالم، والتماثل، والوعي القائم، والوعي الممكن، والبنية الدالة، ومفهوم البطل الإشكالي، الذي ابتدأه جورج لوكاتش في دراسته "نظرية الرواية".

إن التحليل يضيء بنى النص الأدبي ويكشف عنها عبر التعرف، أي بما يمكن أن يعيننا على استخدام البؤر المركزية في النص الأدبي للوصول إلى نتائج ودلالات كاشفة للغموض في "البنية العميقة الرأسية، الزمنية، بعكس البنية السطحية الأفقية، السكونية "، لإظهار البنية الدالة، ويدعونا مصطلح الرؤية للعالم إلى أن نتعرف على مساحات الأفكار والمفاهيم التي يدعو لها مجتمع النص.

في الوقت ذاته لابد أن يكون هناك تماثل بين شكل المنتج الأدبي و تطلعات (دوافع) البنية الاجتماعية التي يتناولها، بما يعنى أنه سيتولد تماثل بين البنية الجمالية للنص الأدبي والبنية الاجتماعية، ويتجلى ذلك التماثل في الشكل الظاهري للنص الأدبي والموضوعة العميقة للبنى المشكلة له، ولهذا تجسد الرواية التقاء اللحظة الإبداعية، أما "الوعي القائم" فهو الوعي المتجسد في الواقع، والذي تحمله الشخصية في حاضر منظور إليه بوضوح، لكونه يحمل سلبيته التي تحتاج إلى حلول آنية وفعلية، ولكن لا يمكن الوصول إليها، لكون الشخصية لا تملك حلولاً لها، وهذا ما ينطبق تماماً على البنية الاجتماعية في الرواية، والتي تعيش انتكاساتها على مستوى السياسة والاقتصاد والفكر، وهي في جميع الأحوال، لا تملك تصوراً لما يمكن أن يكون حلاً مستقبلياً لمشاكلها، عبر البدائل الإيجابية الممكنة، وفي ضوء ذلك لابد لتلك الفئة أو الطبقة الاجتماعية أن تعيش لحظة التغيير، الذي يتجسد من خلال "الوعي الممكن"، وهذا ما يحصل فعلاً خلال العمل الأدبي " الرواية تحديداً"، حينما تقدم رؤيتها للعالم، على وفق رؤية فلسفية وآيديولوجية للطبقة او الفئة الاجتماعية نفسها .

من جانب آخر يوصل البحث في تحليل النص الأدبي، على وفق هذا المنهج إلى مفهوم البنية الدالة، الذي يعني اكتشاف ما هو موجود من بنيات مكررة داخل نسيج النص الأدبي، التي هي بمثابة بؤر مشعة، تقودنا دلالياً كي تتفحص مدى انهيار أو انسجام العالم، الذي

يعيشه النص الأدبي، ولهذا فإن الاشتغال على النص الأدبي وإضاءته والتعرف على خباياه، لا يتم إلا عبر اقتناص البؤر الدالة التي تقودنا إلى رؤية المنتج للعالم، أي بما يعني رؤية الطبقة أو الفئة التي ينتمي إليها العالم نفسه.

ومادام هذا العالم لابد له أن يتمثل في رؤية الشخصية "البطل الروائي"، فإن ثمة صراعا يعيشه ذلك البطل "الشخصية"، في تردده مابين الذات والواقع، إذ تراه يحمل قيماً أصيلة، لا يستطيع أن يموضعها في عالم مسكون بالتدهور والاستلاب، ولذا يصبح بحث البطل غير مجدٍ، ومن هنا يتأرجح البطل في مثاليته بين ذاته وواقعه، فتارة يقترب من الواقع "الرواية التعليمية" وأخرى من ذاته "الرواية الرومانسية"، لكون الرواية، ما هي إلا التعبير الأدق عن صراع الواقع والذات في مشروع البطل الإشكالي، الذي يشتغل في هذا الحقل الأدبي على جوهر التناقض الذي يقود إلى نقد الواقع، حيث لا يصل ذلك البطل الروائي إلى المعنى الكلي والخلاص الأبدي، بما يعني سلبية بحثه اللا مجدي، بعكس البطل الملحمي الذي تصل المصالحة بين الذات والموضوع إلى أقصاها لديه، لهذا فإن "هناك ثلاثة أنواع من العلاقة بين الذات الكاتبة ومخلوقاتها ، فالمؤلف، أصبح مدفوعا بصورة أساسية بالدوافع اللا واعية أو بالتماهي أو بالتخييل".

المبحث الاول - البنى الاجتماعية في الرواية

تتناول رواية "الذباب والزمرد" لعبد الكريم العبيدي بنية اجتماعية متعددة الأعراف والانتماءات الطبقية والفكرية والدينية في المجتمع العراقي إبان نهاية التسعينات من القرن الماضي، حيث يضطلع عدد من الرواة الموزعين على فصول الرواية العشرة ، والذين هم شخوص وأبطال الرواية في سرد أحداثها.

تحكي الرواية قصة السارد "مجهول الاسم" نطلق علية بالسارد الممسرح × وعلاقته بأصدقائه المسيحي "أوسم" ، و"بشير التمار" ابن الطبقة الغنية ، و"شفيق إبراهيم" ذي الأصول اليهودية "من جهة الأم" والفقيرة من خلال المتحقق في الواقع، وما يمثله كل واحد من هؤلاء الأربعة من تناقضات على مستوى الوعي السلبي القائم، وما تطمح إليه من بحث غير مجدٍ على مستوى الوعي الممكن اللا متحقق، والذي يقود إلى الإحباط والتدهور في نهاية أحداث الرواية.

من خلال هذا التناقض الاقتصادي والعرقي تتنوع البنى الاجتماعية والفكرية، حيث نجد ثلاثة مجتمعات يدور حولها النص الروائي وهي:

1 - مجتمع السارد ويمثله إخوانه "أسامة" المعلم الأكبر و"بلقيس" الأخت الأرملة الأربعينية و"يحيى" الدرويش الهارب من العسف و"والدهم" الرجل العجوز.

2 - المجتمع المسيحي ويمثله "أوسم" وأخوه الأكبر "أزيريه" القس المسجون بتهمة المعارضة للنظام وأختهما "فياب" و"أمهم" وحبيبته "ليديا" .

3 - المجتمع اليهودي ويمثله المعاق "شفيق إبراهيم" وابن خاله "داود" و"أبوه" و" أمه" .

4 - المجتمع البرجوازي ويمثله "بشير التمار" و" أمه" و أخوها "الحاج فيصل" وابنه "مازن".

وفي ضوء هذا التشكل العرقي والطبقي توزع الساردون على فصول الرواية العشرة، وبالطريقة التي يتحكم فيها نوعية الفاعل السردي، من حيث أهميته في الفعل الحكائي، ودرجة تأثيره في سير الأحداث، وتحكمه في جزء منها، سواء أكان ذلك الجزء كبيراً أو صغيراً، وبذلك انتظم توزيع الساردين على وفق هذا التشكل وهو :

الفصل الاول "الفصل الشامل العام" وهو استهلال عام للرواية على لسان السارد الممسرح (العليم) جمع فيه شخوص الرواية الثلاثة الفاعلين وهم : أوسم " المسيحي" ، وبشير التمار "البرجوازي الرافض"، وشفيق إبراهيم "اليهودي الأصل" .

الفصل الثاني ، اضطلع به السارد منفرداً بضمير المتكلم.

الفصل الثالث ، اضطلع به أوسم المسيحي منفرداً وبضمير المتكلم.

الفصل الرابع ، اضطلع به بشير التمار منفرداً وبضمير المتكلم.

الفصل الخامس، اضطلع به الساعاتي المعلم المتقاعد "سليمان البياتي" التركماني الأصل الذي جاء من مدينة "أمرلي" بعد إعدام أخوانه الثلاثة لمعارضتهم السلطة آنذاك، وكان السارد الممسرح قد تتلمذ على يديه.

الفصل السادس ، اضطلع به شفيق إبراهيم منفرداً وبضمير المتكلم.

الفصل السابع ، يعود أوسم المسيحي لإكمال ما تبقى من حكايته داخل البنية الاجتماعية التي يمثلها في الرواية .

الفصل الثامن ، عودة السارد العليم لتكملة سير الأحداث المتمركزة حول تعالقات الأفعال الحكائية جميعها.

الفصل التاسع ، عودة بشير التمار للفعل السردي من أجل إكمال حكايته.

الفصل العاشر، السارد العليم الذي اضطلع بسرد الفصل الأول يختم (يقفل) روايته التي ابتدأها في فصل الاستهلال، متتبعاً نهايات مصائر شخوصه الثلاثة " بشير التمار وأوسم المسيحي وشفيق إبراهيم " اليهودي الأصل"، وخلال كل هذه الفصول العشرة، نجد شخوصاً غير فاعلين سردياً، يمكن وصفهم بالشخوص المعطلة سردياً المتمظهرة حكائياً، وقد أخذوا مساحة من سرد الفاعلين وتأتي عدم فاعليتهم من خلال تصنيفهم وكالآتي:

الهارب من السلطة القمعية: الدرويش يحيى الأخ الأصغر للسارد كلي العلم.

المعتقل في سجون السلطة القمعية: أزيريه الأخ الأكبر لأوسم المسيحي وهو القس أو الشماس الذي يحلم بسلام في عالم خال من الحروب.

المتقاعد المهمش : أسامة الأخ الأكبر للسارد كلي العلم وهو الشخصية المنسحبة من البنية الاجتماعية والمنكفئة على ذاتها.

العجائز: وتضم شخوصاً عدة منهم والد السارد العليم الذي بلغ ثمانين عاماً، ومنهم أيضا جد بشير التمار الاقطاعي الذي تمظهر في القصص المضمنة عبر الاسترجاع خارج زمن السرد.

النساء: وهن اللواتي لا فصل لهن، كونهن غير فاعلات في البنية الاجتماعية وهن " أم بشير وبلقيس وفيان وليديا، وعروبة مخبرة السلطة "، هذا بالإضافة إلى "كمرة" في الحكاية المضمنة، التي يرويها بشير التمار عن جده الذي اغتصبها.

من خلال مجتمعات الرواية الأربعة، نجد أن نسبة القيام بالسرد، قد استحوذ عليها السارد العليم بواقع (أربعة فصول)، ومن ثم أوسم المسيحي (فصلان)، وبشير التمار

(فصلان)، في حين اضطلع الآخرون بفصل واحد لكل من سليمان البياتي وشفيق إبراهيم .
ونتساءل: لماذا تفرد الساعاتي المعلم المتقاعد سليمان البياتي في سرد الفصل الخامس دون سواه من الشخوص غير الفاعلين ؟، ونجيب: إن البياتي ولكونه معلما حكاءً أصبح بديلا موضوعياً للسارد الممسرح نفسه، الذي تحول في نهاية الأمر (عند الفصل العاشر) الى "قصه خون" بعد أن تدهور تحت التعذيب، ولهذا استعاض بالراوية الآخر البياتي، كي ينوب عنه، بعد أن عجز عن سرد هذا الكم الهائل من الأحداث، هذا بالإضافة إلى أنه وصل إلى حافة التمزق والانهيار، لذا كان لزاماً أن ينوب عنة راوٍ آخر، يسرد حكايته بنفسه.
وقبل أن نتحول عن تقسيمات الرواية بفصولها العشرة، نشير إلى أن كل فصل قسم إلى مجموعة من الأجزاء تمنح السارد فسحة للانتقال الضروري من حدث لآخر، بالرغم من أنها تتمركز حول بؤرة مركزية للفصل نفسه وللسارد نفسه، حيث قسم الفصل الأول إلى (أربعة أجزاء)، والثاني إلى (جزأين)، والثالث لم يقسم، والرابع إلى (جزأين)، والخامس لم يقسم، والسادس إلى (ثلاثة أجزاء) والسابع إلى (ستة أجزاء) والثامن إلى (جزأين)، والتاسع إلى (سبعة أجزاء)، والعاشر إلى (أربعة أجزاء).
نلاحظ من ذلك أن الفصل الأول يساوي الفصل العاشر في عدد أجزائه 4=4 بما يعني أن خاتمة "قفلة" الرواية تساوي استهلالها في عدد الأجزاء، وكل ذلك يساوي عدد الشخوص الفاعلين، وهم 4 شخوص " السارد العليم" ، و بشير التمار، وأوسم المسيحي، وشفيق إبراهيم " اليهودي الأصل".

من الملاحظ أن رواية " الذباب والزمرد " تتكيء على الموضوعة نفسها، التي بدأت الرواية العراقية الجديدة، معالجتها، في تناول البنى الاجتماعية والفكرية المتعددة، اللا متصارعة التي تمثلت في دخول االعنصر المسيحي في تشكلات بنية الرواية، بوصفه عنصرا فاعلاً في تاريخ المجتمع العراقي، وهذا ما نلمسه في رواية " فرانكشتاين في بغداد " لأحمد سعداوي و" يا مريم " لسنان أنطون و "طشاري" و " الحفيدة الأميركية " لإنعام كجه جي و "عراقي في باريس" لصموئيل شمعون.
يشكل الاتجاه الجديد في الرواية العراقية هذا تعدداً في الخطاب ونوعه، على وفق تصورات جديدة للحاضنة الاجتماعية القديمة، التي تضم الانتماءات المختلفة " المسلمة والمسيحية واليهودية" والتي غيبت في الرواية العراقية الماضية، ما عدا شخصيات بسيطة وثانوية، عابرة غير فاعلة في القص العراقي.

المبحث الثاني - المكون السردي في استهلال الرواية

تبتدئ رواية الذباب والزمرد في فصلها الأول بسارد ذي شخصية إشكالية، وهو ذلك البطل الذي لا يمتلك سلبية أو إيجابية على مستوى الفعل.
إن البطل هنا يعيش تردداً بين عالمين وهما الذات والواقع "الموضوع"، إذ يبدو في وضع مشتت، وفي مجتمع قاس ، بالرغم من أنه يتبنى مفاهيم مثالية، ولكن هذا الواقع " الموضوع " يبدو أكبر من ذاته، التي أخذت بالاضمحلال، وهو هنا في إطار رواية البطل الإشكالي الذي يبحث عن قيم أصيلة، بالرغم من أنه لا يجد تلك القيم

في مجتمع يجهل القيم ذاتها، لا بوصفها قيماً منهارة بل لكون هذا المجتمع قد افتقد الفعل، بعد أن نسي قيم التغيير، وكل ذلك يحكمه الاضطراب والتردد، في البحث الذي ينتهي بالبطل الإشكالي إلى عدم تحقق الوعي الممكن بالوصول إلى الفعل، ومركز الحياة بمعناها الإنساني الراقي.

هذا البطل الإشكالي "السارد العليم" في رواية "الذباب والزمرد" لا يملك إيجابية، بل هو غير فاعل في البنية الاجتماعية، على الرغم من أنه فاعل سردياً في الرواية، إذ يظل حتى خاتمة الرواية مضطرباً في مأساوية تتحكم به، في كل الخيبات التي ينقاد لها، بفعل فشله في تحقيق طموحاته ورغباته، لكونه يعيش في مجتمع تتحكم به السلعة والتبادل الشيئي والمادية المهيمنة والفردية المطلقة.

يبتدئ السارد العليم "الممسرح" باستهلال خارج الحكاية، إذ هو يقتنص لعبة يقوم بأدوارها عدد من الأطفال ويعيد هذه الحكاية ثانية حيث يقيس أطفال المحلة أطوالهم بالأشبار (مفرده شبر)، ابتداءً من أصابع الأقدام البسرى حتى قمة الرأس، على وفق تداولية لفظية بين شرطي/ حرامي/ شرطي/ حرامي، ليصل كل واحد منهم إلى قمة رأسه الذي تستقر عنده آاخر لفظة "شرطي أو حرامي"، حينذاك يصطف مع الأطفال الذين أصبحوا شرطة أو مع الحرامية في اللعبة ، والغريب أن التوزيع النهائي للعبة، قد "وصل عدد اللصوص الصغار إلى أحد عشر لصاً مقابل شرطيين، أحدهما كان صبياً بديناً حافي القدمين، بينما الآخر أعور" .

ويعيد السارد "الممسرح" وصف هذه اللعبة ثانية، إلا أنه لا يعيد تركيبها بطريقة مختلفة، اذ شاهد "صبيا أعور يباعد بين أنامل كفه اليمنى، وهو يركع قبالة أكثر من عشرة أطفال، كان يعد طول قامته بأشبار قصيرة متعاقبة، وهو يردد مع كل شبر وبصوت مسموع، شرطي/حرامي، شرطي/حرامي وحين وصل إلى قمة رأسه هتف بأعلى صوته : شرطي !"

هنا تبدو اللعبة الأولى "1" اعتباطية في حين بدت اللعبة الثانية في "2" قصدية، إذ خلق السارد محاكاة متطابقة بين:

اللعبة "1" الأعور/شرطي اعتباطي

اللعبة "2" الأعور/شرطي تماثلي

لم يخلق السارد مقابلة قلب "بارورديا" بحسب فيليب سولير عندما حلل رواية "روبنسن كروزو " تلك الشخصية التي هيمنت على Friday "جمعة" الخادم في رواية دانيال ديفو، وذلك بتأثير الحضارة " روبنسون كروزو" على بدائية "جمعة"، إلى مقلوبها في تأثير "جمعة" البدائي على "روبنسن كروزو"، أي تأثير إنسانية و فطرية البدائية على استلاب الحضارة التي يمثلها كروزو.

أبقى الروائي عبد الكريم العبيدي في روايته "الذباب والزمرد" "على قوانين اللعبة الأولى ونتائجها، التي هي نفسها قد أعيدت في اللعبة الثانية، فبدت مقصودة لا تغيير فيها، وهي اللعبة نفسها التي تبدأ من الأسفل إلى الأعلى ولم يقلبها السارد، إذ أبقاها على أصولها، لعبة لا غش فيها، غير تلك النهاية التي كانت:

في "1" "حرامي".

وفي "2" "شرطي"،

وكأننا هنا إزاء تصنيف للذوات بين الاتهام "حرامي" و القانون "شرطي"، حيث يظل الجميع متهمين إلا من الأعور والآخر البدين، وكلاهما يعاني من تشوه "العور والبدانة"، أراده السارد " الممسرح " في

النص الروائي، حيث تقمع الفئة الصغرى الشرطة "المشوهة " الطبقة الكبرى اللصوص" المقموعة " التي ينتمي لها السارد نفسه.

مقابل هذه اللعبة، هناك لعبة أخرى يستجلبها الروائي من صراع السلطة والمحكومين، وهي لعبة تشكل قناعاً مرمزاً لما سيأتي من أحداث، حيث تروي الأسطورة الموظفة هنا، أن ايزيس كانت تتحلى بالزمرد وحده، ثم " اختاره النيرونيون عيناً ملوكية خاصة بهم، ليروا عبيدهم ، ليرانا ، فنحن وعبيد نيرون من شجرة واحدة ، ذباب ذليل يصنع نشوة فائقة من هلاكه المتعاقب خلف أحجار الزمرد، ليستمتع بها آلاف النيرونات المدمنة على مص دمنا الأخضر المزرق لون الأباطرة المفضل الذي لا يجيد صنعه إلا زمردهم".

وتأخذ هذه القصة اليونانية محور الدلالة في إشارة إلى العسف، وبذلك تصعد باتجاه عنوان الرواية لتصبح مركزاً متعالياً حيث أطلق عليها "الذباب والزمرد" ضمن ما يمكن ان نسميه بالوظيفة الدلالية الضمنية المصاحبة التي هي واحدة من اربع وظائف " التعيينية والوصفية والإغرائية".

بعد أن يجرب السارد المحبط البحث عن أعمال كثيرة لا مجدية يفشل فيها، فيصاب بالإحباط، وحتى حين يقترح علية الشماس والقس المسالم " أزيريه" أن يربي أصص الزهور في علب يجمعها الأطفال إليه من القمامة، في محاولة دلالية لتحقيق "وعي ممكن" يتطابق مع رؤية أزيريه المسيحي، ويتعارض مع واقع السارد "الممسرح"، تفشل اللعبة الثالثة هذه في خلق عالم تفاؤلي، وكأننا إزاء ألعاب ثلاث وهي:

-1 لعبة الشرطي والحرامي بغلبة الأعور والبدين وفوزهما بالسلطة.

-2 لعبة الذباب والزمرد القناع الدلالي الفرعوني ثم اليوناني على القسوة.

-3 لعبة زراعة أصص الزهور التي لم تبع، بغلبة الحرب على السلام، والذي دعا إليه أزيريه "الشماس المسيحي" بدلالة دينية.

ونعود ثانية إلى استلاب الواقع القائم اذ لا يلبث البطل أن ينتهي إلى أحد أمرين، إما الاحتكام للآلية الاجتماعية وإما للعزلة والوحدة، ولهذا نرى أن البطل السارد هنا يقاد قسراً وفق منظومة القيم التي زرعتها السلطة في المجتمع "معاداة السلام" إلى أن يمتثل للآلية الاجتماعية، بأن يوزع أصص الزهور التي لم يستطع بيعها على الأطفال الذين أسهموا بإنتاجها، وكأنه بذلك ينهي مشروع القس أزيريه بالسلام المسيحي المفقود.

بعد هذا الفشل ينتهي السارد في الفصل الأول إلى بحثه عن صديقه المسيحي أوسم، فيلتقي به ثم تقودهما قدماهما إلى شقة "بشير التمار"، حيث يلتقيان صدفة بشفيق إبراهيم "اليهودي الأصل"، ومشاركته لهما سهرتهم الليلية.

"كنا علامتي إفلاس، ضائعين بائسين، نبحث عن سكرة طارئة في ذلك الليل، بعدما خذلتنا رائحة جيوبنا المفلسة، ولم يعد لنا أمل عدا سهرة خمر "يهودية"، داخل مقبرة اليهود في منطقة السعدونية بالمشراق على أنغام سفسطة شفيق إبراهيم، أو في مضيف بشير التمار دون جوان الفتيات ابن أشهر الأسر الموسرة ".

وبدلا من أن يذهبا إلى المقبرة اليهودية، قادتهما أقدامهما إلى شقة "بشير التمار": "كان تسكعنا يتجه إلى شقة بشير مبتعدا عن صخب سهرة محتملة في مقبرة اليهود مع عاشق إسرائيل شفيق الخصيباوي".

وشفيق الخصيباوي هي تسمية أخرى لشفيق إبراهيم، وخلال الطريق يسترجع السارد "الممسرح" أحداثا سابقة خارج زمن الحكاية تقود إلى معارك اشتركا بها، حيث حقول الألغام التي بترت ساق شفيق إبراهيم الذي يتوكأ الآن على عصاه.
ينتهي الفصل الأول بخطبة لبشير التمار تقوده إلى بكاء مرير، ثم يأتي دور "أوسم" المسيحي، الذي أخذ يغني بصوت شجي وبعذاب هجران حبيبته "ليديا" له وخطبتها من شاب آخر.
سوف تظهر خطبة بشير التمار ثانية في الفصل الرابع، في دعوته لتمرد الذباب على من ينظر من خلف الزمرد " المجتمع والسلطة"، كما أن غناء أوسم الحزين سوف يكتمل ثانية في الفصل الثالث حينما يؤدي رقصة بوهيمية في عرس إحدى صديقات أخته "فيان":
"وحالما شاهد ليديا وخطيبها البدين، يمسكان يداً بيد و ينغمران بذلك الموج الراقص حتى انتفض فجأة وشق الجموع المنتشية باتجاه العروسين وشرع في الرقص على إيقاع أصوات صاخبة ".
ويتجه السارد إلى تسجيل إخفاقاته في الحصول على عمل، ليرصد عبر بحثه المتواصل كل مآسي البنية الاجتماعية، التي امتثلت للآلية الاقتصادية المنهارة، والتي تحكمت في مصائر أفرادها، إذ يلتقي في السوق بباعة حيث يقول: "تربطني بهم صلة القرابة، فقد أحصيت أحد عشر بائعاً من أولاد أعمامي وأخوالي وعماتي وخالاتي ، كما شاهدت ثلاثة صبية من أبناء شقيقاتي وهم يجوبون السوق حاملين ساعات اليد البلاستيكية والنظارات وأكياس النايلون والمحابس الفضية".
وخلال ذلك نلحظ تكرار الرقم "أحد عشر حراميا " و"أحد عشر بائعا"، وكما يبدو أن هذا التكرار لم يأت اعتباطا وإنما هو جزء من الموروث الديني المهيمن على خطاب السردية العربية.
كما يشاهد السارد الممسرح معلمه التركماني العجوز سليمان البياتي وهو يبيع الساعات القديمة.

الفعل السردي

مع ظهور كل شخصية جديدة يبدأ السارد الممسرح بمسح كامل للخلفية الحياتية للشخصية، عبر الفعل السردي "كان" الذي يتكرر مع كل بانوراما جديدة لشخصية جديدة تظهر في السرد.
"كان البياتي مدرساً بارعاً في مادة التاريخ، بل كان موسوعة أدبية وفنية ".
كما يرصد شخصية حامد النداف صديق البياتي ومجاوره في السوق:
"كان النداف الطيب على يقين بأن دقائق الاستفسار الخمس ستتحول كالعادة إلى شهور أوأعوام".
جاء ذلك في وصف حالة النداف يوم اعتقال البياتي على اثر وشاية من مخبري السلطة، وفي لحظة الاعتقال تلفظ البياتي بلغته التركمانية جملة غامضة أوصى بها النداف بأن يدفن جثته قرب إخوانه الثلاثة فقال: "بيزلر بيزلر بيزلرك، قانلي كفن كييه رك" ××
وهذا الاستخدام اللغوي الذي يهجن فيه الخطاب، يذكرنا باستفادة نجيب محفوظ في روايته "الحرافيش"، من توظيف اللغة الفارسية في التكايا، التي كان يذهب إليها أبطاله، حيث يورد نصوصاً شعرية يرددها مريدو التكية.
عندما تظهر شخصية يحيى شقيق السارد

تراه يستخدم الفعل نفسه " كان"، وبذلك يقدم الروائي عبد الكريم العبيدي شخوص روايته بطريقة يجلب معها ماضيها، عبر فعل يسترجع فيه كل وقائع الحكاية، بارتداد سريع، يوفره له فعل الماضي الناقص "كان"، وبهذا يهيمن على ما يريد أن يسرده من معلومات عنه ثانية.

المبحث الثالث - التقابلات السردية في الرواية

يعتمد الروائي على تقابلات سردية، يمكن تلخيصها بالبقاء تارة خارج الذات، عبر وصف من الخارج، مقابل الدخول إلى الذات عبر وصف من الداخل، وهذا ما نلحظه في هذين المقطعين المتقابلين، حينما اصطحبه يحيى أخوه الأصغر إلى تكية الدراويش:

وصف الجلسة من الخارج: "كان الشيخ نحيفاً طويل القامة يرتدي دشداشة بيضاء قصيرة... وكان يجلس في طرف القاعة بين عدد كبير من مساعديه وأتباعه الباركين على ركبهم قبالة الدفوف ".

وصف الذات من الداخل: "كان لدى غالبية الحضور استعداد فطري بذلك الانغمار الذي اجتمعوا من أجله، وقدموا من مناطق شتى لممارسته، وكأنه فاصل إشباع روحي بين ضياعين".

يتكرر هذا التقابل فيما بعد مع أوسم خلال حضوره عرس صديقة اخته فيان:

وصف الجلسة من الخارج: " لكن أوسم لم يكن ميالاً تحت وطأة ارتعاشة جسده قرب رائحة جسد ليديا وقهقهتها".

وصف من الداخل "الذات": "كان يستسلم بلا أدنى قيد، يغمض عينيه ويستجيب بعبودية مطلقة للإيقاعات الموسيقية المدهشة".

وربما يمكننا أن ندعو هذا التقابل بالانتقال السردي من العام "الخارج" إلى الخاص "الداخل سردي".

تقترف الأسر الأربع "أسرة السارد" و"أسرة أوسم" و"أسرة شفيق إبراهيم الخصيباوي" و"أسرة بشير التمار" خرقاً من عناصر تنتمي لها، وهي يحيى الدرويش ومريد التكية، مما يؤدي به إلى الهرب باتجاه "رفحا" بعد الانتفاضة، و "أزيريه المسيحي القس والشماس "، والذي يعتقل ويغيب في سجون السلطة، واعتقال شفيق إبراهيم وابن خاله داود، كونهما يمتلكان أصولاً يهودية من جهة أم الأول، واعتقال بشير التمار ابن العائلة الموسرة، الذي بدأ يعلن عن تحول دم الذباب إلى اللون الزمردي الأخضر، المائل للزرقة من خلف الزمرد.

كل هؤلاء تنتهي بهم مصائرهم في الرواية إلى الإعدام "داود وشفيق وبشير التمار"، وإطلاق سراح "السارد الممسرح" و" أوسم المسيحي" كون هذين الأخيرين خارج اللعبة التي تظل سر الرواية "غموضها" أولاً، ولأنهما زائران يبحثان عن ليال للسهر في شقة "بشير التمار" ليس إلا.

يستخدم عبد الكريم العبيدي تماثلات على مستوى الحدث من مثل:

1 - رقصة العبيد خلف زجاج الزمرد بوصفهم ذباباً في الأسطورة اليونانية.

2 - رقصة أوسم في العرس أمام حبيبته الغادرة ليديا.

3 - رقصة حياوي "يحيى" شقيق السارد في التكية قبل رحيله بعد الانتفاضة.

ويماثل الروائي في استغلال أمثل للأسطورة اليونانية، بين الحاضر المصور بدقة، والغائب المطموس في عمق البنية العميقة للأسطورة نفسها، حيث يرصد بعد إعدام الثلاثة "داود وشفيق الاخصيباوي وبشير التمار" بتهمة التآمر على السلطة، أن يقوم

طاقم طبي بقلع عيني بشير التمار بعد إعدامه، للمتاجرة بهما، وهذا ما يتم تنفيذه بالمعدومين جميعهم، ثم يوضع في محجريهما قطن طبي، في تماثل مع ما جاء في أسطوره "الإلياذة" اليونانية، حينما خاطب "بريام" حاكم طروادة " أخيل" كي يعيد له جثمان ابنه "هكتور" بعد أن قتله كما جاء في فيلم Troy:

أحببت ابني منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه
حتى اللحظة التي أغلقتهما أنت
ارجعه لي
دعني أغسل جسده، دعني أتلو صلواتي
دعني أضع عملتين نقديتين على عينيه من أجل النوتي"

كان اليونانيون يعتقدون في أساطيرهم أن هاتين القطعتين النقديتين هما أجرة قائد المركبة "النوتي" الذي سيذهب بجثة الميت إلى العالم الآخر، وأن من ليس فوق عينيه تلكما القطعتان، سوف لن يصل.

قلنا: إن العملتين النقديتين تدفعان في الأسطورة اليونانية إلى النوتي××× ، أما في تاريخ العنف السلطوي الذي مورس ضد العراقيين في ثمانينيات القرن الماضي، كما رصده العبيدي، فإن عيون المعدومين تباع و "تشترى" من أجل ملذات تلك السلطة.

هذا التقابل نجده بين:

بريام (الأب) وابنه "هكتور" من جهة، و" أم بشير" وابنها بشير التمار، من جهة أخرى، وكلاهما كانت مأساتهما في غلق العينين في الأولى وقلعهما في الثانية.

دلالة الأسماء

تحيل أسماء الشخوص في رواية "الذباب والزمرد" إلى مرجعيات من خلال مسارين وهما :

1 – معلن ويرتبط بحكاية
2 – غير معلن ويرتبط برمز

أما الأول فهو تسمية "بشير التمار"، الذي أطلق عليه هذا الاسم لكونه ولد في أول يوم لبشير التمر، وهو من أيام التبشير الأولى، كما جاء في القصة المضمنة :

"في فجر شديد الرطوبة من أيام الشرجية حين لمح فلاح عجوز كان عائداً من الصلاة في المسجد، رطبة صفراء لاهثة من بين سعف نخلة سامقة في بستان جدك".

جاء ذلك في المتن السردي، يقابله في الهامش بتعليق الروائي غير الممسرح:

"ما أن يلمح الفلاح البصري تحول أول حبة تمر في أحد العذوق من اللون الأخضر إلى اللون الأصفر، حتى يسارع إلى دعوة الفلاح الأكبر سناً، لقطع تلك الحبة ووضعها على عينه، وتقبيلها ثم إهدائها إلى أعز الناس إلى قلبه".

هنا تتقابل تقنية تضمين الحكاية بين :

1 – الحكاية في المتن المسرود وهي الرئيسة الخاصة بالشخصية.
2 – الحكاية في الهامش وهي الفرعية الشارحة.

أما ما هو غير معلن ومرتبط بالرمز، فيتجلى ذلك في اسمي داود وشفيق إبراهيم، اللذين أراد لهما الروائي، أن يطابقا الانتماء للأصل اليهودي، حيث "نجمة داود" و" إبراهام "هما الاسمان المحببان لليهودية.

قدم عبد الكريم العبيدي في روايته "الذباب والزمرد" روح العادات والتقاليد الاجتماعية البصرية، من خلال مجموعة من الشواهد الدالة :

1 – العادات المضمنة في المتن والهامش "شرحاً" بعد ذكر حكاية تسمية بشير التمار
2 – أسماء مبدعي المدينة "البصرة" التي

اختارها بؤرة لحدث روايته.
3 – أسماء الساحات والنصب "تمثال بدرشاكر السياب، وتمثال أسد بابل".
4 – أسماء المغنين في المدينة، بعد سماع غناء أوسم قي شقة بشير التمار.
5 – أسماء محال الباعة المشهورين في البصرة.
6 – أسماء الشخصيات اليهودية العراقية في البصرة.
7 – أسماء البصرة الثلاثة وهي :
أ – البصرة في الماضي والحاضر.
ب – بصرياثا في الثقافي المدون
ج – باصورا في التاريخ
د – هناك في رعب الحرب
وتأتي التسمية الرابعة "هناك"، عندما ابتعدت الشخصية الساردة عن مدينة البصرة، وهي تؤدي خدمتها العسكرية في ارتداد خارج زمن الحكاية، "في ثلوج جبال كردستان" أثناء الحرب أوائل الثمانينات.
المبحث الرابع – الأنساق ودلالاتها في الرواية
النسق الثلاثي -- بعد محاكمة الثلاثة "بشير التمار وشفيق إبراهيم وداود" واتهامهم بالتجسس قبل تنفيذ حكم الإعدام بهم، يقادون إلى السجن :
"كان قاطع الإعدام يحوي اثنتي عشرة زنزانة في الطابق العلوي، ومثلها في الطابق الثاني".
وهنا نجد الروائي وقد اشتغل على نسق ثلاثي في روايته، والذي بدأ يتحكم في مجمل العملية السردية في الفصل التاسع إذ :
1 – الشخوص 3 وهم "بشير وشفيق وداود".
2 – كان رقم الزنزانة 13: " في الزنزانة المرقمة 13".
3 – قسم السجناء إلى ثلاثة أثلاث المجموعة:
"حشروا ثلث المجموعة تقريباً".
4 – تتم عملية الإعدام بعدد: "لا يتجاوز الثلاثين أحياناً".
5 – تتم عملية الإعدام كل يوم ثلاثاء: " كان نهار الثلاثاء من كل أسبوع موعداً متجدداً لإعدامهم جميعاً".
6 – تتم عملية الإعدام الساعة السادسة عصراً باستخدام مضاعفات العدد ثلاثة: "الساعة الآن داخل قاطع الإعدام هي السادسة عصراً".
7 – كانت أسماء المعدومين ثلاثية: " ويتهيأ لسماع أسماء المعدومين التي غالباً ما تكون متشابهة في الاسم الأول أو الثاني أو الثالث".
و"مع كل حرف ممطوط وعنيد، من تلك الأسماء الثلاثية، ينكمش البعض منهم وربما يتبول أو يتغوط لا إراديا".
8 – يحتوي السجن على 12 زنزانة: "مضاعفات العدد 3".
9 – المناداة لثلاث دقائق: "طيلة فترة المناداة التي تتضاعف دقائقها الثلاث وتغدو أعواماً".
10 – وصف السارد حفلات الإعدام بـــ " مراثي الثلاثاء ، معزوفة العواء الحزينة".
11 – جاء في وصية البياتي للنداف " أوصيك بتبليغ زوجتي أن تدفن جثتي، إن تسلمتها منهم بجوار قبور أشقائي الثلاثة في النجف".
ويتحول النسق الثلاثي من تماثلات العدد ثلاثة، إلى نسق الجملة العربية في الوصف الروائي، حيث ترى السارد يكرر الصفات المتشابهة ثلاث مرات :
1 – "رحلة قصيرة قد تبدو مشوشة للغاية، لكنها مكتظة بوقائع وأحداث وتساؤلات".

2 – "بعضها يتداعي بلون التأنيب واللوم والمحاسبة".
3 – "ثم ينهال عليهم رجال الأمن بشتى صنوف الضرب والركل والشتائم".
4 – "تفضح ما كان يحمله من آثار سهر وترقب وانتظار".
5 – "مراقبة فيان أو سماع ثرثرة أمها عن الألفة والتآخي وضنك الحصار".
6 – "ولهذا المرض عدة أعراض متداخلة تؤثر في القدرة على العمل والنوم والشهية".
7 – "لقد كانت يائسة ومترددة وخجولة".
8 – "طرقت الباب مرتين ثم فتحته ودخلت".
9 – "فتداخل الشعر بالخطابة ، والغناء بالبكاء ، وقديم الذكريات بجديدها".
10 – "تمدد على سريره ، واستدار على الجهة التي تجعله بمواجهة الجدار، وتركني لوحدي".

ويختتم العبيدي روايته وهو يكرر أسلوبياً استخدامه لهذا النسق الثلاثي، حتى الفقرة الأخيرة من الرواية، عند:

1 – "يضيق ثم يتمدد ثم يضيق ثانية".
"ذلك النهار الأميبي، العاري ، المتجرد، الحافي".

ويبدو أن هذا النسق الثلاثي " وأقصد به اللغوي تحديداً" ما هو إلا نتاج شعرية اللغة النثرية، إذ يتواتر بقوة في رواية "الذباب والزمرد"، لكونه مكوناً فنياً، يسهم في تقديم صورة كاملة عن لحظة توتر الحدث، الذي لا يكتفي بتوصيف واحد أو اثنين، لذا يتعدى إلى ثلاثة، وهو حركة مكملة، حيث اعتبرته الناقدة " نبيلة إبراهيم". وسيلة من وسائل الوصل في الحكاية الخرافية التي تشتمل لديها على وسيلتين اثنتين وهما: 1 – الإخبار.2 – تكرار الفعل ثلاث مرات. ويأتي هذا التكرار بصيغ متعددة منها، أولا تكرار الصيغة نفسها، فعلاً أو حرفاً أو اسماً، وثانيا تكرار الصيغة بألفاظ مختلفة كتوصيفات لشيء واحد، وثالثا تكرار الصيغة بمعان وألفاظ مختلفة.

ويعني الإخبار التعرف على حقيقة الفعل أو الحدث كي تتعالق الأحداث بشكل منطقي ومقبول، ويعني تكرار الفعل ثلاث مرات بصيغ متعددة، ما يمكن أن نطلق عليه بالتواتر الثلاثي في السرد، حيث يعد التكرار ظاهرة بنائية.

ومن جهته يرى كمال أبو ديب "أن الحركات الثلاثية نسق متواتر في السرد العربي، استمد مكوناته من مصادر ميثيولوجية قديمة لم يؤثر في الحكاية الخرافية أو الشعبية حسب، بل تعداها إلى الإبداع الفردي".

ويبدو أن تشكل النسق الثلاثي، ماهو إلا ظاهرة جذرية في كل نشاط فني، يصدر عن عنصر القصد والوعي، وان هذه الظاهرة ذات دلالات عميقة وكثيفة".

ويندرج النسق الثلاثي هذا ضمن نسق التكرار الموسيقي البديل عن الشعري.

2 – النسق الثنائي– كان أمام السارد "الممسرح" وصديقه أوسم خيارات، أما الذهاب إلى شقة بشير التمار أو الذهاب إلى مقبرة اليهود، في طرف المدينة، حيث يسكن شفيق إبراهيم وابن خاله داود، ليقضيا ليلتهما تلك، ويبدو أن هذه الثنائية الأولى – كما نصفها– قد صاغت معنى الرمز الكامن في الرواية، ،حيث تمثل شقة التمار دلالياً التعالي الطبقي لبشير التمار ابن العائلة البرجوازية، بينما تمثل مقبرة اليهود دلالياً الجذر المندرس لشفيق

إبراهيم وابن خاله داود، ذلك الجذر الذي ظلا يبحثان عنه، حتى نهاية حياتهما بالإعدام المشابه لنهاية حياة الحاج جيتا وجمال الحكيم وزكي زيتو، الذين أعدموا في ستينيات القرن الماضي، وعلقوا في ساحة من ساحات البصرة (ساحة ام البروم) ، في نهاية الستينات، أي ثلاثة في الماضي بثلاثة في الحاضر.

كما يمثل البائع الشاب الذي استحوذ على مكان سليمان البياتي في السوق، حالة الانحطاط في الواقع الروائي الموازي لوقائع الحياة، عندما بدأ يبيع الأحذية القديمة والنعل "جمع نعال"، ويبدو الاستبدال هنا قد أصبح ضروريا لتوصيف بنية الشخصية المستبدلة وانهيارها.

وضمن المحور الدلالي تدخل "الذباب والزمرد" في تعالقات نصية، تقود إلى بنى دلالية أخرى مع الحكايات والأمثال الشعبية، والأساطير الفرعونية، والخطاب التاريخي، ونؤشر ذلك بما يأتي:

1 – في الخطاب التاريخي يقول السارد الممسرح "ولكن حتى أنت يا بشير "، في مماثلة مع "حتى أنت يا بروتس" وهي مقولة يوليوس قيصر التي خاطب بها بروتس بوصفها مثالا على الغدر والخيانة.

2 – رقصة أوسم الشبيهة برقصة "زوربا "، في فلم يحمل اسم الرواية نفسها لنيكوس كازانتزاكيس".

3 – تمثل مقبرة اليهود دلالياً، العلاقة المفترضة بين مشاعر شفيق إبراهيم وداود إزاء الموتى قرب البيت الذي يعيشان فيه، وهي المشاعر نفسها التي شعر بها " هوارد كارتر عالم الآثار الذي اكتشف المومياء في قبور الفراعنة، قي مقابر وادي الملوك، حيث كان يسمع موسيقى مجهولة".

كما يسمعها شفيق إبراهيم في الرواية، عندما كان يحضر ليلاً إلى المقبرة :

"ظل يتكرر في كل ليلة بين قبور اليهود وأنين عظامهم وجماجمهم".

4 – يقيم السارد تماثلاً بين أقدام الحيوانات السابلة "الكلاب"، وأقدام الرفاق من فرقة المهلب بن أبي صفرة الذين كانوا يغزون المقبرة ليلاً ، "حيث وطأت أقدام الحيوانات مع أقدام رفاق المهلب بن أبي صفرة على القبور لتذكرنا بحكايات الهولوكوست".

5 – تقيم الرواية تماثلاً دلالياً بين غياب "يحيى الدرويش" و "أزيريه القس" و"داود اليهودي" بوصفها تعالقاً دينياً بين المسلم ، والمسيحي، واليهودي واللعب على هذا المحور، الذي يمثل على وفق قراءة الرواية، تجانس بنية المجتمع العراقي، وتساويهم في تلقي العسف الذي مارسته السلطة، إبان ثمانينيات القرن الماضي ضدهم، بالرغم من اختلاف البنى الدالة فيه، إزاء قمع السلطة التي تقود إلى التدهور بحسب مفهوم لوسيان كولدمان.

6 – يقيم السارد تماثلاً دلالياً بين تدهور شخصية "عروبة شلهان" المخبرة السرية ومفهوم عصر العروبة الآفل والمتدهور زمن الحصار.

7 – غلبة الشخوص الإنسانية في الرواية، مقابل حضور شخصية بعثية واحدة، وهي شخصية بائع الأحذية والنعل، الذي استحوذ على مكان الساعاتي سليمان البياتي، بعد اعتقاله بوشاية، وهنا تكمن الصورة التماثلية بين لعبة اللصوص والحرامية، التي مارسها الأطفال في استهلال الرواية، مع الصورة الدلالية للصراع داخل الرواية بين الشعب والسلطة .

8 – يوظف السارد الممسرح "العليم" عالم الساعات الذي يشتغل به سليمان البياتي توظيفاً دلالياً بمقابلة ما هو "واقعي" بآخر "نفسي"، حيث نرى:

أ–عندما ذهب السارد الممسرح إلى السوق لم يجد سليمان البياتي، وشاهد بائع الأحذية القديمة والنعل، ولذلك ترك السوق إلى أحد الأزقة، وأخذ يقول:

"كنت أضبط موجة بكائي على توقيت البياتي، وليس على توقيت أي من ساعاته، ظناً مني أن ذلك التوقيت هو وحده الذي سيجعلني أكثر تماسكاً في سيري، نحو بقائي حياً، وليس باتجاه سليمان وأشقائه الراقدين الآن في مقبرة الغري".

ب–يفترض السارد الممسرح أن سكرات موت البياتي تتطابق مع تكتكات ساعاته:

"زاعماً أن هذه الساعات السويسرية واليابانية الأصلية ستضبط انحداره وسكرات موته"

ج– توافق النشيد التركماني الذي أنشده سليمان البياتي مع تكتكات الساعات:

"ورفست صبرك الطويل في لحظة نحس، مردداً توقيتك التركماني الخاص، نشيد أجدادك الحربي الأمرلي"

نستنتج من كل هذا التقابل بين "الواقعي/ النفسي" أن ثمة قصدا أراده الروائي من هذا التماثل، ولهذا السبب تراه يقابل كمحصلة دلالية بين الساعات والأحذية القديمة والنعل، بما يعني التقابل بين بطولة سليمان البياتي وتدهور الشاب البعثي.

3 – نسق التضمين والأرصاد – يكثر نسق التضمين الحكائي في سرد رواية "الذباب والزمرد"، وتبدو القصة المضمنة "المزروقة" بحسب "أوستن وارين و رينيه ويليك" في كتابهما "نظرية الأدب"، أنها تكمل القصة الكبرى، " وتملأ فراغ العمل" ولهذا تعددت القصص المضمنة، التي تبدو أغلبها أحداثاً استرجاعية، لما قبل أحداث الرواية، وتأتي تلك التضمينات لغايات أهمها: –1 إضاءة الحدث. –2 توصيف الشخصية. –3 تقديم ملمح كاف عن ماضي الشخصية.

اما الأرصاد فهو تضمين دلالي استباقي، يشير إلى ما بعد ذلك من أحداث، وكقاعدة سردية عامة فإن كل أرصاد يعد تضميناً وليس كل تضمين أرصاداً، والحكايات المضمنة هي:.

1 – حكاية الذباب والزمرد اليونانية.

2 – حكاية إيزيس الإله في الحضارة المصرية القديمة، وهي أخت وزوجة أوزوريس وأم حورس، والتي كانت تتحلى بالزمرد.

3 – حكاية اكتشاف بشارة التمر.

4 – حكاية "جد بشير التمار" و"أم إحميز"، التي ولدت طفلاً سفاحا ، لم يعترف به الجد، فتبناه "الشيخ عبد القادر" إمام المسجد الذي قام بإيداع الوليد عند أم هاجر.

5 – حكاية الشيخ عبدالقادر "إمام المسجد" ومشاهدته ما جرى بين جد بشير وأم إحميز في الأكمة داخل البستان.

6 – حكاية ضياع السارد الممسرح وهو طفل، من أبيه وسط زحام الناس في ساحة أم البروم، يوم إعدام "جيتا والحكيم وزيتو" وهو استرجاع خارج الحكاية.

أما الأرصاد فيظهر في الفصل السابع الذي يرويه "أوسم" بالإنابة، حيث نجد:

"أوسم سيصل حتماً إلى حافته البائسة قريباً، لم يعد يرى في جفاف نهاراته ولياليه ما يعينه على الصمت، ثمة مخلوق مسخ في أعماقه بدأ يعوي".

وهذا ما حصل فعلاً، عندما هيمن هذا المخلوق المسخ على أوسم، وقاده إلى

الانتحار في نهاية الرواية، حيث لم يستطع أوسم أن يمتثل إلى الآلية الاجتماعية، فانقاد إلى الانهيار والتدهور.

نتائج البحث

بعد قراءة رواية "الذباب والزمرد" بتمعن على وفق المنهج البنيوي التكويني خرجنا بنتائج أهمها:

1 – قدم الروائي صورة فنية لعالم اجتماعي أصابه التدهور في زمن معين من تاريخ العراق الحديث وبذلك عبر عن رؤية اجتماعية رفضت أساليب العسف الذي مورس ضدها.

2 – استغل الروائي مفاصل الأحداث ليعبر من خلالها عن غلبة التدهور على التفاؤل، وهذا ما وجدناه في حالات الإحباط التي أصابت عالم الرواية نفسه، وبهذا تطابق تفكك الشكل عبر تعدد الساردين بأفكارهم المختلفة مع تمزق البنية الاجتماعية.

3 – اشتغال الروائي على التقابلات الثنائية الضدية لينقل من خلالها تصارع العالم الاجتماعي لروايته.

4 – توظيف الأسطورة والحكايات المحلية البصرية لتعميق الرمز الذي يصور في أغلبه تشوهات عالم الرواية الاجتماعي.

5 – اللعب على أنساق سردية ثلاثية وثنائية تكريسا لشعرية السرد.

6 – الانتقال السردي من الهامشي في حكاية صغرى (الشرطة والحرامية) إلى المركزي في حكاية كبرى (الرواية)، بوصف الأولى دالا يقود الى نتائج الثانية بوصفها مدلولا.

---

* رئيس اتحاد أدباء البصرة

نقرأ في أعدادنا المقبلة للأساتذة:

1. ابراهيم البهرزي
2. أحمد خالص الشعلان
3. د.أحمد مهدي الزبيدي
4. آشور ملحم
5. باسم عبد الحميد حمودي
6. باسم العودة
7. د.باقر الكرباسي
8. جواد وادي
9. حامد فاضل
10. سلام القريني
11. صباح هرمز
12. علي السباعي
13. فاضل ثامر
14. قاسم شاتي
15. كاظم اللايذ
16. نصير الشيخ
17. مصطفى محمد غريب
18. نصير الشيخ

يسمون هذا صرخة

ترجمة قاسم طلاع
شعر: توماس براش*
Thomas Brasch

قبل الحرب

حلِمت اليوم في هذا المساء

عن يوم مُظلم

وامرَأة غريبة، كأني

مقطوع النفس، بجانِبها مضطجعا.

تحدثت عن موت جميل

وعن حرب عظيمة.

رأيتها كيف تتسلق السلالم الحديدية بخطى

كبيرة.

تبعتها

جنود القوا القبض علي

ورشوني بقطرات ماء مطر نقي.

وهكذا استيقظت

وقطرات المطر لازالت تضرب على السقف.

خذني معك

قل أيها الجندي

إلى أين ذاهب أنت!

كنت الآن (لتوك) هنا.

تقول:

ان الحرب قاربت نهايتها.

تقول:

انه الآن سلام.

ناديت على الطفل والمرأة ثم خرجت

معهم.

وعادا الاثنان،

وكان مكانك خاليا.

قل، إلى اين ذهبت،
أيها الجندي...؟
هل انتهت الاجازة
والحرب لا زالت في طريقها...؟
هل كانت الاجازة قصيرة،
حتى من أن تحلق ذقنك...؟

خذني معك،
أريد أن أراك.
كيف تموت مرة أخرى.

خذني معك،
كي أرى، أيضا،
كيف هو الموت،
هكذا، مثلك، بوجه كثيف الشعر.
خذني معك
ليكون لي أجمل قبر بجوار قبرك.

انتظرني
فقط أن أرتدي ملابسي
ولم أحلق ذقني.

انتظر
لنموت سوية
بوجوه كثيفة الشعر
صامتين.

*** توماس براش (1945-2001)**
كاتب الماني، كتب النص المسرحي والقصة القصيرة مع كتابته للشعر.

الرجل صاحب الكلب *

يوسف أبو الفوز

بعد سهرة طيبة، في مساء صيفي ساحر، في احد نوادي مدينة عينكاوة، حيث توفرت لنا الفرصة لارتشاف كؤوس بيرة مثلجة، والتقطنا مجموعة من الصور التذكارية، كان رزكار اثنائها بمزاج لا يتناسب مع عمره، يتفنن في اختيار زاويا التصوير لتبدو في عمق المشهد فتيات، بملابس عصرية، ببنطلونات جينز ضيقة، وفانيلات قصيرة تكشف عن مقاطع مغرية من بطونهن اللدنة، يجلسن بأسترخاء نازعات احذيتهن يدخن الناركيلة، بمشهد لا يمكن لفتاة شرقية ان تحلم به ولا حتى في أي بلد اوربي. قال رزكار :

ـ في مدن جنوب العراق ليس للنساء الا بيوتهن ليشعرن بشيء من الحرية. الله يكون في عونهن.

عدنا الى مركز مدينة اربيل منتشين بالفرح . طوال الطريق كنت امزح مع رزكار:

ـ لم ار سيارة واحدة توقفت عند اشارات الاحمر، حتى انت ... يا متمدن، يا من عشت سنينا في اوربا، فما الحكمة من وضع الاشارات الضوئية ؟

ويضحك صديقي، الذي عرفته سنوات النضال في الجبل وارتبطنا بعلاقة حميمة، حرصنا على تواصلها رغم تباعد المنافي. كان رزكار أجرأ مني في اتخاذ قرار العودة الى البلاد بعد سقوط النظام الديكتاتوري، وبشهادة الحقوق التي حصل عليها من المانيا، حصل على وظيفة مرموقة، وتزوج من أبنة عمه بعد ان رفضت زوجته الالمانية السابقة الالتحاق به الى كوردستان، كانت التفجيرات حينها لا تغيب عن شاشات التلفزيونات العالمية، فصاحت به غاضبة :

ـ طلقني، اتريد ان تأخذني الى الموت ؟!

ومات الحب الذي ظنه ابديا. عاد الى اربيل تاركا لها أبنه، حاملا غصة سرعان ما نساها بعد لقاءه بأصغر بنات عمه. أمرأة فاتنة وطموحة، ولم تتوقف كثيرا عند فارق السن بينهما :

ـ اربعة عشر عاما، لا شي مقابل العشرين التي يكبر أبي فيها أمي وعاشا حياتهما سعداء جدا بالتفاهم والحب !

ظل رزكار محتفظا ببساطة وشهامة عرف بها، كانت تقربه دوما الى الناس. لم يفارقه تواضعه الذي قربني اليه منذ سنواتنا الاولى في الجبل، مما شدني للتمسك به اكثر. ضحك وقال :

ـ اشارات المرور؟! انت تحسب نفسك في أوربا، نحن هنا يا صاحبي بحاجة لاجيال جديدة حتى نتفهم مفردات

الحضارة، ويصبح كل ذلك جزءا من سلوكنا العام .
من الايام الاولى لي في مدينة أربيل ، رحت اتفحص بفضول شديد ما حولي. زالت الديكتاتورية وزالت حروب الابادة ضد الشعب الكردي، اذا لم يصعد حكام شوفينين من جديد الى سطح كراسي الحكم. هناك افاق لتقدم البلاد. ان تتحرك نحو مستقبل طالما حلم به الناس وقدموا لاجله تضحيات جسيمة. تأكدت بنفسي مما كان يقوله لي رزكار على الهاتف :
ـ نعم، نحن بلد ديمقراطي كما تعلن احزابنا في الصحافة، لكنها ديمقراطية لا تشبه اي ديمقراطية في العالم ، تعال وراح تشوف بنفسك !
وجاء لير بنفسه. مدن كردستان تغرق في النزعات الاستهلاكية مع توقف العملية الانتاجية. الفلاح يهجر قريته ويتحول الى شرطي. رواتب تجري من اماكن مختلفة من خزينة الدولة. بنايات فنادق ترتفع عالية، وزبالة بضائع دول الجوار تملأ الاسواق، ويظهر سياسي في التلفزيون متأنقا بربطة عنق فاقعة اللون، وجهه ينضح بالعرق ، ليصرخ بالناس :
ـ سنحول االبلاد الى دبي جديدة !
ويعفط رزكار كلما تذكر ذلك :
ـ نعم ، سنكون دبي اخرى بأستيراد الخادمات الآسيويات !
رزكار ناقم على كل شيء، وكل مرة أهاتفه اتوقع ان يقول لي بأنه سيعود الى المانيا فورا. نصحني بعدم الاستعجال بالعودة :
ـ كان قراري صائبا ولكن يبدو مستعجلا. حاول ان تستفيد من تجربتي، رتب امورك كلها بشكل محكم قبل ان تحزم حقائبك.
وها أنا قادم لاستطلاع الامور من جديد. قابلت كذا مسؤول . سمعت وعودا بالتوظيف. تركت سيرتي الذاتية على اكثر من طاولة، بقي لي عدة ايام لاعود حيث اقيم مجبرا في اوربا المترفة التي صار البعض من معارفنا يكرهنا لمجرد اقامتنا هناك :
ـ انتم ، متنعمون في اوربا، لا تعرفون حجم معاناتنا هنا، فكفوا عن اطلاق الملاحظات والانتقادات، ان ايدينا في النار وايديكم في الرماد !
مرت السيارة ببيوت فارهة ، قال رزكار وهو يشير بيده :
ـ فقراء الناس سمو هذا الحي "حي الحرامية "، فهنا يقيم موظفون كبار وقادة سياسيون ورجال اعمال !
يمكن لمس الفرق بين هذا الحي ومناطق اخرى يسكنها فقراء الناس من ملاحظة نظافة الشوارع ونوع الارصفة. حين تجاوزنا "حي الحرامية "بقليل، ترك السيارة احد معارف رزكار ممن رافقونا في سهرتنا، بينما واصلنا الطريق. اصر رزكار، رغم معارضة زوجته واهلها، ان يبقى في البيت الذي تركه لهم ابيه في المنطقة الشعبية، اشترى حصة اخيه بثمن مناسب ورمم البيت ليكون واحدا من بيوت الحي النظيفة والبارزة :
ـ هنا بين بسطاء الناس اتعلم كل يوم ان لا انسى نفسي واتكبر على الاخرين، وسينشأ ابنائي على منوإلنا .
انعطفت السيارة بنا عند دكان مفتوح رغم ابتعاد الليل عن منتصفه، نزلت زوجة رزكار اشترت شيئا ما وعادت وهي تتذمر من غلاء الاسعار. خلالها

مص رزكار نفسين من سيكارة مطفأة اشعلها بسرعة قبل عودة زوجته التي طالما عاركته على اصراره على الاستمرار في التدخين. فجأة لمحت الكلب. كلب منزلي من نوع أمريكي، بشعر ابيض قصير، ولمة شعر عند الرأس كأنها لمة اسد. على رقبته تلمع خرز فسفورية يتدلى منها قطعة معدنية مربعة، خمنت انها رقم هاتف صاحب الكلب. اعرف مثل هذا المشهد جيدا في الديار الاوربية. انه مشهد يومي عادي. لم ار وجه صاحب الكلب جيدا. كان يسير محني الظهر بخطوات قصيرة متسارعة ليلحق بالكلب الذي كان يتشمم كل شيء امامه بشراهة. خمنت ان هذه من مظاهر حمى الاستهلاك في المدينة. هواتف نقالة اخر موديل، ملابس اخر صرعة، سيارات فارهة، مولات فارهة، خادمات اسيوية ... وكلاب من كل الانواع! ما ان تحركت السيارة، وحاذينا الكلب، حتى رايت رزكار يرفع يده بالتحية، التي رد عليها صاحب الكلب بحرارة وراح يواصل هز يده رغم ابتعادنا. كانت لحظات كافية لارى بوضوح وجه الرجل. خيل لي اني اعرفه، او قابلته في مكان ما . في أربيل أو بغداد أو في البصرة . خلال الاسبوعين الذين قضيتهما في اربيل، لم يترك رزكار مكانا لم يأخذني اليه. خيل لي ان الرجل صاحب الكلب كان هناك حين لعبنا البولينغ، ساعة تركتنا زوجة رزكار لتتبضع هي وأختها، واقترح رزكار "ان نحرك عضلاتنا قليلا". وانه كان في بناية البريد حين سألت عن امكانيات ارسال بطاقات بريدية مباشرة الى اوربا. اذكر في المقهى المجاور لسوق تصريف العملة حين شربنا فنجاني قهوة وجدنا ان احدهم قد دفعها بدلا عنا، وذكر لي رزكار اسمه. انه ذات الشخص . في كل مكان تجد نسخة منه. كأنه يتناسل من الظلال. أستغرب رزكار كوني لا اميز شكله وليس لي معرفة بذلك، وهو الذي طالما تردد أسمه في الجبل وفي المدينة.

في اليوم التالي ، قال لي رزكار:

ـ نحن مدعوين عند صاحب الكلب ، ستسمع الكثير مما ينفعك لتفهم الحياة الجديدة هنا !

ـ أهو صديقك الان ؟

ـ معارف وعلاقات مشتركة مع معارف أخرين . تستطيع القول صداقة لابد منها . هو يظن أنه قد يحتاج محل عملي يوما، فيحرص على علاقته معي.

في الوقت المحدد، كنا هناك. كان بأبهى حلة. ملابس اوربية ناصعة الالوان . موسيقى كلاسيكية تصدح في الصالة المفروشة بالسجاد الوثير. من أول وصولنا دارت كؤوس النبيذ الاحمر. شربت على حذر. كانت زوجته ببنطلون جينز قصير الساقين وقميص عريض الاكمام وحرصت على سد فتحة الصدر بفانيلة قطنية مشابهة لقماش قميص زوجها. بدأ يحدثنا عن خصال كلبه "بوبي" وجعله يرينا بعض الحركات التي دربه عليها، كان فخورا جدا لأن "بوبي" يفهم الاوامر باكثر من لغة وينفذها :

ـ هل تعلمون ان الكلاب التي تقود مكفوفي البصر تعتبر من المعجزات، ولذلك هي في اوربا غالية الثمن، فبعد ثلاث شهورمن التدريب يمكن ان تعرف الطرق وإشارات المرور وأماكن عبور المشاة ومساكن أصحابها، بل وتعرف

أماكن التسوق . والأغرب أنها تعرف أرقام الحافلات التي يركبها أصحابها، فتراها لا تقفز إلاّ في المركبة التي يريدها صاحبها، وتغادرها في المكان المطلوب تماماً، الا توافقوني في اعتبار هذا من المعجزات ؟

وسرعان ما نسي موضوع الكلاب وراح يتحدث عن فكرة مشروع استثماري، فهو يريد بيع البيت ويجمع ما لديه ويشتري قطعة ارض خارج المدينة، يحولها الى بيت ساحر على طراز بيوت النبلاء في القرن التاسع عشر. زيارات وحفلات بمواعيد ثابتة. مكتب تجاري للاستيراد والتصدير. استثمار قطعة ارض باشجار الزيتون . كان يرسم مستقبلا مشرقا لما يفكر به. يحرك يديه ويرسم خطوطا وهمية. يؤشر عند نقطة في الفراغ ويذكر بأنها بئر مياه ارتوازي :

ـ الارض غنية ، تحتاج لمن يجهد نفسه في استثمارها .

تركت الزوجة حقيبة يدوية لها بالقرب من مقعدي حيث اجلس . لم أكن ميالا للأكل. تناولت طبق سلاطة خفيف، وجدتني ورزكار نمتدح الطعام اكثر من مرة ارضاءا للزوجة . اعتذرت زوجة رزكار عن مصاحبتنا، زمت شفتيها وقالت لزوجها بصوت خافت لكني سمعته :

ـ اكره المبالغات و ... !

وبلعت الكلمة التالية لكني فهمتها.

لم أشا ان اخرب لرزكار فرحته بلقائي، ولا اتدخل في برنامجه الذي رسمه لي . في اول يوم وصلت أربيل وجدت انه حجز صالة كاملة في مطعم وكان هناك اكثر من عشرة مدعوين . كان يريد ان يقول لهم شيئا. لانه حين وقف في صدر الطاولة تحت هواء المكيف الذي كان يطلق صوتا كالصفير، قال وهو يوزع نظراته بمعنى خاص :

ـ يسرني ان تشاركوني احتفائي بصديق حقيقي لم يفكر يوما في خذلاني !

وبحثت في الوجوه ، من منهم عليه ان يفهم ان الحفلة اساسا اقيمت له لكي يسمع من رزكار هذه العبارة ؟ لم المّح حتى لرزكار بأنه يستغل وجودي لتمرير رسائل ما لاخرين . تركته على سجيته. وحين قادني الى بيت صاحب الكلب ، وسألني قبلها عن الاكل المفضل ليعده لنا مضيفنا ، قلت له :

ـ مثلما يعجبك !

ما ان تم رفع الصحون، ودارت فناجين الشاي والقهوة ، حتى وجدت زوجة صاحب الكلب تجلس الى جانبي :

ـ قالوا لي انك تعيش في ... !

وكدت ان ابتسم، اذ ادرك انها تعرف جيدا اين اقيم ، فلم هذا التصنع في الجهل ؟ فقلت لها :

ـ نعم ، منذ ستة عشر عاما.

زحزت نفسها بأتجاهي ، ومالت عليّ بحيث لامس كتفها ذراعي :

ـ اخبرني بصراحة ، من خلال تجربتك ، ايهما افضل الحياة في السويد او الدانمارك او عندكم؟

ولمحت زوجها، صاحب الكلب ، يشرئب بأذانه نحونا ، يحاول ان يتسمّع حديثنا ، وخمنت انه لا يسمع شيئا من الحديث الذي يدلي به رزكار عن قضية ما . لم تتركني اجيب على سؤالها الاول ، حتى الحقته بسؤال اخر:

ـ هل صحيح ان معاملة "لم الشمل" في السويد تكون اسرع ؟

وحرت على أي سؤال اقدم الجواب ؟ زحزحت فنجان القهوة امامي محاولا لم أشتات فكري لاجيب ، لكنها التصقت بي اكثر وقالت بصوت هامس لا اظن احدا غيري يسمعه :

ـ لا يغرك كل هذا الكلام عن المشاريع المستقبلية ، انا وزوجي مطلقان عمليا منذ سنة ، هو يعيش ويعاشر كلبه اكثر مني، القضية مجرد توقيع اوراق ويكون كل منا حر بحياته الجديدة . أنا امراة عملية، قررت البحث عن مشروع زواج سريع ومناسب في احد الدول الاوربية للانتقال الى هناك، لا استطيع تحمل خداع المهربين ولا اختلاق قصص الاضطهاد من اجل اللجوء. لي معارف في السويد اوصيتهم بالبحث لي عن عريس مناسب. أرجوك ضع الامر في بالك ان كان يمكن ان تساعدني !

نظر رزكار باتجاهي وهو يرى صاحب الكلب شاردا لا يستمع اليه ونظراته موجهة اليّ . كان وجهه ممتقعا، يبدو انه فهم كل شيء قالته لي زوجته. نهض فجأة ، فتح زجاجة نبيذ جديدة وصب في الكؤوس، ورفع كأسه:

ـ صحة المستقبل !

عينكاوة
12 حزيران 2012

---

* القصة من مخطوط "بعيداً عن البنادق" المعد للنشر، يجتهد فيه الكاتب لتسليط الضوء على حياة الانصار ما بعد نهاية حركة الكفاح المسلح، ورصد آمالهم وذكرياتهم وخيباتهم وطموحاتهم !

في الصحافة الثقافية العالمية

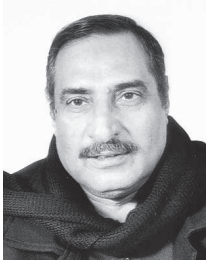

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

موت بائع متجول

عرضت مسرحية (موت بائع متجول) للكاتب المسرحي الأميركي أرثر ميلر لأول مرة في الولايات المتحدة وبريطانيا سنة 1949 عندما بدأت الحرب الباردة تزداد سخونة. حصلت تلك السنة على جائزة البوليتزر للدراما وجائزة توني لأحسن مسرحية. لكن هذا لم يمنع (إدجار جي هوفر) رئيس وكالة التحقيقات الفيدرالية من منع أي إنتاج أميركي من العرض في أوربا التي أنهكتها الحرب حيث كانت الولايات المتحدة مشغولة بترويج الحلم الأميركي الذي ألقى أرثر ميلر على إعتباره حصنا منيعا ضد الأفكار الشيوعية شكوكا قوية بمسرحيته هذه.

خلال العقود السبعة التي مضت أعيد عرض المسرحية باستمرار على جانبي الأطلسي، حائزة ومرشحة الى عشرات الجوائز، ومكتسبة سمعة جيدة بكونها واحدة من أعظم الأعمال الدرامية في القرن العشرين. تم عرضها في حزيران الماضي على مسرح نورثامبتون رويال & ديرنغيت، وقبل سنتين بالضبط عرض المسرح نفسه مسرحية (الخُطّاف) لأرثر ميلر (قدمنا وقتها في المتابعات عرضا للمسرحية – م).

يستعين ميلر في (موت بائع متجول) بماركسيته لتفحص الحلم الأميركي من خلال شخصية (ويلي لومان) الذي يواجه البطالة ولكنه لا ينفك يحب "الطريقة الأميركية" ويعيش على أمل الحصول على "الصفقة الكبرى" في يوم ما الى أن يأتي اليوم الذي يموت فيه دون أن يتحقق حلمه. لا زالت رسالة أرثر ميلر الأصلية تلقي بضوئها على ما يحدث في المجتمع الأميركي.

كتب (مايكل بيلنكتون) في الغارديان سنة 2015 بمناسبة عرض المسرحية في مسرح شكسبير إحتفالا بمرور 100 عام على ولادة ميلر بأن عظمة المسرحية هي قدرتها على الإنتقال من السايكولوجي الى الإجتماعي وبالعكس. إن لومان مثال على الصبي–الرجل الذي يعيش وهو في ستينياته في عالم حالم غير قادر على مواجهة الواقع. يقدم لنا ميلر بالتزامن صورة فرد ضائع ودراما عن الآباء

نيكولاس وودسون في مسرحية موت بائع متجول

والأبناء ونقدا للنظام الرأسمالي، وببراعة، يعطينا مقتربات مختلفة للشخصية ما بين لومان المتعب من التجوال عارضا بضاعته ولومان الراغب بأن يكون محبوبا. لكن إذا كان هو في عالم الحلم فإن زوجته لندا تسكن عالم الواقع، عملية، مخلصة لزوجها، فيما يكتشف الإبن بيرنارد ممارسة أبيه للزنا في غرفة بفندق. إذا كنا لا نزال نتأثر بمسرحية (موت بائع متجول) مع كل عرض جديد فليس للدقة التي يصور فيها مجتمع وأزياء الأربعينيات من القرن الماضي أو البراعة التي يؤدي فيها فريق العمل من مخرج وممثلين وفنيين بل لسبب رئيس هو مركب التعاطف مع فرد غير سوي والنقد القاسي لإمتهان الحلم الأميركي، الإمتهان الذي يسمح بجعل النجاح التجاري بديلا لمثال المساواة النبيل.

بينما كان الممثل (بيغوت–سميث) يؤدي دور لومان توفي فجأة فاضطلع بالدور (نيكولاس وودسون) وقد أداه بجدارة، فيما أدت تريسيا كيلي دور لندا لومان باقتدار وكذلك مايكل والترس في دور بيرنارد.

بيتر فروست/ جريدة مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

شعر:

مختارات من قصائد (نيّرة وحيد) القصيرة

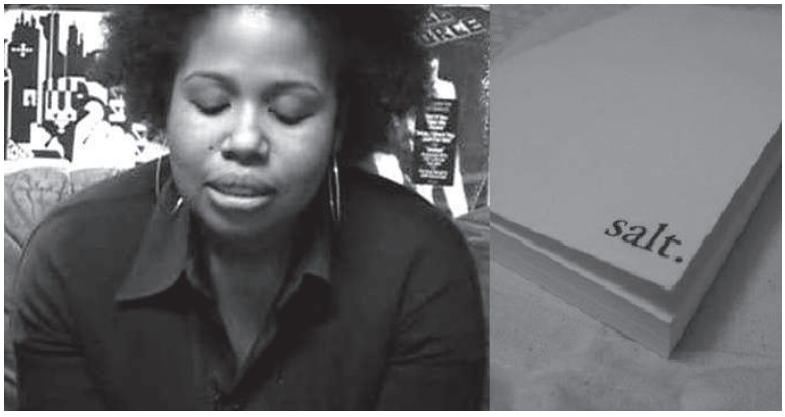

(نيرة وحيد) شاعرة ومؤلفة أميركية ذات أصل أفريقي نشرت كتابي شعر وقد تم وصفها بأنها "ربما الشاعرة الأكثر شهرة على الأنستغرام". في حين أن نيرة تميل الى الإنطواء، إذ لا نعرف تفاصيل عن حياتها، فإن شعرها ينتشر على مواقع التواصل الاجتماعي. عرف شعرها بكونه "قصيرا ومنمنما" و"مؤثرا بشكل لا يصدق" ويغطي مجالات مثل الحب والهوية والعرق والفيمينية.

لا نعرف الكثير عن خلفيتها وطفولتها وهي تصف نفسها بأنها "شاعرة هادئة"، وما نعرفه أنها بدأت الكتابة في سن الحادية عشرة بعد أن طلب منها معلمها الكتابة لصحيفة محلية، ومنذئذ نشرت كتابين كما أسلفنا وكسبت متابعين على الأنستغرام يزيدون على 263 ألف متابع، حيث ترسل بانتظام صورا لأعمالها وأعمال أخريات بضمنهن صديقتها الشاعرة (يرسا دالي–وارد).

***

توقع الحزن
كتوقع المطر
كلاهما يطهرك

***

أحيانا يستيقظ الليل وسطي
فلا يكون بوسعي
إلا أن أكون القمر

***

كم من مرة
رأيت رجلا يرغب في البكاء
ولكنه بدلا من ذلك
يضرب قلبه الى أن يفقد الوعي

***

سَألتْ:
أنت واقعة في الحب،
كيف يبدو؟
قلت:
هو كما لو أن كل شيء فقدته في حياتي عاد إلي.

***

توجد المسالمة
وتوجد الطائشة
أنا كلاهما
***
أين أنت
لا يعني
من أنت
***
إذا كان يجب أن يكون كلانا على حق
فسنخسر بعضنا البعض
***
توجد مشاعر
لم تشعر بها بعد.
إمنحها الوقت
فهي على وشك

***
لا أعير إهتماما لنهاية العالم
فقد إنتهى بالنسبة لي مرات عديدة
وبدأ مجددا في الصباح.
***
حتى لو كنتَ غابة صغيرة
تعيش فقط من ضوء القمر
فضوؤك إستثنائي .
***
إذا لم يكن يرغب فيّ أحد
فهذه ليست نهاية العالم
ولكن إذا لم أكن أريد نفسي
فالعالم إذن ليس سوى نهايات.

عن موقع فلتر كوبي

سينما:

حكاية عن جنون الأم

أرادت المخرجة ومؤلفة قصة الفيلم (نعومي لفوفسكي) أن تحكي لنا في فيلمها (غدا وفي كل الأيام الأخرى) "قصة حب جنوني، ومعاناة بين أم وإبنتها. حب بنت، وحب أم، حب مطلق." وأرادت أن تعبر مرة جديدة على الشاشة، بعد فيلمين سابقين، عن الشعور بالخسارة الذي لا ينفصل عن شخصية الأم: "الحزن الأول في العالم هو خسارتنا لأمنا. حتى وإن كانت لا تزال موجودة فإن شيئا منها يكون قد ضاع".
والدة ماتيلد على حافة الجنون. تشتري فستان عروس وترتديه وتروح تدور في الطرقات، تركب قطار الضواحي حتى آخر محطة دون داع، تتحرك داخل شقتها تحركات مفاجئة، وماتيلد تعرف يقينا أن أمها قد تغيرت ولا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تفعله، ولكنها إبنتها، وهي تفكر في أمرها على نحو منطقي، بوصفه وضعا عاديا فبعض الناس يعملون خبازين او أطباء، وأمها مجنونة، هكذا هي حياتها بكل بساطة. للمرة الثانية تؤدي المخرجة (نعومي لفوفسكي) الدور الرئيس في فيلم لها لترضي رغبة المنتج جان-لوي ليفي وكذلك لكي توجه لوس الصغيرة (تؤدي دورها الممثلة لوس رودريغيز) من داخل المَشاهد. تأتي اللحظة التي لا تعود الطفلة

فيها تستطيع التكيف مع شذوذ تصرفات أمها فتستدعي والدها للمساعدة والذي يقوم بدوره (ماتيو آمالريك) الذي يؤمن بأن الجنون جزء من حياتنا. كان الأب قد إبتعد عنهما ليتركهما يعيشان حبهما الجنوني ويراقب عن بعد متهيئا للتدخل عند الحاجة، وقد أظهر آماليرك في دوره الثانوي هذا جاذبية ورقة واضحتين. لكن الفيلم تعرض لإنقطاع العمل مرتين، وفي مرة مرضت لوس وإحتاجت للعلاج فترة، ويئست المخرجة من إكماله حتى قالت لها المحررة "إذا لم تتمي هذا الفيلم فلن تتمي فيلما أبدا"! تقول المخرجة: إن أي فيلم، فيما وراء عمل الممثلين، والتقنيين، والمنتجين، له حركته الخاصة، ككائن حي. إنه للغز كبير".

تمر السنين وتموت الأم وتقوم ماتيلد بزيارة قبر أمها وتتخيل نفسها ترقص معها بين المطر والشمس. تمثل (آنايس دوموستيه) دور ماتيلد الكبيرة. الفيلم مهدى الى روح والدة المخرجة وهو الفيلم الثالث المكرس لها بعد (كاميل) و(الحياة لا تخيفني).

أنطوان دوبلان/ جريدة لو تون السويسرية

سينما وثائقية:

فيتنام.. فيما وراء الحرب الدعائية

يتتبع (كين برنز) و(لين نوفيك) مخرجا الأفلام الوثائقية، في عملهما الجديد (فيتنام) المكون من تسعة أجزاء ومدته 18 ساعة، قصة حرب فيتنام بالإستعانة بالعديد من الشهادات من مختلف الجهات. كان موغي في السابعة عشرة من عمره حين تطوع في الجيش الأميركي لمحاربة "الحمر" في فيتنام وغادر في العام 1964 فيما كانت المذبحة قد بدأت هناك في محاولة لقهر بلد سبق له أن طرد اليابانيين المستعمرين في العام 1945، ومن بعدهم جاء الفرنسيون بجيوشهم بينما كان رجل نحيل إسمه (هوشي منه) يخطب في الفيتناميين معلنا الإستقلال مستشهدا لشعبه في حقه بالإستقلال بإعلان حقوق الإنسان وإعلان إستقلال الولايات المتحدة. كان على شعب مكون من فلاحين فقراء أن يحاربوا أقوى جيوش العالم ليحصلوا على هذا الإستقلال. حاربوا الفرنسيين حتى ألحقوا بهم هزيمة (ديان بيان فو) المذلة في العام 1954 تحت قيادة الجنرال العبقري جياب. ثم جاء الأميركيون الذين كانوا متواجدين أصلا في فيتنام من خلال مساعيهم مع الفيتناميين لطرد اليابانيين بعد الحرب العالمية الثانية. في الوقت الذي تدخل فيه الأميركيون عسكريا كان العالم

قد دخل الحرب الباردة وكانت فيتنام مقسمة بخط 17 الى دولتين، في الشمال الشيوعيون تسندهم الصين والإتحاد السوفييتي، وفي الجنوب نظام فاسد مستبد تسنده واشنطن.

يمزج المخرجان في عملهما هذا بين القصص الكبيرة والقصص الصغيرة، من المكتب البيضوي في البيت الابيض الى ضواحي هانوي، ومن تلال خوسانه أو الحرم الجامعي الأميركي الى الرؤساء الأميركيين والى مشارف جبهات القتال حيث يقص علينا موغي ما حصل له أو تروي لنا الفيتنامية (لي منه خوي) كيف أنها، عندما كانت في السادسة عشرة وسيقت الى الجبهة، عملت بنصيحة عمها فأخذت معها نسخة من رواية همنغواي (لمن تقرع الأجراس) التي علمها بطلها الصبر وبث فيها الأمل بالعودة سالمة الى البيت.

عمل المخرجان مع المنتج الفيتنامي (هو دانغ هوا) الذي سهل لهما الولوج الى الأراشيف الرسمية الفيتنامية ووكالة الأنباء، وقد وازنا بين الشهادات بإعطائهم حق الكلام للمقاتلين الشماليين مثل الروائي باو ننه، وللفيتناميين من الجنوب الذين تجرأوا على انتقاد الحرب ووحشية الإنسان كما ظهرت جلية في هجوم التلة 875، وعرضوا للآراء المتعارضة، الفيتنامية والأميركية. يقول الملازم أوكاموتو وهو أميركي ياباني الأصل قاتل في فيتنام "الأبطال الحقيقيون هم الذين قُتلوا"، ويقول (لو خاك تام) الجندي الفيتنامي الشمالي بأنه حاز على ميدالية "قتّال الأميركيين" ويذكر أن 60 من جنود فصيله التسعين قتلوا في ذلك الهجوم سنة 1968.

في إستقصاء الجانب الدعائي بث الفيلم محادثات هاتفية للرؤساء كندي وجونسون ونيكسون تكشف إزدواجيتهم ما بين السرّ والعلن وكذبهم في تصريحاتهم للصحافة، وعرض الفيلم مؤتمرات صحفية وحملات انتخابية.

لقد قتل في حرب فيتنام أكثر من ثلاثة ملايين. لا زالت الحرب بعد نصف قرن تسبب انقساما في الوعي الجمعي الأميركي، وتشكل نهاية البراءة في وعي جيل الستينيات والسبعينيات.

Vietnam, de Lynn Novick et Ken Burns, 9x52 min. septembre sur Arte. 20h50.

أرنو فوليران/ مجلة ليبراسيون الفرنسية

كتب:

طبعات جديدة بالفرنسية لكتب هوارد فاست

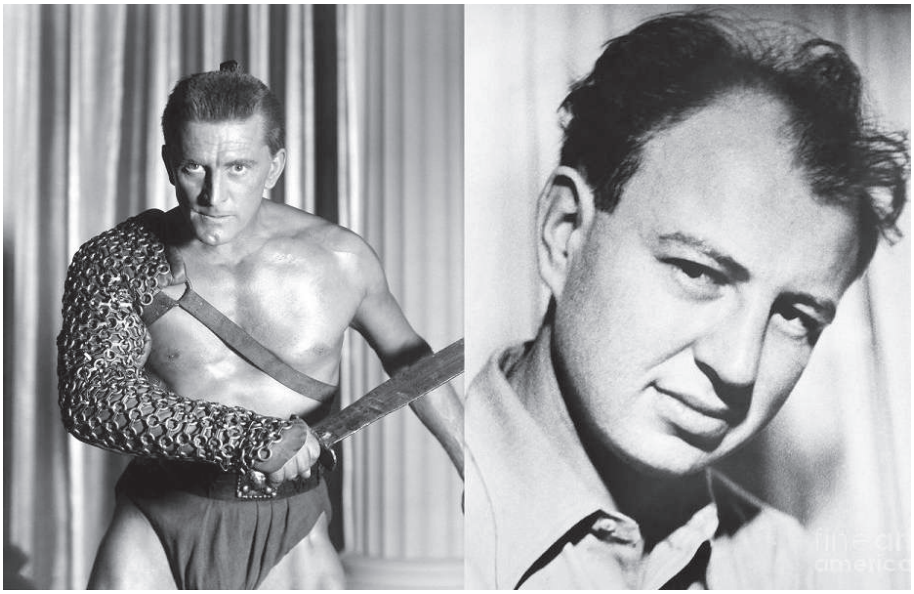

هوارد فاست مؤلف سبارتاكوس ولقطة للممثل كيرك دوغلاس من فيلم سبارتاكوس، 1960

لقد كتب هوارد فاست الكثير. برغم أنه عُرف منذ العام 1933 وهو في التاسعة عشرة من عمره إلا أن أول أعماله السبعين التي عرفت النجاح لم تظهر إلا بعد عشر سنوات وبعدما أصدر ستة كتب. تتحدث رواية (المواطن توم بين) عن حياة بطل الإستقلال الأميركي، وفيها جعل فاست من (توم بين)، العامل المهاجر، الصوت الشعبي لحرب الإستقلال والرمز الثوري. لقد كان فاست، مثل بطله، رجل الشعب، ومثله كان عصاميا، ومثله مؤمنا بأن الكتابة يجب أن تكون فعلا سياسيا ووسيلة توصل الأفكار الإجتماعية الى الناس العاديين. إن فاست الذي تربى على البرنامج التقدمي للجبهة الشعبية لم يكن منظّرا ولا طليعيا بل راويا موهوبا للتاريخ. لا يمكننا نسيان مشهد الصلب الذي وصفه في رواية (سبارتاكوس) 1951، التي طبعت في فرنسا مؤخرا بترجمة جان روزنتال، عندما صلب الرومان آخر قائد متمرد للمصارعين، حيث ساعدت إستذكارات المعدوم ـ وهو يكابد الآلام ـ الراويَ في أن يعود الى أوقات مختلفة في حياته الثائرة بتقنية سينمائية ميزت روايات فاست التي أُخرج الكثير منها

للسينما.
في العام 1960 أخرج ستانلي كوبريك (سبارتاكوس) التي سُجن مؤلفها ثلاثة أشهر بسبب إنتمائه للحزب الشيوعي ورفضه الوشاية برفاقه، وقد كتب يقول في مقدمة لإحدى طبعات الرواية عن تلك الفترة "لم تكن البلاد أبدا مشابهة لدولة بوليسية كما كانت آنذاك". في هذا السياق جعل من العبد الثائر رمزا ثوريا يهدد مجتمعا بأكمله تقوم سلطته على إستغلال طبقة لأخرى، وجعل فساد روما متجسدا في صورة لوطيين "معطرين". إن سبارتاكوس هو المثال الذي لا يموت وكما قال فاست: "تصبح القصص أساطير، والأساطير رموزا، ولكن حرب المضطهدَين تتواصل ضد من يضطهدهم. شعلة تشتعل مرة عاليا ومرة واطئا، ولكن لا تنطفئ أبدا".
باشرت دار آغون بالفرنسية طبع روايات هوارد فاست عن الثورة الأميركية (الفخور والحر) وعن حرب الإستقلال (طريق الحرية) وعن ثورة ماكابي (أخوتي المجيدون) وعن عمال المناجم (السلطة).

سباستيان بانس/ الملحق الأدبي لجريدة لومانتيه

سرد:

زبور والألف كتاب وكتاب

بعد أن قرأ بطل كامل داود رواية (روبنسون كروزو) للكاتب دانيال ديفو مرات عديدة وعاش أجواءها، أعجبته شخصية ببغاء السفينة الغارقة الشهير، فقرر بالمثل أن يعيد إختراع اللغة كاملة بخمس كلمات: "مسكين يا روبنسون. أين أنت؟". حتى لو أصبح عدد مفردات لغة ما خمسة ملايين فإن الحاجة تبقى لتوسيع حدودها أبعد فأبعد. هذا هو ما فهمه (زبور) بعدما أدرك السلطة السحرية للكتابة. يمتلك هذا الرجل الثلاثيني موهبة مراوغة الموت بكتابة قصص في دفاتر مدرسية ليمنح الأموات بضع سنوات إضافية بوضعه حيوات على الورق.
لا يعيش زبور على جزيرة مهجورة بل في قرية جزائرية تدعى (أبو قير). تزوج أبوه بعد وفاة أمه فتربى عند عمّة عانس وجد صموت، وعاش في عزلة من أناس القريةً الذين يصفونه بأنه "الذي لا يتوقف عن القراءة"، وينظرون اليه بعين الريبة لأنه لا يأكل اللحم ولا يقرب النساء ولم يختن، وكذلك لأنه إختار أن يكتب بالفرنسية "اللغة الغريبة التي تداوي المعذبين وتحتفظ بأبهة المستعمرين السابقين".
أصدر الأديب الجزائري كامل داود (من مواليد 1970) في العام 2013 رواية (ميرسو... تحقيق مضاد) والتي حازت على جائزة غونكور وجائزة فرانسوا موریاك وجائزة الفرانكوفونية، وأثارت جدلا واسعا هي وكتاباته الأخرى بضمنها عموده الصحفي بعنوان (رأينا رأيكم) الذي يكتبه في صحيفة (كويتدون دوران)

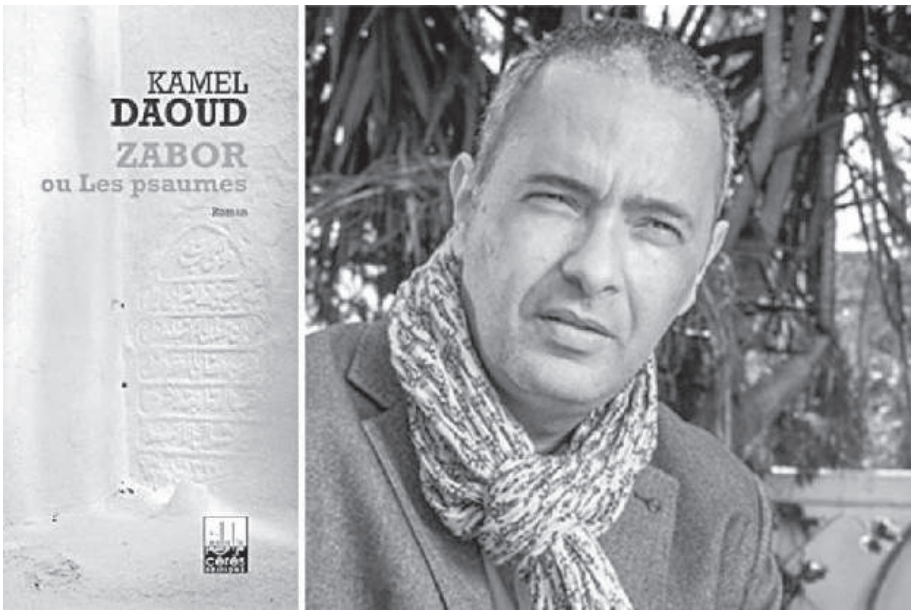

كامل داود وكتابه (زبور أو المزامير)

الجزائرية التي يعمل فيها محررا. روايته الثانية هذه حكاية متعددة الطبقات عن إعترافات رجل ممزق يعيش على الهامش، سيل من الكلمات يطمئن بها نفسه يسطرها على آلاف الصفحات ويضع لدفاتره عناوين مأخوذة من كبار الكُتّاب. إن زبور ذا الألف كتاب وكتاب، مثل شهرزاد، ليلة بعد ليلة، لا يطيل حياته فقط بل يطيل حياة الآخرين أيضا، أما بالنسبة الى أبيه، الملك الفظ غير المتوج، والمعذب أيضا، فإن زبور يتساءل إن كان يستحق هو أيضا أن يُنقذ.

تروي لنا هذه الحكاية بأجزائها الثلاثة (الجسد) و(اللغة) و(الإنتشاء) السير المؤلم نحو الإنعتاق، عن طريق التعلم المتوحد والسري للغة هي الفرنسية، لغة كل الممكنات، والإستعارات والشهوانيات، بين صفحات (جسد أوركيد)، يصبح زبور كاتبا ويخطو خطوة إضافية نحو الحرية، ويجعل من الكلمات أقنعة له. يقول كامل: "الكتابة هي التمرد الأول، النار الحقيقية المسروقة والملفوفة بالحبر لكي لا يحترق بها حاملها". إن زبور مثل الببغاء (پول) السجين في جزيرة يجد في اللغة أرضا أكثر رحابة من قريته. يوجه كامل في روايته هذه التحية الى القوى اللامحدودة للخيال القصصي والى الأدب.. مكانه الحقيقي.

الكتاب:

Zabor ou Les psaumes
Kamel Daoud
Actes Sud, 336 p.

صوفي جوبير/ جريدة لومانتيه

معرض فوتوغراف:

إيلي لوتار المصور والسينمائي

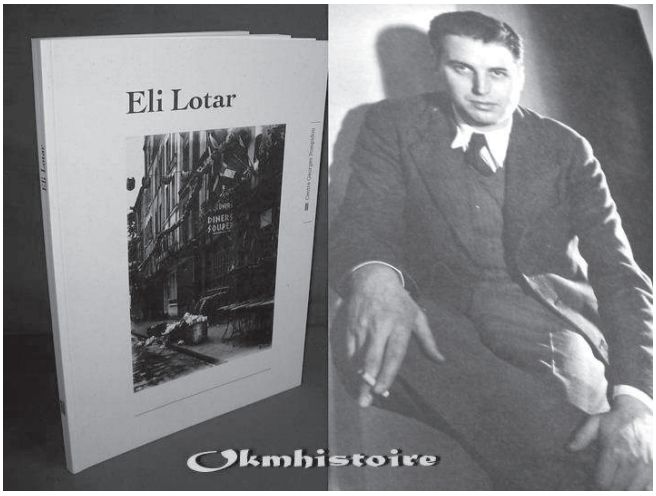

إن معرض (جو دو بوم) الإستذكاري يحلل إنتقالات هذا الفنان الذي توزعت إهتماماته بين الفوتوغراف والسينما، والتوثيق والتجريب، والمنفى والإلتزام الإجتماعي. نشرت الأسبوعية الشيوعية (ليتر فرنسيز) في الحادي والعشرين من آذار 1969 نعي إيلي لوتار الذي توفي عن 64 عاما موقعا من قبل صديقه السينمائي النرويجي جوريس إيفينس. بعد خمسين عاما يقام هذا المعرض في مركز بومبيدو إستذكارا للمصور روماني الأصل، وتعرض فيه نسخ أصلية أغلبها لم يعرض سابقا وصور مستعادة مما نشره في المجلات والأفلام تعطي فكرة عن المجموع المعقد لفعاليات لوتار دون أن ننسى أنه كان يعمل على الأغلب جماعيا بالإشتراك مع فنانين آخرين، ويمنحنا الفرصة أيضا في أن نرجع ونعيش أجواء مرحلة إنقضت حين كان الفنان يعمل ضمن شبكة شعراء وكتّاب ورسامين ونحاتين.

لم يمنعه هواه المبكر للسينما في العشرينيات والثلاثينيات من أن يمارس التصوير الفوتوغرافي الذي رأى فيه إمكانيات غير محدودة مبتعدا عن البنائية ومقتربا من السوريالية وهو يخرج من قفص الأستوديو الى سماء الحرية في شوارع باريس ملتقطا بعدسته تفصيلا ما أو شيئا منسيا. عمل في الريبورتاج لمجلات يديرها مثقفون كبار، وإنتمى الى جمعية الفنانين والكتّاب الثوريين، فغطى الحملة الإنتخابية الظافرة للجبهة الشعبية الإسبانية في العام 1936. نفذ في العام 1945 الفيلم الوثائقي عن سكان ضواحي باريس الشمالية الذين لا يملكون وثائق شخصية رسمية.

مجالي جوفريه/ جريدة لومانتيه

عقاب، سنة 1929

نامت وهي تنتظر، إسبانيا سنة 1936

رائدتان من رواد القفز بالمظلات

شباب

مطبوعات وصلتنا :

• مجموعة من المؤلفين، السارد رائيا (بحوث مؤتمر السرد الثاني)، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق: بغداد 2017.
• د.نجاح كبة، دراسات عن أعلام من الحلة الفيحاء، مكتب زاكي: بغداد 2017.
• د.جمال العتابي، أفق مفتوح (قراءات نقدية في الرواية وموضوعات أخرى)، دار الجواهري: بغداد 2017.
• قيس مجيد علي، سلامٌ على بغداد (ديوان شعر)، مؤسسة ثائر العصامي: بغداد 2017.
• عيسى حسن الياسري، الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت 2017.
• د.بتول قاسم ناصر، القانون المطلق، دار الفارابي: بيروت 2017.
• خبير الآثار الراحل برهان شاكر، تنقيبات عراقية في منطقة سدّ العظيم، مطبعة الأعيان: بغداد 2016.
• التيار الديمقراطي، وثائق المؤتمر الوطني الثاني للتيار، دار الرواد المزدهرة: بغداد 2017.
• أرنولد باس، ترجمة: د.هيثم ضياء العبيدي، الشعور بالذات والقلق الاجتماعي، دار أمجد للنشر والتوزيع: عمّان 2016.
• أحمد خالص الشعلان، ثلاثية بعقوبة.. بعقوبيون، دار الجواهري: بغداد 2017.
• الشاعر والإذاعي الراحل أحمد المظفر، SMS ومضات شعرية، لا يوجد اسم دار نشر أو مطبعة أو مكتب طباعي: بغداد 2017. (شكرا لكريمته الإعلامية مروة المظفر التي أهدتنا هذه الكراسة الشعرية).
• د.سلام كامل كرم، الدستور كعمل غير مكتمل - منع وابطال (تغيير) علاقات السلطة في العراق .بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2016.
• طالب عبد الأمير، نوبل ومثالية الادب . ستوكهولم: أوروك ميديا، 2017).
• جلال عبدوكا، العربون كان سخياً (مجموعة قصصية)، أمل الجديدة طباعة – نشر، توزيع – دمشق 2017.
• جلال عبدوكا، الزمن الأخرس (شعر) امل الجديدة، طباعة، نشر توزيع – دمشق 2017.
• فيكتور باسوفاليوك ، ترجمة د. فالح الحمراني، (سماء بغداد القرمزية) مذكرات وتأملات نائب وزير الخارجية وممثل رئيس روسيا في الشرق الأوسط عن العراق والعالم العربي وسفير موسكو في بغداد – دار الكتب العملية – بغداد 2017.